مدارج السالكين

بين منازل

إياك نعبد وإياك نستعين

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

ت ٧٥١ هـ

تحقيق

عماد عامر

الجزء الأول

دار الحديث

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدارج السالكين

بين منازل

إياك نعبد وإياك نستعين

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم الكتـــاب : مدارج السالكين

اسم المؤلـــف : ابن قيم الجوزية

اسم المحقـــق : عماد عامر

القطــــــع : ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات : ١٢٧٢ صفحة

عدد المجـلدات : مجلد واحد ورق شاموا

سنة الطبـــع : ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

رقـم الإيـداع : ٩٧٢٠ / ٢٠٠٣م

الترقيـم الدولى : ٧-٤٢-٠٠-٣٠٠-٩٧٧

6 222007 701634

طبـع . نشـر . توزيـع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون : ٥٨٩٩٤٠٩ / ٥٩١٨٧١٩ / ٥٩١٩٦٩٧ فاكس : ٥٩١٩٦٩٧

www.darelhadith.com

E-mail: info@darelhadith.com

بسم الله الرحمن الرحيم

* مقدمة المحقق *

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد..

فإن هذا كتاب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» للإمام السلفي العلامة المحقق ابن قيم الجوزية- رحمه الله تعالى وغفر له- تعقب فيه الشيخ الهروى في كتابه الصوفي «المنازل» بالشرح والتعليق وأحيانا يحاول تأويل كلامه على معنى شرعى مقبول ربما خالطه نوع من التكلف، وأحيانًا أخرى ينقض كلامه لكنه يتلطف في الاعتذار عنه، محاولاً أن يقدم تصوراً سلفيًا صحيحًا لمعاني فاتحة الكتاب منبهًا على ما تضمنته من مطالب الحق والهدى والكمال والخير، وما فيها من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته أيضًا من منازل السائرين ومقامات العارفين. فكان - رحمه الله- كما عرفناه في سائر كتبه صاحب قلم بصير وعلم غزير وأفق واسع وخلق سمح.

ثم أما بعد..

فهذا جهد متواضع بذلناه في تخريج أحاديث الكتاب والكلام عليها صحة وضعفًا، وفي شرح لبعض غريب كلماته، وتعليق على بعض مقولاته سائلين الله- تعالى- أن يغفر لنا وللمسلمين أجمعين اللهم آمين.

وكتب

عماد عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عن حياة المؤلف

هو الإمام محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى ـ أبو عبد الله ـ شمس الدين ابن قيم الجوزية.

يعد ابن قيم الجوزية من أركان الإصلاح الإسلامى ومن العلماء البارزين والمشهورين بالتقوى، والورع، والذكاء الحاد، والحزم فى الرد على الملحدين، وأصحاب البدع والضلالات.

ولد بمدينة دمشق سنة (٦٩١ هـ ـ ١٢٩٢م) فى بيت متواضع، ونشأ محبًا للعلم والعلماء، منكبًا على التحصيل، فكان مولعًا فى جميع الكتب، وكان يتفنن فى ترتيبها وتبويبها.

تتلمذ ابن القيم على أكثر علماء عصره، ودرس الفقه والتفسير، والتوحيد واللغة العربية. والتاريخ وعنى عناية خاصة بدراسة الفرق الإسلامية برعاية شيخه «ابن تيمية» حيث أخذ عنه الكثير، ولازمه طوال حياته، وأولع فى كتاباته، انكب على دراستها، وقام بتهذيبها وتبويبها ونشرها بين الناس. وكان ينتصر له فى جميع ما يصدر عنه. وسجن معه فى قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على جمل مضروبًا بالعصى وأطلق سراحه بعد موت شيخه «ابن تيمية».

كان ابن القيم حسن الخلق، محبوبًا عند الناس، له تصانيف كثيرة نذكر منها:

١- مدارج السالكين (فى ثلاثة مجلدات) وهو موضوع كتابنا هذا.

٢- الروح.

٣- حادى الأرواح فى بلاد الأفراح.

٤- طريق الهجرتين وباب السعادتين.

٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين فى (أربعة مجلدات).

٦- اجتماع الجيوش الإسلامية على محاربة المعطلة والجهمية.

٧- الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية.

٨- تحفة المودود فى أحكام المولود.

٩- أحكام أهل الذمة.

١٠- الطب النبوى.

١١- مفتاح دار السعادة.

١٢- الصواعق المرسلة فى الرد على الجهمية والمعطلة.

١٣- أخبار النساء.

١٤- الصــلاة.

١٥- الوابل الصيّب من الكلم الطيب.

١٦- زاد المعاد فى هدى خير العباد.

١٧- التفسير القيم.

١٨- عِدَّةُ الصابرين.

١٩- الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى أو «الداء والدواء».

٢٠- الفـوائد.

٢١- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن.

٢٢- التبيان فى أقسام القرآن.

وغيرها كثير.

توفى- رحمه الله- فى دمشق سنة (٧٥١ هـ- ١٣٥٠م).

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السموات والأرضين. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، والشك واليقين. أنزله لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً، ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه. ونجتنى ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره. فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذى أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التى بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذى منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذى لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذى لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذى لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه(1)، ولا تنقضى آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً. وكلما بَجَّست(2) معينهُ(3) فَجَّر لها ينابيع الحكمة تفجيراً. فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها(4) وجواها(5)، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادى الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادى بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حى على الفلاح. نادى منادى الإيمان على رأس الصراط المستقيم: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)**﴾ [الأحقاف: ٣١]

---

(١) ولا تقلع سحائبه: أقلع الشىء: انجلى وانكشف. يقال: أقلع السحاب وأقلعت السماء: أمسكت عن المطر. وفى القرآن العزيز: ﴿**وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي**﴾ [هود: ٤٤]

(٢) بَجَّست: بَجَّس وبَجَسَ الماء فَجَّره.

(٣) معينه: يقال مَعَنَ الماء أى: سهل وسال أو جرى فهو معين أى سهل جارٍ، وفى التنزيل: ﴿**فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)**﴾ [الملك: ٣٠]

(٤) أدواء: جمع داء وهو المرض ظاهراً وباطنًا.

(٥) جواها: جوى فلان جوًى مرض صدره أو ضاق فالجوى مرض الصدر أو ضيقه.

أسمع -والله- لو صادف آذانًا واعية، وبصر لو صادف قلوبًا من الفساد خالية. لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها. وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها. وران عليها كسبها(١) فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا. وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل.

واعجبًا لها! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين، ونصوص حديث نبيه المرفوع. أم كيف اهتدت فى ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب، وخفى عليها ذلك فى مطالع الأنوار من السنة والكتاب؟.

واعجباً! كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها(٢)، ومقبولها ومردودها(٣)، وراجحها ومرجوحها(٤)، وأقرت على أنفسها بالعجز عن تلقى الهدى والعلم منْ كلامِ مَنْ كَلامُه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غَاية البيَان؟ وكلام من أوتى جوامع الكلم(٥)، واستولى كلامه على الأقصى(٦) من البيان(٧).

كلا، بل هى والله فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرائق قصدها، يربى فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير.

وظنت خفافيش البصائر أنها الغاية التى يتسابق إليها المتسابقون، والنهاية التى تنافس فيها المتنافسون، وتزاحموا عليها. وهيهات. أين السهى من شمس الضحى؟ وأين الثرى من كواكب الجوزاء؟ وأين الكلام الذى لم تُضمَنْ لنا عصْمَةُ قائله بدليل معلوم، من النقل المصدق عن القائل المعصوم؟ وأين الأقوال التى أعلىَ درجاتها: أن تكون سائغة الاتباع، من النصوص الواجب على كل مسلم تقديمها وتحكيمها والتحاكم إليها فى محل النزاع؟

---

(١) ران عليها كَسْبُها: أى غطى عليها وغلبها، وفى القرآن العظيم: ﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤ ﴾ [المطففين: ١٤].

(٢) سقيمها: ضعيفها.

(٣) مردودها: الباطل منها.

(٤) راجحها ومرجوحها: الراجح الأقرب إلى الحق والصواب، والمرجوح ضده.

(٥) هو النبى ﷺ.

(٦) الأقصى من البيان: الغاية والنهاية والقصد منه، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

(٧) هذا والله هو الرشد والفلاح والصواب والنجاح، فمن رأى الحق فى أقوال الرجال فقد خسر وخاب، ومن لم يفهم عن الكتاب والسنة فلا فهم ولا أصاب.

وأين الآراء التى نهى قائلها عن تقليده فيها وحَذَّر [١]، من النصوص التى فَرْضٌ على كل عبد أن يهتدى بها ويتبصر؟ وأين المذاهب التى إذا مات أربها [٢] فهى من جملة الأموات، من النصوص التى لا تزول إذا زالت الأرض والسموات؟

هـداية القرآن

سبحان الله! ماذا حرم المعرضون عن نصوص الوحى، واقتباس العلم من مشكاته [٣] من كنوز الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟ قنعوا بأقوال استنبطتها معاول [٤] الآراء فكرا، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبرا [٥]، وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً.

شرح

درست [٦] معالم القرآن فى قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأفلتت كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم فلذلك لا يحبونها. وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها فليسوا يبصرونها.

خلعوا نصوص الوحى عن سلطان الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمين بعد كمين. نزلت

---

(١) ذلك مثل قول الإمام أبى حنيفة- رحمه الله- : «إذا صحَّ الحديث فهو مذهبى»، وقوله: «حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى»، وقول الإمام مالك بن أنس- رحمه الله- : «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا فى رأيى فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه». وقول الإمام الشافعى- رحمه الله- : «إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت». وقوله: «كل مسألة صحَّ فيه الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها فى حياتى وبعد موتى». وقول الإمام أحمد- رحمه الله- : «لا تقلدنى ولا تقلد مالكًا ولا الشافعى ولا الأوزاعى ولا الثورى وخذ من حيث أخذوا». وقوله: «من ردَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة». وقول الإمام الطحاوى - رحمه الله- : «لا يقلد إلا عصبى أو غبى».

(٢) كذا فى المطبوعة وأظن الصواب: أربابها أى: أصحابها.

(٣) مشكاته: المشكاة كوة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح أو ما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح وفى القرآن الكريم: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

(٤) المعاول: جمع مِعول وهى آلة من الحديد ينقر بها الصخر، والمراد هنا بمعاول الآراء آلات الفكر والرأى.

(٥) زبرًا: فرقًا.

(٦) درست: بادت وانقرضت.

عليهم نزول الضيف على أقوام لئام. فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال والإكرام. وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع فى صدورها والأعجاز(١)، وقالوا: مالك عندنا من عبور، وإن كان ولابد، فعلى سبيل الاجتياز. أنزلوا النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان. له السكة والخطبة وماله حكم نافذ ولا سلطان(٢)، المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول. وأهل الكتاب والسنة، المقدمون لنصوصها على غيرها، جهال لديهم منقوصون: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣].

حُرموا -والله- الوصول، بعُدُولهم عن منهج الوحى، وتضييعهم الأصول. وتمسكوا بأعجاز لَا صدور لها، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها. وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتى إذا بعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذى حصلوه. وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقدموا على ما قدموه ﴿ بَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وسقط فى أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غلة ما بذروه.

فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباءً منثوراً، ويا عظم المصيبة عندما يتبين بوارق أمانيه خُلَّبًا(٣) وآماله كاذبة غروراً. فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى، والتعصب للآراء، بربه يوم تبلى السرائر؟ وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره فى يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟

هيهات والله. لقد ظن أكذب الظن، ومَنَّتْهُ نفسه أبين المحال. وإنما ضمنت النجاة

---

(١) الأعجاز: جمع عَجُز وهو مؤخرة الشىء، وصدورها أوائلها، والمراد بالدفع فى صدور النصوص وأعجازها ترك دلالاتها بالتحريف والتأويل وعدم الانتفاع بها فى هداية وبيان.

(٢) هذا ما كان من أمر الخليفة والخلافة فى عهد ابن القيم وقبله وبعده كما صحَّ فيه قول الشاعر:

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا ... وما من ذاك شىءٌ فى يديه

وهذا من الإمام ابن القيم- رحمه الله- نوع من النقد السياسى والاجتماعى لحال العلم والخلافة فى عصره. واعتراض منه على السقوط فى احترام الشكل دون الحقيقة والمضمون.

(٣) خُلَّبًا: الخلَّبُ: السحاب يومض برقه حتى يرجى مطره ثم يخلف ويتقشع.

لمن حكَّم هدى الله على غيره، وتزود التقوى وائتم بالدليل. وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحى بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها والله سميع عليم.

وبعـد، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾ [العصر]، لمَّا أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصى بهما- كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره- بل أنفاسه- فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد، فى المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة[(١)]، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجراته.

ونحن -بعون الله- ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، ومواهبها وكسبياتها، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها، ولا يسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

المطالب العالية التى اشتملت عليها سورة الفاتحة

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود -تبارك وتعالى- بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها. وهى «الله، الرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» مبنى على الإلهية، و«إياك نستعين»

---

(١) هذه مصطلحات صوفية.

على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود فى إلهيته، وربوبيته، ورحمته؛ والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمن إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرُّدَ الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤].

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين [١]. فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً [٢] هَمَلاً [٣] لا يعرفهم ما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم [٤] للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى مالا يليق به. وما قَدَّره حق قَدْره مَنْ نَسَبَهُ إليه.

الثانى: أخذها من اسم الله وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذى يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصى والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استُحقَّ الثوابُ والعقابُ، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

---

(١) رب العالمين: فى معنى رب أربعة أقوال: حكاها الماوردى وغيره: المالك والسيد والمدبر والمربى. فإن وصف الله تعالى برب لأنه مالك أو سيد فهو من صفات الذات. وإن وصف به لأنه مدبر خلقه ومربيهم فهو من صفات فعله. ومتى دخلته الألف واللام وقيل: الرب اختص بالله تعالى. وإذا حذفنا جاز إطلاقه على غيره، فيقال: رب المال ورب الدار ونحو ذلك. والعالمون جمع عالم وليس للعالم واحد من لفظه.

(٢) سُدًى: مهملاً لا يكلف ولا يجازى، وفى التنزيل العزيز ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة: ٣٦].

(٣) هَمَلاً: الهَمَلُ المهمل المتروك ليلاً ونهاراً بلا رعاية ولا عناية.

(٤) هضم للربوبية: أى نقص من حقها.

الموضع الخامس: من قوله: «إياك نعبد» فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادته -وهى شكره وحبه وخشيته- فطرى ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم. وفى هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر فى العقول. يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فالهداية: هى البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة؛ ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان فى القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه فى القلب، وجعله مؤثراً له، راضيًا به. راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطنًا. ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. ومالا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، ومالا نقدر عليه -مما نريده- كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى -وهى آخر مراتبها- وهى الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هدى فى هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذى أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذى نصبه الله لعباده فى هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطَّرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم مَنْ يمشى مشيًا،

ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم[1] المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردس[2] فى النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة، جزاء وفاقًا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾ [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التى تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلاليب التى بجنبتى ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هى هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت: ٤٦].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسئول. وهو الصراط المستقيم. ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود. ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقًا.

و«الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذى شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وتارة يضاف إلى العباد، كما فى الفاتحة. لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعَم عليهم، وتمييزهم عن طائفتى الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق، أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفًا له.

---

(١) هذا جزء من حديث فى جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة أخرجه البخارى فى «صحيحه» (ج١٣/ ٧٤٣٩- فتح البارى)، ومسلم (ج١- إيمان/ ٣٠٢) عن أبى سعيد الخدرى قال فيه: «... ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم، قلنا: يا رسول الله وما الجسرُ؟ قال: مدحضة مَزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السَعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب فناجٍ مُسَلَّم، وناج مخدوش، ومكدوس فى نار جهنم حتى يمرَّ آخرهم يُسحب سحبًا..».

(٢) المكردس: تكردس الرجل أى انقبض واجتمع بعضه إلى بعض.

فهذه أقسام المكلفين ، لا يخرجون عنها ألبتة[١] . فالعالم بالحق العامل به : هو المنعم عليه . وهو الذى زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ؛ وهو المفلح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ ﴾ [الشمس: ٩]، والعالم به المتبع هواه : هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق : هو الضال . والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل . والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل . فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به . ومن ههنا كان اليهود أحق به . وهو متغلظ في حقهم . كقوله تعالى فى حقهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾[البقرة: ٩٠]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ⑥⓪ ﴾ [المائدة: ٦٠]، والجاهل بالحق : أحق باسم الضلال . ومن هنا وصفت النصارى به فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا[١] فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ⑦⑦ ﴾ [المائدة: ٧٧] .

فالأولى: فى سياق الخطاب مع اليهود .

والثانية: فى سياقه مع النصارى . وفى الترمذى وصحيح ابن حبان . من حديث عدى ابن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ : «اليهود مغضوب عليهم . والنصارى ضالون»[٢] .

ففى ذكر المنعم عليهم -وهم من عرف الحق واتبعه- والمغضوب عليهم -وهم من عرفه واتبع هواه- والضالين -وهم من جهله-: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة . لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود . وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة .

وأضاف النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه .

منهـا: أن النعمة هى الخير والفضل . والغضب من باب الانتقام والعدل . والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين ، وأسبقهما وأقواهما . وهذه طريقة القرآن فى إسناد الخيرات والنعم إليه ، وحذف الفاعل فى مقابلتهما ، كقول مؤمنى الجن ﴿ وَأَنَّا لَا

---

(١) لا تغلوا فى دينكم: غلا فى الدين والأمر: تشدد فيه وجاوز الحدّ وأفرط فهو غال .

(٢) حديث حسن: أخرجه الترمذى (ج٥/ ٢٩٥٣)، وابن حبان كما فى «موارد الظمآن» (٢٢٧٩)، وفى «مسند» أحمد أيضًا (ج٤ ص٣٧٨)، وفى «المعجم الكبير» للطبرانى (ج١٧ / ٢٢٣ - ٢٢٥). ضمن حديث طويل عن عدى بن حاتم الطائى .

نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾ [الجن: ١٠]، ومنه قول الخضر فى شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال فى خرق السفينة ﴿فَأَردتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثم قال بعد ذلك ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ وتأمل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

وفى تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هى الموجبة للفلاح الدائم. وأما مطلق النعمة: فعلى المؤمن والكافر. فكل الخلق فى نعمة. وهذا فصل النزاع فى مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟.

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان. ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والنعمة من جنس الإحسان، بل هى الإحسان. والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

وأما الإحسان المطلق: فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثانى: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرىً للنعمة. وأما الغضب على أعدائه: فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان فى لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له: من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها- ما ليس فى لفظة: «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن فى حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس فى ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس فى حذفه. فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه، ورفع قدره، فقلت: هذا الذى أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه. كان أبلغ فى الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذى أُكرِمَ وخُلِعَ عليه وشُرِّفَ وأُعْطِيَ.

وتأمل سرًا بديعًا فى ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التى هى العلم النافع والعمل الصالح؛ وهى الهدى

ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين.

وذكرُ غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين: الجزاء بالغضب الذى موجبه غاية العَذاب والهوان، والسبب الذى استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التى هى موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، فى غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل فى أهل السعادة، وحذفه فى أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب فى أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» فى مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير فى القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالثانى كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]، والأول كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧﴾ [القمر: ٤٧]، وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: ٧]، وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة فى قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه: ١٢٣]، فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[١] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا[٢] وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦]، فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.

* *

(١) ضنكًا: الضنك: الضيِّق من كل شيء (يستوى فيه المذكر والمؤنث).

(٢) فنسيتها: نَسِيَ الأمر تركه على ذهول أو غفلة، أو تركه على عمد، والمراد هنا الترك على عمد.

فصل

وذَكَرَ «الصراط المستقيم» مفرداً معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة. وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحَّد لفظ: «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله. قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١]، قال الحسن: معناه صراط إلى مستقيم. وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى» والثانى: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أى صراط موصل إلى. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يُعَرِّجُ على شيء. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه. وهو من أصح ما قيل فى الآية. وقيل: «عليَّ» فيه للوجوب، أى علَّى بيانه وتعريفه والدلالة عليه. والقولان نظير القولين فى آية النحل. ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، والصحيح فيها كالصحيح فى آية الحجر: أن السبيل القاصد -وهو المستقيم المعتدل- يرجع إلى الله، ويوصل إليه. قال طفيل الغنوى:

مضوا سَلَفًا، قَصْدَ السبيل عليهم ... وصَرْفُ المنايا(١) بالرّجال تَقَلَّبُ

أى مَمَرُّنا عليهم، وإليهم وصولنا. وقال الآخر:

فهن المنايا: أىُّ واد سَلَكْتُه ... عليها طريقى، أو علىَّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التى هى للانتهاء، لا أداة «على» التى هى للوجوب. ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [لقمان: ٢٣]، وقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم

(١) المنايا: جمع منية وهى الموت.

مَّرْجِعُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال: لما أراد الوجوب ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية: ٢٦]، وقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، ونظائر ذلك؟.

قيل: فى أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدىً. وهو حق. كما قال فى حق المؤمنين: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٧٩]، والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان فى أداة «على» على هذا المعنى ما ليس فى أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة فى ذكر «على» فى ذلك أيضًا. وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق، وعلى الهدى؟.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه. فكان فى الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة «فى» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه[1] وتدسسه فيه[2]، كقوله تعالى: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فصلت: ٤٥].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علوًا صاعدةً بصاحبها إلى العلىِّ الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفْلاً، هاوية بسالكها فى أسفل سافلين.

وفى قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحجر: ٤١]، قول ثالث. وهو قول الكسائى: إنه على التهديد والوعيد، نظير قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ١٤]، كما يقال: طريقك على، وممرك على. لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز. والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله. فإنه قاله مجيبًا لإبليس الذى قال: ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، فإنه لا سبيل لى إلى إغوائهم، ولا طريق لى عليهم.

---

(١) انقماعه: انقمع تغيب ودخل وراء ستر.

(٢) تدسسه فيه: دخوله فيه.

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير. وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم. فلا سلطان لك على عبادى الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط علىَّ. ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم[1] حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله. فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف؟.

وأما تشبيه الكسائى له بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، فلا يخفى الفرق بينهما سياقًا ودلالة. فتأمله. ولا يقال فى التهديد: هذا طريق مستقيم علىَّ، لمن لا يسلكه. وليست سبيل المهدِّد مستقيمة. فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم. وسبيله التى هو عليها ليست مستقيمة على الله. فلا يستقيم هذا القول ألبتة.

وأما من فسره بالوجوب، أى علىّ بيان استقامته والدلالة عليه، فالمعنى صحيح. لكن فى كونه هو المراد بالآية نظر. لأنه حذف فى غير موضع الدلالة. ولم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف. بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة. فإنه حذف مألوف معروف. حتى إنه لا يذكر ألبتة. فإذا قلت: له درهم على. كان الحذف معروفًا مألوفًا. فلو أردت: على نقده، أو على وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت: لم يسغ. وهو نظير: على بيانه. المقدر فى الآية، مع أن الذى قاله السلف أليق بالسياق. وأجل المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية -رضى الله عنه- يقول: وهما نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٢، ١٣]، قال: فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن فى هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر فى سورة «والليل إذا يغشى» إلا معنى الوجوب، أى علينا بيان الهدى من الضلال. ومنهم من لم يذكر فى سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوى. وذكر فى «الحجْر» الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدى فى بسيطه المعنيين فى سورة «النحل» واختار شيخنا قوَل مجاهد والحسن فى السور الثلاث.

والصراط المستقيم: هو صراط الله. وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم، وهذا فى موضعين من القرآن: فى هود،

(١) الحَوْم حول ساحته: حام حول الشيء حومًا دار. وفى الحديث: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه».

والنحل. قال في هود: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، وقال في النحل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾ [النحل]، فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع، ولا تنطق، ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه. فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني. وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله. فقوله صدق ورشد ونصح وهدى. وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة. هذا أصح الأقوال في الآية. وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره. ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي . فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية. ثم قال: وقال الكلبي : يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول. فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه. فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه. وعلى هذا يكون المثل مضروبًا لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لا يقدر على هدى ولا خير. ولإمام الأبرار، وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروبًا لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان. فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية. قال، وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر. يرويه عطية عن ابن عباس . وقال عطاء : الأبكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله. ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادي. وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا. وهو أن الله سبحانه على صراط

مستقيم. وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير. فالشر لا يدخل فى أفعاله ولا أقواله ألبتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل فى أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل فى أفعال من خرج عنه وفى أقواله.

وفى دعائه- عليه الصلاة والسلام- : «لبيك وسعديك، والخير كله بيديك[(١)]، والشر ليس إليك ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدراً. فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر فى أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابق بين هذا المعنى وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦]، أى هو ربى، فلا يسلمنى ولا يضيعنى. وهو ربكم فلا يسلطكم علىَّ ولا يمكنكم منى. فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته. فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو فى تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة. ولو سلطكم على فله من الحكمة فى ذلك ماله الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية، والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل. والله الموفق سبحانه.

---

(١) هو قطعة من حديث صحيح أخرجه مسلم فى «صحيحه» (ج١- صلاة المسافرين / ٢٠١)، والنسائى فى «سننه» (ج٢ ص١٣٠) من حديث على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربى وأنا عبدك، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك».

لبيك: قال العلماء: معناه أن مقيم على طاعتك إقامة بعد إقامة، يقال: لَبَّ بالمكان لبًا، وألبَّ إلبابًا إذا أقام به.

سعديك: قال الأزهرى وغيره: معناه مساعدة لأمرك بعد مساعدة، ومتابعة لدينك بعد متابعة.

هداية المؤمنين وضلال المعرضين

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه[١]، مريدًا لسلوك طريق مرافقُهُ فيها فى غاية القلة والعزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيّق، نبه الله سبحانه على الرفيق فى هذه الطريق، وأنهم هم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه، وليعلم أن رفيقه فى هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين وكلما استوحشت فى تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك فى طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له فى طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه. فوقف ورد عليه، وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه فى نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد فى السعى والجمز[٢] بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثانى: الظبى أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن فى ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

---

(١) ناكبون عنه: مائلون عنه. يقال: نكب عنه مال عنه واعتزله. وفى القرآن العظيم: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٤].

(٢) الجمز: سرعة السير والعدو.

وهذه إحدى الفوائد فى دعاء القنوت «**اللهم اهدنى فيمن هديت**»(١) أى أدخلنى فى هذه الزمرة، واجعلنى رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أى قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لى نصيبًا من هذه النعمة، واجعلنى واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق على فى جملة من تصدقت عليهم. وعلمنى فى جملة من علمته. وأحسن إلى فى جملة من شملته بإحسانك.

الصراط المستقيم أجَلُّ المطالب

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب: علم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده. ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم. توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان فى حديثى الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان فى صحيحه. والإمام أحمد والترمذى.

أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبى ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: «اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله الذى لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد». فقال: «**والذى نفسى بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»(٢) قال الترمذى: حديث صحيح. فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعى له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذى كمل علمه، القادر الذى كملت قدرته» وفى رواية عنه: «هو السيد الذى قد كَمُلَ فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل: «هو

---

(١) هو أول حديث القنوت الذى رواه أحمد (ج١ ص١٩٩) بإسناد صحيح رجاله ثقات من حديث الحسن بن على قال: علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى قنوت الوتر: «اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، إنك تقضى ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت تباركت ربنا وتعاليت» كما أخرجه الترمذى بنحوه. والطبرانى والبيهقى.

(٢) حديث عبد الله بن بريدة أخرجه أحمد فى «مسنده» (ج٥ ص٣٤٩)، والترمذى (ج٥/ ٣٤٧٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائى فى «التفسير» فى سننه الكبرى - كما فى أطراف المزى - وأبو داود فى الصلاة وابن ماجه فى النعوت.

السيد الذى انتهى سؤدده» وقال سعيد بن جبير هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وأقواله» وبنفى التشبيه والتمثيل عنه بقوله: «ولم يكن له كفواً أحد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة. والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثانى: حديث أنس أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض. ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم. فقال: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**»(١) فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب -وهو الهداية- بعد الوسيلتين. فالداعى به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبى ﷺ، الذى كان يدعو به إذا قام يصلى من الليل. رواه البخارى فى «صحيحه» من حديث ابن عباس: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت. وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهى لا إله إلا أنت**»(٢) فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

التوحيد

فى اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التى اتفقت عليها الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع فى العلم والاعتقاد. ونوع فى الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمى. والثانى: التوحيد القصدى الإرادى؛ لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة؛ والثانى بالقصد والإرادة. وهذا الثانى أيضًا نوعان: توحيد فى الربوبية، وتوحيد فى الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

---

(١) حديث أنس بن مالك أخرجه النسائى فى «المجتبى» (ج٣ ص٥٢)، وأحمد فى «مسنده» (ج٣ ص١٥٨، ٢٤٥) من طريق خلف بن خليفة عنه، وخلف صدوق إلا أنه اختلط فى الآخر، ورواية مسلم له هى فى الشواهد.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى فى «صحيحه» (ج٣/ ١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩)، ومسلم فى «صحيحه» (ج١- صلاة المسافرين/ ١٩٩). وانظره أيضًا فى «السنن الأربعة».

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفى التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه. وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحَسَبها. ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لاَ يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التى لا يحصيها سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدى، ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التى عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم- عليه السلام- فى محاجته لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)﴾ [مريم: ٤٢]، فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر علىَّ؟ لكن كان -مع شركه- أعرف بالله من الجهمية. وكذلك كفار قريش كانوا- مع شركهم- مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه. وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن فى هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

فإن قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بلى، قد كلمهم. فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى. ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكى وهم الأنبياء. وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله. فأنزل عليهم كلامه الذى بلغته رسله عنه. وقالوا لهم: هذا كلام الله الذى تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم. ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم. لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذى تكلم به إلى عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة. وقال تعالى فى سورة «طه» عن السامرى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ

خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨، ٨٩]، ورَجْعُ القول: هو التكلم والتكليم. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، فجعل نفى صفة الكلام موجبًا لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا، ولا ربًا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا فى الأولى، ولا فى الآخرة. وإنما الحمد فى الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التى لأجلها استحق الحمد. ولهذا سمى السلف كتبهم التى صنفوها فى السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدًا. لأن نفى ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له، وإنما توحيده: إثبات صفات كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا. وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا؛ فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا ينفقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه. والناس أكثرهم مع ظاهر السكة، ليس لهم نقد النقاد ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧]، والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حَمْدَ فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شىء له. فاتخاذ الولد ينافى ذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التى لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له. فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه. لأن الموجود أكمل من المعدوم. ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته. وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته. وحمد نفسه بأنه لا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته. وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه، وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يرى ولا يدرك، كما أنه يعلم ولا يحاط به علمًا. فمجرد نفى الرؤية ليس

بكمال، لأن العدم لا يرى، فليس فى كون الشىء لا يرى كمال ألبتة، وإنما الكمال فى كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكًا، لعظمته فى نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له، وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب فى القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده.

فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفى لحمده، ونفى الحمد مستلزم لثبوت ضده.

دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهى «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبنى على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهى مشتقة من الصفات. فهى أسماء، وهى أوصاف. وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معانى فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب فى مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إنى ظلمت نفسى، فاغفر لى إنك أنت المنتقم. واللهم أعطنى، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفى معانى أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها. قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها. لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن «القوى» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة. وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزًا. وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفى الصحيح عن النبى ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل

النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١) فأثبت المصدر الذى اشتق منه اسم «البصير».

وفى صحيح البخارى عن عائشة- رضى الله عنها-: «الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات»(٢).

وفى «الصحيح» حديث الاستخارة: «اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»(٣) فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذى له العظمة، كما فى الصحيح عنه ﷺ يقول الله تعالى: «العظمة إزارى، والكبرياء ردائى» وهو الحكيم الذى له الحكم: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر]، وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته أو عظمته: انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التى اشتقت منها أسماؤه.

وأيضًا: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها، فإذا انتقى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضًا :فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التى لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وبَهْتٌ بَيِّن. فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى

---

(١) أخرجه مسلم فى «صحيحه» (ج١- إيمان/ ٢٩٤، ٢٩٥) من حديث أبى موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: فذكره. وانظر «سنن ابن ماجه» (١٩٥- ١٩٧).

سبحات: جمع سبحة وسبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه.

(٢) أخرجه البخارى تعليقًا لا موصولاً فى كتاب «التوحيد» فى ترجمة الباب التاسع قال: قال الأعمش: عن تميم عن عروة عن عائشة قالت: الحديث. وأخرجه النسائى (ج٦ ص١٦٨) عن إسحاق بن إبراهيم عن جرير عن الأعمش به، وابن ماجه (المقدمة ح/ ١٨٨) حدثنا على بن محمد ثنا أبو معاوية ثنا الأعمش به، وأحمد فى «المسند» (ج٦ ص٤٦) عن أبى معاوية عن الأعمش به فى قصة المرأة التى جاءت النبى ﷺ تجادله فى زوجها فى قصة الظهار. وهذه أسانيد صحيحة.

(٣) حديث الاستخارة حديث متفق على صحته أخرجه الشيخان، انظر البخارى (ج١١/ ٦٣٨٢)، وأخرجه أصحاب السنن الأربعة وأحمد فى «مسنده» وغيرهم.

اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطى» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفى معانى أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثانى: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة. وقال ابن عباس ومجاهد «عدلوا بأسماء الله تعالى عما هى عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا. فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان» وروى عن ابن عباس (يلحدون فى أسمائه) «يكذبون عليه» وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد. ومن فعل ذلك فقد كذب على الله. ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد فى أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل فى معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم: «وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلاً، وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا» تعالى الله عما يقول الملحدون عُلُوًا كبيراً.

دلالة الأسماء الخمسة على الذات والصفات

الأصل الثانى: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التى اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم. فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم «الحى» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته. ولكن يتفاوت الناس فى معرفة اللزوم وعدمه. ومن ههنا يقع اختلافهم فى كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختيارى لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة- أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلى» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم العلى العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلى».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوقه شىء، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ: «**وأنت الظاهر، فليس فوقك شىء**» بل هو سبحانه فوق كل شىء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذى ليس دونه شىء، كما قابل «الأول» الذى ليس قبله شىء، بـ «الآخر» الذى ليس بعده شىء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه :ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء فى مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

دلالة اسم الجلالة على الأسماء والصفات

إذا تقرر هذان الأصلان. فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى. والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية(١) له، مع نفى أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هى صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: «الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

---

(١) «الإلهية»: نسبة إلى الإله، وأله فلان إلاهة وألوهة وألوهية عبد. وألهه اتخذه إلهًا، الإله كل ما اتخذ معبودًا. والمراد بصفات الإلهية هنا: صفات الإله الواحد الحق الذى لا إله إلا هو رب العالمين.

فعلم أن اسمه «الله»(١) مستلزم لجميع معانى الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التى اشتق منها اسم «الله» واسم «الله» دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعًا، وفزعًا إليه فى الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم فى أفعاله.

الاستواء على العرش

وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع. والعطاء والمنع. ونفوذ المشيئة وكمال القوة. وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذى الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما فى اسم «الرحمن» الذى هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]. فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها. والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شىء. وفى الصحيح من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه- قال: قال

---

(١) «اللَّه»: علم على الإله المعبود بحق أصله إله، دخلت عليه (أل)، ثم حذفت همزته، وأدغم اللامان.

رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتى تغلب غضبى**»(١)، وفى لفظ: «**فهو عنده على العرش**».

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ⑤﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا** ⑤⑨﴾ [الفرقان: ٥٩]. ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

ارتباط الخلق والأمر بأسمائه (الله - الرب - الرحمن)

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهى «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع. ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شىء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شىء عن ربوبيته. وكل من فى السموات والأرض عبد له فى قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذى لا إله إلا هو، الذى لا تنبغى العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقًا مشركين فى السعير، وفريقًا موحدين فى الجنة.

فالإلهية: هى التى فرقتهم، كما أن الربوبية هى التى جمعتهم.

فالدين والشرع، والأمر والنهى - مظهره، وقيامه - : من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من

(١) أخرجه البخارى (جـ١٣/ ٧٤٠٤)، ومسلم (جـ٤ - توبة ١٦)، وغيرهما من حديث أبى هريرة- رضى الله عنه- وفى رواية لهما عنه أيضًا: «إن رحمتى سبقت غضبى».

صفة الملك. وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهى التعلق، والسبب الذى بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. (فالرحمن على العرش استوى) مطابق لقوله: (رب العالمين، الرحمن الرحيم) فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شىء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شىء برحمته وربوبيته، مع أن فى كونه ربًا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شىء، كما يأتى بيانه إن شاء الله.

إيقاع الحمد على مضمون هذه الأسماء

فى ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود فى إلهيته، محمود فى ربوبيته، محمود فى رحمانيته، محمود فى ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ⟨٦⟩﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⟨٢٦⟩﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⟨٧⟩﴾ [الممتحنة: ٧]، فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضًا. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضًا. وقدرته كمال ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ⟨١٤٩⟩﴾ [النساء: ١٤٩]، واقتران العلم بالحلم: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ⟨١٢⟩﴾ [النساء: ١٢].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك»، واثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليمًا، ولا كل حليم عالم، فما قرن شىء إلى شىء أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى

قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨﴾ [الشعراء] ومن ههنا كان قول المسيح- عليه السلام- : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑪⑧﴾ [المائدة: ١١٨] . أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أى إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهى كمال القدرة. وعن حكمة، وهى كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجانى [لا يكون قادراً حكيمًا عليمًا. بل لا يكون ذلك إلا عجزًا] (١) فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» فى هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة فى غير حينها، وقد فاتت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان فى هذا -من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها- ما ينزه عنه منصب المسيح- عليه السلام- لا سيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدًا، واتخذه إلهًا من دونه. فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة. وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ③⑤ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③⑥﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]، ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أى إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما فى الحديث «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»(٢).

وفى هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

مراتب الهداية الخاصة والعامة، وهى عشر مراتب

المرتبة الأولى : مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران- صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه- قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ①⑥④﴾ [النساء:١٦٤]. فذكر فى أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم

---

(١) فى هامش المطبوعة: «ما بين المعقوفتين زدناه ليتصل الكلام». (قلت): قد أصاب.

(٢) حديث صحيح متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود قال: «كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه يقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»، أخرجه البخارى (جـ٦/ ٣٤٧٧)، (جـ١٢/ ٦٩٢٩)، ومسلم (جـ٣ - الجهاد/ ١٠٥)، وأخرجه غيرهما أيضًا.

الذى حصل له أخص من مطلق الوحى الذى ذكر فى أول الآية. ثم أكده بالمصدر الحقيقى الذى هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعًا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسى بشىء غير التكليم، فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز. قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلامًا بأى طريق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة. لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا التكليم غير التكليم الأول الذى أرسله به إلى فرعون. وفى هذا التكليم الثانى سأل النظر، لا فى الأول. وفيه أعطى الألواح. وكان عن مواعدة من الله له. والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة. وفيه قال الله له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. أى بتكليمى لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه فى كتابه: أنه ناداه وناجاه. فالنداء من بعد، والنجاء(١) من قرب. تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء. أو نجاء وقال له أبوه آدم فى محاجته: «أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟»(٢). وكذلك يقول له أهل الموقف: «إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه»(٣). وكذلك فى حديث الإسراء فى رؤية موسى فى السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية. قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله»، ولو كان التكليم الذى حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به فى هذه الأحاديث معنى. ولا كان يسمى «كليم الرحمن»، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]. ففرق بين تكليم الوحى، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحى المختص بالأنبياء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ

---

(١) «النجاء»: بكسر النون يقال: ناجاه مناجاة: ونجاء سارَّه.

(٢) هو جزء من حديث حجاج آدم وموسى- عليهما السلام- الذى أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٦١٤)، ومسلم (جـ٤ - قدر/ ١٤، ١٥)، وأحمد (جـ٢ - ص٣١٤)، وغيرهما من حديث أبى هريرة- رضى الله عنه.

(٣) انظر حديث أنس بن مالك فى «الشفاعة» برواية البخارى (جـ٢ - ص٣١٤)، وغيره من حديث أبى هريرة- رضى الله عنه.

مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]- الآية. فجعل الوحى فى هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم. وجعله فى آية النساء قسيمًا للتكليم، وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذى هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذى هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

والوحى فى اللغة: هو الإعلام السريع الخفى، ويقال فى فعله: وحى، وأوحى. قال: رؤبة * وحى لها القرار فاستقرت * وهو أقسام، كما سنذكره.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى، فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلاً، يراه عيانًا ويخاطبه، وقد يراه على صورته التى خلق عليها، وقد يدخل فيه الملك، ويوحى إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه، أى يُقْلِع، والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحى الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب- رضى الله عنه- كما قال النبى ﷺ: «إنه كان فى الأمم قبلكم مُحَدَّثُون، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية - رحمه الله- يقول: جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا. وعلق وجودهم فى هذه الأمة بـ «إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يُحْوِج الله الأمة بعده إلى مُحَدَّث ولا مُلْهَم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمَة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشىء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول، فاستغنى به عما منه(١).

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يُحَدَّثُ به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، وإلا رده. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

---

(١) كذا فى الأصل فليحرر.

قـال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «**حدثنى قلبى عن ربى**» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثنى قلبى عن ربى» كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب. قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوه به يومًا من الدهر. وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يومًا «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا. امحه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء»، وقال فى الكلالة: «أقول فيها برأيى. فإن يكن صوابًا فمن الله. وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان»(١) فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ. وأنـت تـرى الاتحادى والحلولى والإباحى الشطاح، والسماعى: مجاهر بالقحة والفرية. **يقول**: «حدثنى قلبى عن ربى».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين. وأعط كل ذى حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئًا واحداً.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة. وقال على بن أبى طالب -وقد سئل «هل خصكم رسـول الله ﷺ بشىء دون الناس؟»- فقال: «لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبداً فى كتابه، وما فى هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»(٢)، وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى- رضى الله عنهما- «والفهم الفهم فيما أدلى إليك»(٣) فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور

---

(١) قال الحافظ ابن كثير فى «تفسيره»: «روى الشعبى عن أبى بكر الصديق أنه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيها برأيى، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة من لا ولد له ولا والد. فلما ولى عمر بن الخطاب قال: «إنى لأستحيى أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه». وقال: رواه ابن جرير وغيره.

(٢) الحديث فى صحيح البخارى (جـ١/ ١١١)، وفى غير موضع وهو أيضًا فى سنن الترمذى والنسائى، وفى مسند أحمد وعند الدارمى من غير وجه عن على بن أبى طالب- رضى الله عنه-.

(٣) ابن القيم بطوله وشرحه فى كتابه «إعلام الموقعين» الجزء الأول - فصل: (النوع الرابع من أنواع الرأى المحمود) - خطاب عمر فى «القضاء».

يقذفه الله في قلبه. يَعْرِف، ويُدْرِكُ مالا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه. وَفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوت مراتب العلماء، حتى عد ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، وما خص به ابن عباس من فهمه منها أنها نَعْي الله سبحانه نبيه إلى نفسه وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًا(١). وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويَدقُّ هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة]. فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب. وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده. والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. فالأول: كفر عناد. والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ [الأنعام: ١١٠]. فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فهذا هدى

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري في «صحيحه»، متفردًا به كما قال ابن كثير في تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.

بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا مُوجب، فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء، وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية. وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه. ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر فى آياته المشهودة ويحضهم على التفكير فى هذه وهذه. وهذا البيان هو الذى بعثت به الرسل. وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④﴾ [إبراهيم: ٤]، فالرسل تبين. والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة. قال تعالى فى هذه المرتبة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فالبيان الأول شرط. وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ㉓﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ⑲ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ⑳ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ㉑ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ㉒ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ㉓﴾ [فاطر]، وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣]، وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم. فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه. ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر. وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته. ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول. فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وقال النبي ﷺ: لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم قل: «اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي»(١). وقد جعل صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدثين. قال: وهو فوق مقام الفراسة. لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، واستصعبت على صاحبها وقتًا، أو استعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد.

قلت: التحديث أخص من الإلهام. فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان. فأما التحديث فالنبي ﷺ قال فيه: «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» يعني من المُحَدَّثين. فالتحديث إلهام خاص. وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]، وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل: ٦٨]، فهذا كله وحي إلهام.

وأما جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتج عليه بأن الفراسة(٢) ربما وقعت نادرة كما تقدم. والنادر لا حكم له، وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه. والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور.

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (جـ٥/ ٣٤٨٣) من طريق شبيب بن شيبة عن الحسن البصري عن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ لأبي: يا حصين كم تعبد اليوم إلهًا؟ قال أبي: سبعة؛ ستًا في الأرض وواحدًا في السماء. قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء. قال: يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك. قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني فقال: قل: «اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي».

وأشار الترمذي إلى ضعفه بقوله: هذا حديث غريب.

(٢) «الفراسة»: المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها. وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» قلت: هو حديث أخرجه الترمذي في «سننه» (جـ٥/ ٣١٢٧) من حديث عطية عن أبي سعيد الخدري وهو إسناد ضعيف لضعف عطية، وقد أشار الترمذي لضعفه بقوله: غريب، وقال: قد روى عن بعض أهل العلم.

والتحقيق فى هذا: أن كل واحد من «الفراسة» و«الإلهام» ينقسم إلى عام وخاص. وخاص كل واحد منهما فوق عامِّ الآخر، وعامٌّ كل واحد قد يقع كثيرًا، وخاصُّهُ قد يقع نادرًا. ولكن الفرق الصحيح: أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل؛ وأما الإلهام فموهبة مجردة، لا تنال بكسب ألبتة.

درجات الإلهام

قال: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: نبأ يقع وحيًا قاطعًا مقرونًا بسماع؛ إذ مطلق النبأ الخبر الذى له شأن؛ فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم».

ويريد بالوحى والإلهام: الإعلام الذى يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أما حصوله بواسطة سمع: فليس ذلك إلهامًا. بل هو من قبيل الخطاب. وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء. وهو الذى خُصَّ به موسى، إذ كان المخاطِبُ هو الحق- عز وجل.

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع: فهو من أحد وجوه ثلاثة لا رابع لها؛ أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابًا جزئيًا. فإن هذا يقع لغير الأنبياء. فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوى تركت خطابه، فلما ترك الكَيَّ عاد إليه خطاب ملكى (١). وهو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه. وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

والثانى: خطاب يلقى فى قلبه يخاطب به الملك روحه، كما فى الحديث المشهور: **«إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد»** (٢). ثم قرأ: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم**

---

(١) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر فى «الإصابة» فى ترجمة عمران بن حصين (جـ٣/ ٦٠١٠)، وقال: قال الدارمى حدثنا سليمان أنه ابن حرب حدثنا أبو هلال حدثنا قتادة عن مطرف، قال عمران بن حصين: «إنى محدثك بحديث؛ إنه كان يُسَلَّمُ علىَّ، وإن ابن زياد أمرنى فاكتويت، فاحتبس عنى حتى ذهب أثر الكى.

قلت: فى هذا الإسناد تدليس قتادة وعنعنته.

(٢) أخرجه النسائى فى «التفسير» فى «سننه الكبرى»، والترمذى فى «سننه» (جـ٥/ ٢٩٨٨)، وقال: هذ حديث حسن غريب.

=

بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الأنفال: ١٢]، قيل فى تفسيرها: قوُّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل فى قلوب عباده المؤمنين. كما فى جامع الترمذى و مسند أحمد من حديث النواس بن سمْعان عن النبى ﷺ قال: «**إن الله تعالى ضرب مثلا: صراطًا مستقيمًا، وعلى كَنَفَتَىْ الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله. والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن**»[1] فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة.

وأما وقوعه بغير واسطة: فمما لم يتبين بعد، والجزم فيه بنفى أو إثبات موقوف على الدليل. والله أعلم.

النوع الثانى: من الخطاب المسموع خطاب الهواتف من الجان، وقد يكون المخاطب جِنِّيًا مؤمنًا صالحًا، وقد يكون شيطانًا. وهذا أيضًا نوعان:

أحدهما: أن يخاطبه خطابًا يسمعه بأذنه.

والثانى: أن يلقى فى قلبه عندما يُلمُّ به. ومنه وعده وتَمْنيته حين يَعدُ الإنسى ويُمَنِّيه، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا** (١٢٠) ﴾ [النساء]، وقال: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وللقلب من هذا الخطاب نصيب. وللأذن أيضًا منه نصيب. والعصمة منتفية إلا عن الرسل. ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحمانى، أو ملكى؟ بأى برهان؟ أو بأى دليل؟ والشيطان يقذف فى النفس وحيه. ويلقى فى السمع خطابه. فيقول المغرور المخدوع «قيل

= (اللَّمة): النزول والقرب. والمراد بها ما يقع فى القلب بواسطة الشيطان أو الملك.

(١) أخرجه الترمذى (جـ٥/ ٢٨٥٩)، وأحمد (جـ٤ - ص١٨٣) كلاهما من طريق بقية بن الوليد عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان الكلابى به وضعفه الترمذى.

لى، وخوطبت» صدقت، لكن الشأن فى القائل لك والمخاطب. وقد قال عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- لغيلان بن سلمة - وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه - «إنى لأظن الشيطان - فيما يسترق من السمع - سمع بموتك. فقذفه فى نفسك» فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟.

النوع الثالث: خطاب حالى. تكون بدايته من النفس، وعوده إليها. فيتوهمه من خارج. وإنما هو من نفسه، منها بدأ وإليها يعود.

وهذا كثيراً ما يعرض للسالك، فيغلط فيه. ويعتقد أنه خطاب من الله. كلمه به منه إليه. وسبب غلطه: أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة، وانقطعت علقها عن الشواغل الكثيفة: صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن، ومصير الحكم لهما. فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعانى التى هى متصلة بهما، وتشتد عناية الروح بها. وتصير فى محل تلك العلائق والشواغل، فتملأ القلب، فتصرف تلك المعانى إلى المنطق، والخطاب القلبى الروحى بحكم العادة. ويتفق تجرد الروح. فتتشكل تلك المعانى للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة، وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية. فيرى صورها، ويسمع الخطاب. وكله فى نفسه ليس فى الخارج منه شيء. ويحلف أنه رأى وسمع. وصدق، لكن رأى وسمع فى الخارج، أو فى نفسه؟ ويتفق ضعف التمييز. وقلة العلم، واستيلاء تلك المعانى على الروح. وتجردها عن الشواغل.

فهذه الوجوه الثلاثة هى وجوه الخطاب. ومن سَمَّعَ نفسه غيرها فإنما هو غرور، وخدع وتلبيس. وهذا الموضع مقطع القول، وهو من أجل المواضع لمن حققه وفهمه. والله الموفق للصواب.

قال: «الدرجة الثانية: إلهام يقع عيانًا. وعلامة صحته: أنه لا يخرق ستراً. ولا يجاوز حداً. ولا يخطئ أبداً».

الفرق بين هذا وبين الإلهام فى الدرجة الأولى: أن ذلك علم شبيه بالضرورى الذى لا يمكن دفعه عن القلب. وهذا معاينة ومكاشفة. فهو فوقه فى الدرجة، وأتم منه ظهوراً. ونسبته إلى القلب نسبة المرئى إلى العين. وذكر له ثلاث علامات.

إحداها: «أنه لا يخرق ستراً» أى صاحبه إذا كوشف بحال غير المستور عنه لا يخرق ستره ويكشفه، خيراً كان أو شراً، أو أنه لا يخرق ما ستره الله من نفسه عن الناس. بل يستر نفسه، ويستر من كوشف بحاله.

الثانية :«أنه لا يجاوز حدًا» يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه لا يتجاوز به إلى ارتكاب المعاصى ، وتجاوز حدود الله مثل الكهان ، وأصحاب الكشف الشيطانى .

الثانى : أنه لا يقع على خلاف الحدود الشرعية ، مثل أن يتجسس به على العورات التى نهى الله عن التجسس عليها وتتبعها . فإذا تتبعها وقع عليها بهذا الكشف ، فهو شيطانى لا رحمانى .

الثالثة : أنه لا يخطئ أبدًا ، بخلاف الشيطانى ، فإن خطأه كثير . كما قال النبى ﷺ لابن صائد: «**ما ترى؟ قال:** أرى صادقًا وكاذبًا. **فقال:** لبس عليك»(١) فالكشف الشيطانى لابد أن يكذب ، ولا يستمر صدقه ألبتة .

قال: «الدرجة الثالثة : إلهام يجلو عين التحقيق صرفًا ، وينطق عن عين الأزل محضًا . والإلهام غاية تمتنع الإشارة إليها» .

عين التحقيق عنده : هى الفناء فى شهود الحقيقة ، بحيث يضمحل كل ما سواها فى ذلك الشهود . وتعود الرسوم أعدامًا محضة . فالإلهام فى هذه الدرجة : يجلو هذا العين للملهم صرفًا . بحيث لا يمازجها شىء من إدراك العقول ولا الحواس فإن كان هناك إدراك عقلى أو حسى لم يتمحض جلاء عين الحقيقة . والناطق عن هذا الكشف عندهم : لا يفهم عنه إلا من هو معه ، ومشارك له . وعند أرباب هذا الكشف : أن كل الخلق عنه فى حجاب . وعندهم : أن العلم والعقل والحال حجب عليه . وأن خطاب الخلق إنما يكون على لسان الحجاب ، وأنهم لا يفهمون لغة ما وراء الحجاب من المعنى المحجوب . فلذلك تمتنع الإشارة إليه ، والعبارة عنه . فإن الإشارة والعبارة إنما يتعلقان بالمحسوس والمعقول ، وهذا أمر وراء الحس والعقل .

وحاصل هذا الإلهام : أنه إلهام ترتفع معه الوسائط وتضمحل وتعدم ، لكن فى الشهود لا فى الوجود . وأما الاتحادية ، القائلون بوحدة الوجود : فإنهم يجعلون ذلك اضمحلالاً وعدمًا فى الوجود ، ويجعلون صاحب المنازل منهم ، وهو برىء منهم عقلًا ودينًا وحالاً ومعرفة . والله أعلم .

المرتبة العاشرة: من مراتب الهداية : الرؤيا الصادقة ، وهى من أجزاء النبوة كما ثبت

---

(١) انظر صحيح مسلم (جـ٤ - الفتن وأشراط الساعة/ ٩٥).

عن النبى ﷺ أنه قال: **«الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**(١).

وقد قيل فى سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحى كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة، ثم انتقل إلى وحى اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفى - صلوات الله وسلامه عليه - فنسبة مدة الوحى فى المنام من ذلك: جزء من ستة وأربعين جزءًا. وهذا حسن. لولا ما جاء فى الرواية الأخرى الصحيحة «إنها جزء من سبعين جزءًا»(٢).

وقد قيل فى الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائى، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين. ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين. والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحى. وصدقها بحسب صدق الرائى. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا. وهى عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبى ﷺ. وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما فى زمن قوة نور النبوة: ففى ظهور نورها وقوته ما يغنى عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابة. ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى. وقال عبادة بن الصامت «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام»(٣)، وقد قال النبى ﷺ: **«لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قيل وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له»**(٤)، وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبى ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر. فمن كان منكم متحريها فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان»(٥).

---

(١) هو بلفظ: «الرؤيا الصالحة ...» حديث صحيح أخرجه البخارى عن أبى سعيد، ومسلم عن ابن عمرو، وعن أبى هريرة، وأحمد وابن ماجه عن أبى رزين، والطبرانى عن ابن مسعود، وبلفظ: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»، أخرجه البخارى وأحمد والنسائى وابن ماجه عن أنس.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد وابن ماجه عن ابن عمر، وأحمد عن ابن عباس. انظرهما فى «صحيح الجامع الصغير» برقمى (٣٥٢٠، ٣٥٢٣).

(٣) هذا من كلام عبادة ولم أقف عليه.

(٤) حديث صحيح متفق عليه: أخرجه البخارى فى «التعبير»، ومسلم فى «الصلاة»، وهو فى بقية السنن والمسند.

(٥) حديث صحيح متفق عليه: أخرجه البخارى فى «التهجد»، وفى «ليلة القدر»، ومسلم فى «الصيام»، ورواه مالك فى «الموطأ»، وأحمد فى «المسند».

والرؤيا كالكشف، منها رحمانى، ومنها نفسانى. ومنها شيطانى. وقال النبى ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة. فيراه فى المنام**»(١).

والذى هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التى من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحى. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل- عليهما السلام- بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحى الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟.

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة فى حكمه، لم يعرف الرائى اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهى. ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. ويذكر الله حتى تغلبه عيناه. فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهى، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت- رضى الله عنه-: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام».

وللرؤيا ملك موكل بها، يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك: «الرؤيا من الوحى وحى» وزجر عن تفسيرها بلا علم(٢). وقال: «أتتلاعب بوحى الله؟».

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه بنحوه من حديث أبى هريرة وابن ماجه أيضًا من حديث عوف بن مالك.

انظر: صحيح «الجامع الصغير» (٣٥٢٧، ٣٥٢٨)، وانظر: البخارى (تعبير/ ٢٦)، وصحيح مسلم (رؤيا/ ١، ٧، ١٠).

(٢) «زجر»: نهى وكف. وفى الحديث: «لا تقص الرؤيا إلا على عالم أو ناصح»، أخرجه الترمذى عن أبى هريرة.

بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين : (شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان)

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال ، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم . وفساد القصد .

ويترتب عليهما داءان قاتلان ، وهما الضلال والغضب . فالضلال نتيجة فساد العلم . والغضب نتيجة فساد القصد . وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها . فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال . ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد . وأوجبه عليه كل يوم وليلة . فى كل صلاة ، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة . ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه .

والتحقق بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) علمًا ومعرفة ، وعملاً وحالاً : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد . فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل . فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلاَ نَوْعَىْ قصده فاسدًا . وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته : من المشركين ، ومتبعى الشهوات ، الذين لا غاية لهم وراءها ، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأى طريق كان من حق أو باطل . فإذا جاء الحق معارضًا فى طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم . فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل . فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان . فإذا لم يجدوا منه بدًا أعطوه السكة والخطبة(١) ، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين . لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم ، وانتصارهم به ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد فى غاياتهم ووسائلهم . وهؤلاء إذا بطلت الغايات التى طلبوها ، واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات . وهم أعظم الناس ندامةً وتحسراً ، إذا حق الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التى كانت

(١) «السكة» : ما يضرب على النقود من اسم أو شعار . وهو يريد ما كان عليه الخلفاء فى عصره إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الشعار والرمز أما السلطة الحقيقية ، والتصرف فى الأمور فقد كان لغيرهم من الأمراء والقواد والمماليك كما قال الشاعر :

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا ... وما من ذاك شىء فى يديه

بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً فى الدنيا. ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه فى البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجى مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهى من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضًا كحال هذا. وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء «إياك نعبد وإياك نستعين».

فإن هذا الدواء مُرَكَّبٌ من ستة أجزاء (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هى أجزاء (إياك نعبد وإياك نستعين) فإذا ركَّبَهَا الطبيبُ اللطيفُ، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام. وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد. وهما الرياء، والكبر. فدواء الرياء بـ (إياك نعبد)، ودواء الكبر بـ (إياك نستعين).

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: (إياك نعبد) تدفع الرياء، (وإياك نستعين) تدفع الكبرياء.

فإذا عوفى من مرض الرياء بـ (إياك نعبد)، ومن مرض الكبرياء والعجب بـ (إياك نستعين)، ومن مرض الضلال والجهل بـ (اهدنا الصراط المستقيم) عوفى من أمراضه وأسقامه، ورفل فى أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعم عليهم «غير المغضوب عليهم»، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «والضالين» وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذى هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شىء أشفى للقلوب التى عقلت عن الله وكلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًا، اختصها به، من معانى هذه السورة.

وسنبين إن شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة : ففى الصحيح من حديث أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى أن أناسًا من أصحاب النبى ﷺ مروا بحى من العرب. فلم يقروهم، ولم يُضَيِّفُوهم. فَلُدغَ سيد الحى، فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رقية، أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تَقْرُونا. فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب. فقام كأن لم يكن به قلبة. فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتى النبى ﷺ. فأتيناه، فذكرنا له ذلك. فقال: **«ما يدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لى معكم بسهم»**(١).

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه. فأغنته عن الدواء. وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحى غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم. فكيف إذا كان المحل قابلاً.

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحُمَّات والسموم. وهى ذوات الأنفس الخبيثة التى تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سمية نارية، يحصل بها اللدغ. وهى متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها. فإذا تكيفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية، تجد راحة ولذة فى إلقائها إلى المحل المقابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة فى إيصال شره إلى من يوصله إليه. وكثير من الناس لا يهنأ له عيش فى يوم لا يؤذى فيه أحداً من بنى جنسه، ويجد فى نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذى فيه، حتى يفرغه فى غيره، فيبرد عند ذلك أنينه، وتسكن نفسه، ويصيبه فى ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع، فيسوء خلقه، وتثقل نفسه حتى يقضى وطره، هذا فى قوة الشهوة، وذاك فى قوة الغضب.

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس الغضبية، فلولا هو لفسدت

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم فى «صحيحه» (جـ٤ - سلام/ ٦٥)، وأخرجه البخارى بمعناه (جـ١٠/ ٥٧٣٧) من حديث ابن عباس.

الأرض وخربت ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وأباح الله - بلطفه ورحمته - لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها.

والمقصود: أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر فى المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها ما يطمس البصر، ويسقط الحَبَلَ.

ومن هذا نظر العائن. فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت فى نفسه كيفية سمية أثرت فى المعين بحسب عدم استعداده، وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس. وكثير من هذه النفوس يؤثر فى المعين إذا وصف له. فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به. ومنكر هذا ليس معدوداً من بنى آدم إلا بالصورة والشكل(١). فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التى فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية. وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذى ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نماه وزاده. دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء، فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده، وحفظ الشىء بمثله، فالصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد. أسبابٌ رَبَطَها بمسبباتها الحكيمُ العليمُ خلقًا وأمرًا. ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة، وقبول من الطبيعة المنفعلة، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقى على التأثير، لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن عرف هذا كما ينبغى تبين له أسرار الرقى(١)، وميز بين النافع منها وغيره، ورقى الداء بما يناسبه من الرقى، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع. وهذه إشارة مُطْلِعَةٌ عَلَى ما وراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله. والله أعلم.

---

(١) واعجبًا له رحمه الله!! من أين جزم بصحة هذا المعنى؟ وكيف ينعى على منكره حتى أخرجه من معنى الإنسانية ولم يجعل له منها إلا الصورة والشكل، وهو لم يُقِمْ على إثباته شاهداً من نص كتاب أو سنة أو ضرورة حس؟؟ ولو أن الأمر كما قال لما تركته الملوك فى حروبها ولاستخدمه كل عدو مع عدوه، والله تعالى أعلم.

(٢) «الرقية»: العودة التى يُرْقَى بها المريض ونحوه وجمعها رقى.

وأما شهادة التجارب بذلك : فهى أكثر من أن تذكر . وذلك فى كل زمان . وقد جربت أنا من ذلك فى نفسى وفى غيرى أموراً عجيبة . ولا سيما مدة المقام بمكة . فإنه كان يعرض لى آلام مزعجة ، بحيث تكاد تقطع الحركة منى ، وذلك فى أثناء الطواف وغيره ، فأبادر إلى قراءة الفاتحة ، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط . جربت ذلك مراراً عديدة . وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً ، فأشربه فأجد به من النفع والقوة مالم أعهد مثله فى الدواء(١). والأمر أعظم من ذلك ، ولكن بحسب قوة الإيمان ، وصحة اليقين . والله المستعان .

فى اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنِّحلِ والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة

وهذا يعلم بطريقين، مجمل ومفصل :

أما المجمل : فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق ، وإيثاره ، وتقديمه على غيره ، ومحبته والانقياد له ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان .

والحق : هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وما جاء به علمًا وعملاً فى باب صفات الرب سبحانه ، وأسمائه وتوحيده ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وفى حقائق الإيمان ، التى هى منازل السائرين إلى الله تعالى . وكل ذلك مسلم إلى رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم .

فكل علم أو عمل أو حقيقة ، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته ، وعليه السكة المحمدية ، بحيث يكون من ضرب المدينة . فهو من الصراط المستقيم وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال . فما ثم خروج عن هذه الطرق الثلاث : طريق الرسول ﷺ وما جاء به ، وطريق أهل الغضب ، وهى طريق من عرف الحق وعانده . وطريق أهل الضلال : وهى طريق من أضله الله عنه . ولهذا قال عبد الله بن عباس و جابر بن عبد الله- رضى الله عنهم- : «الصراط المستقيم : هو الإسلام» ، وقال عبد الله بن مسعود و على بن أبى طالب- رضى الله عنهما- : «هو القرآن» ، وفيه حديث مرفوع فى الترمذى(٢)

---

(١) ليس هذا سنة ثابتة، ولا يدخل هذا الذى وقع له فى عداد المنهج العلمى للتجريب ، لكن الله سبحانه وتعالى ينفع من شاء بما شاء كيف شاء ، ولعل ما وفق إليه من عافية كان ببركة اللجوء إلى الله وإخلاص الدعاء له . والله تعالى أعلم .

(٢) انظر سنن الترمذى(جـ٥/ ٢٩٠٦) عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب بإسناد مجهول. وفى الحارث مقال .

وغيره، وقال سهل بن عبد الله «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبد الله المزنى: «طريق رسول الله ﷺ».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره. فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل. وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.

وأما المفصل: فبمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها. فنقول:

الناس قسمان: مقر بالحق تعالى، وجاحد له. فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى، والرد على من جحده، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

وتأمل حال العالم كله، علويه وسفليه، بجميع أجزائه: تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه. فإنكار صانعه وجحده فى العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق، والفعال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية، والفطر الصحيحة: أظهر من العكس.

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه. ولا ريب أنهما طريقان صحيحان، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما.

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير. وأما الاستدلال بالصانع فله شأن. وهو الذى أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أى أيُشَكُّ فى الله حتى يُطْلَبَ إقامة الدليل على وجوده؟ وأى دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية -قدس الله روحه- يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شىء؟ وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمها.

وإذا بطل قول هؤلاء بطل قول أهل الإلحاد، القائلين بوحدة الوجود، وأنه ما ثم وجود قديم خالق ووجود حادث مخلوق، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله، وهو حقيقة وجود هذا العالم. فليس عند القوم رب وعبد، ولا مالك ومملوك، ولا راحم ومرحوم، ولا عابد ومعبود(١)، ولا مستعين ومستعان به، ولا هاد ولا مهدى، ولا منعم ولا منعم عليه، ولا غضبان ومغضوب عليه. بل الرب هو نفس العبد وحقيقته، والمالك هو عين المملوك، والراحم هو عين المرحوم، والعابد هو نفس المعبود. وإنما التغاير أمر اعتبارى بحسب مظاهر الذات وتجلياتها. فتظهر تارة فى صورة معبود، كما ظهرت فى صورة فرعون. وفى صورة عبد، كما ظهرت فى صورة العبيد، وفى صورة هاد، كما فى صورة الأنبياء والرسل والعلماء. والكل من عين واحدة، بل هو العين الواحدة، فحقيقة العابد ووجوده، أو إنيته: هى حقيقة المعبود ووجوده وإنيته.

والفاتحة من أولها إلى آخرها تبين بطلان قول هؤلاء الملاحدة وضلالهم.

الرد على المجوس والقدرية

والمُقِرُّون بالرب سبحانه وتعالى: أنه صانع العالم نوعان:

نوع ينفى مباينته لخلقه، ويقولون: لا مباين ولا محايث، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا عن يمينه ولا عن يساره، ولا خلفه ولا أمامه، ولا فيه ولا بائن عنه.

فتضمنت الفاتحة الرد على هؤلاء من وجهين(٢):

أحدهما: إثبات ربوبيته تعالى للعالم. فإن الربوبية المحضة تقتضى مباينة الرب للعالم بالذات، كما باينهم بالربوبية، وبالصفات والأفعال، فمن لم يثبت ربًا مباينًا للعالم، فما أثبت ربًا. فإنه إذا نفى المباينة لزمه أحد أمرين، لزومًا لا انفكاك له عنه ألبتة: إما أن يكون هو نفس هذا العالم. وحينئذ يصح قوله. فإن العالم لا يباين ذاته ونفسه. ومن ههنا دخل أهل الوحدة، وكانوا معطلة أولاً، واتحادية ثانيًا.

---

(١) قال ابن عربى الحاتمى شيخ الصوفية الناطق بلسانهم:

العبد رب والرب عبد ... يا ليت شعرى من المكلف؟
إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنى يكلف؟

(علقه الأستاذ الشيخ/ محمد حامد الفقى).

(٢) لم يذكر إلا وجهًا واحدًا. (علقه الأستاذ الشيخ/ محمد حامد الفقى).

وإما أن يقول : ما ثم رب يكون مباينًا ولا محايثًا، ولا داخلاً ولا خارجًا، كما قالته الدهرية المعطلة للصانع.

وأما هذا القول الثالث المشتمل على جمع النقيضين : إثبات رب مغاير للعالم مع نفى مباينته للعالم، وإثبات خالق قائم بنفسه، لا فى العالم ولا خارج العالم، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا خلفه ولا أمامه، ولا يمنته ولا يسرته : فقول له خبىء، والعقول لا تتصوره حتى تصدق به. فإذا استحال فى العقل تصوره، فاستحالة التصديق به أظهر وأظهر. وهو منطبق على العدم المحض، والنفى الصرف، وصدقه عليه أظهر عند العقول والفطر من صدقه على رب العالمين.

فضع هذا النفى وهذه الألفاظ الدالة عليه على العدم المستحيل. ثم ضعها على الذات العلية القائمة بنفسها، التى لم تحل فى العالم، ولا حل العالم فيها، ثم انظر أى المعلومين أولى به؟

واستيقظ لنفسك، وقم لله قَوْمة مفكر فى نفسه فى الخلوة فى هذا الأمر، متجرد عن المقالات وأربابها، وعن الهوى والحمية والعصبية، صادقًا فى طلب الهداية من الله. فالله أكرم من أن يخيب عبداً هذا شأنه. وهذه المسألة لا تحتاج إلى أكثر من إثبات رب قائم بنفسه، مباين لخلقه، بل هذا نفس ترجمتها.

الرد على الجهمية

ثم المثبتون للخالق تعالى نوعان :

أهل توحيد، وأهل إشراك. وأهل الإشراك نوعان :

أحدهما : أهل الإشراك به فى ربوبيته وإلهيته، كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية. فإنهم يثبتون مع الله خالقًا آخر، وإن لم يقولوا : إنه مكافئ له. والقدرية المجوسية تثبت مع الله خالقين للأفعال، ليست أفعالهم مقدورة لله، ولا مخلوقة لهم، وهى صادرة بغير مشيئته. ولا قدرة له عليها، ولا هو الذى جعل أربابها فاعلين لها، بل هم الذين جعلوا أنفسهم شائين مريدين فاعلين.

فربوبية العالم الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوال هؤلاء كلهم. لأنها تقتضى ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال.

وحقيقة قول القدرية المجوسية : أنه تعالى ليس ربًا لأفعال الحيوان، ولا تناولتها ربوبيته. وكيف تتناول مالا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟ مع أن فى عموم حمده ما

يقتضى حمده على طاعات خلقه. إذ هو المعين عليها والموفق لها، وهو الذى شاءها منهم، كما قال فى غير موضع من كتابه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فهو محمود على أن شاءها لهم، وجعلهم فاعليها بقدرته ومشيئته. فهو المحمود عليها فى الحقيقة. وعندهم: أنهم هم المحمودون عليها، ولهم الحمد على فعلها. وليس لله حمد على نفس فاعليتها عندهم، ولا على ثوابه وجزائه عليها.

أما الأول: فلأن فاعليتها بهم لا به. وأما الثانى: فلأن الجزاء مستحق عليه استحقاق الأجرة على المستأجر. فهو محض حقهم، الذى عاوضوه عليه.

وفى قوله: (وإياك نستعين) رد ظاهر عليهم. إذ استعانتهم به إنما تكون عن شىء هو بيده وتحت قدرته ومشيئته. فكيف يستعين من بيده الفعل وهو موجده، إن شاء أوجده وإن شاء لم يوجده، بمن ليس ذلك الفعل بيده، ولا هو داخل تحت قدرته ولا مشيئته؟.

وفى قوله: (اهدنا الصراط المستقيم) أيضًا رد عليهم. فإن الهداية المطلقة التامة هى المستلزمة لحصول الاهتداء. ولولا أنها بيده تعالى دونهم لما سألوه إياها. وهى المتضمنة للإرشاد والبيان، والتوفيق والإقدار، وجعلهم مهتدين. وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة، كما ظنته القدرية. لأن هذا القدر وحده لا يوجب الهدى، ولا ينجى من الردى. وهو حاصل لغيرهم من الكفار، الذين استحبوا العمى على الهدى، واشتروا الضلالة بالهدى.

النوع الثانى: أهل الإشراك به فى إلهيته. وهم المقرون بأنه وحده رب كل شىء، ومليكه وخالقه، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين، ورب السموات السبع، ورب العرش العظيم. وهم مع هذا يعبدون غيره، ويعدلون به سواه فى المحبة والطاعة والتعظيم. وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادًا. فهؤلاء لم يوفوا «إياك نعبد» حقه، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» لكن ليس لهم نصيب من «إياك نعبد» المتضمن معنى: لا نعبد إلا إياك، حبًا وخوفًا ورجاءً وطاعةً وتعظيمًا، فـ «إياك نعبد» تحقيق لهذا التوحيد، وإبطال للشرك فى الإلهية، كما أن «إياك نستعين» تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال الشرك به فيها، وكذلك قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق «إياك نعبد، وإياك نستعين»؛ وأهل الإشراك: هم أهل الغضب والضلال.

**

فى تضمنها الرد على الجهمية معطلة الصفات

وذلك من وجوه :

أحدها : من قوله : (الحمد لله) فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه، من صفات كماله، ونعوت جلاله. إذ مَنْ عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق. وغايته: أنه محمود من وجه دون وجه، ولا يكون محموداً بكل وجه، وبكل اعتبار، بجميع أنواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها.

وكذلك فى إثبات صفة الرحمة له : ما يتضمن إثبات الصفات التى تستلزمها: من الحياة، والإرادة والقدرة، والسمع والبصر، وغيرها.

وكذلك صفة الربوبية : تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال: ذاتًا وأفعالاً، كما تقدم بيانه.

فكونه محموداً إلهًا ربًا، رحمانًا رحيمًا، ملكًا معبوداً، مستعانًا، هاديًا منعمًا، يرضى ويغضب -مع نفى قيام الصفات به: جمع بين النقيضين. وهو من أمحل المحال.

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين :

أحدهما : أنها من لوازم كماله المطلق. فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا فى نصف الليل الثانى: من لوازم رحمته وربوبيته، وهكذا سائر الصفات الخبرية.

الوجه الثانى : أن السمع ورد بها، ثناء على الله ومدحًا له، وتعرفًا منه إلى عباده بها. فجحدها وتحريفها عما دلت عليه، وعما أريد بها: مناقض لما جاءت به، فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال، وأن تستدل بالعقل كما تقدم.

فى تضمنها للرد على الجبرية

وذلك من وجوه:

أحدها : من إثبات عموم حمده سبحانه. فإنه يقتضى أن لا يعاقب عبيده على مالا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم، بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم. فهو الفاعل لقبائحهم فى الحقيقة. وهو المعاقب لهم عليها. فحمده

عليها يأبى ذلك أشد الإباء، وينفيه أعظم النفى. فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التى فعلوها حقيقة. فهى أفعالهم لا أفعاله. وإنما أفعاله العدل، والإحسان والخيرات.

الوجه الثانى: إثبات رحمته ورحمانيته ينفى ذلك إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط- أن يكون رحمانًا رحيمًا- ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه، ولا هو من فعله، بل يكلفه مالا يطيقه، ولا له عليه قدرة ألبتة، ثم يعاقبه عليه. وهل هذا إلا ضد الرحمة. ونقض لها وإبطال؟ وهل يصح فى معقول أحد اجتماع ذلك، والرحمة التامة الكاملة، فى ذات واحدة؟.

الوجه الثالث: إثبات العبادة والاستعانة لهم، ونسبتها إليهم، بقولهم: «نعبد»، و«نستعين» وهى نسبة حقيقية لا مجازية. والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التى هى من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين. والله هو المعبود المستعان به.

فى بيان تضمنها للرد على القائلين بالموجب بالذات دون الاختيار والمشيئة، وبيان أنه سبحانه فاعل مختار

وذلك من وجوه:

أحدها: من إثبات حمده. إذ كيف يحمد على ما ليس مختاراً لوجوده، ولا هو بمشيئته وفعله؟ وهل يصح حمد الماء على آثاره وموجباته؟ أو النار والحديد وغيرها فى عقل أو فطرة؟ وإنما يحمد الفاعل المختار بقدرته ومشيئته على أفعاله الحميدة. هذا الذى ليس يصح فى العقول والفطر سواه. فخلافه خارج عن الفطرة والعقل وهو لا ينكر خروجه عن الشرائع والنبوات. بل يتبجح بذلك، ويعده فخراً.

الثانى: إثبات ربوبيته تعالى: يقتضى فعله بمشيئته واختياره، وتدبيره وقدرته. وليس يصح فى عقل ولا فطرة ربوبية الشمس لضوئها، والماء لتبريده، وللنبات الحاصل به، ولا ربوبية شىء أبدًا لما لا قدرة له عليه ألبتة. وهل هذا إلا تصريح بجحد الربوبية؟

فالقوم كنوا للأغمار، وصرحوا لأولى الأفهام.

الثالث: إثبات ملكه، وحصول ملك لمن لا اختيار له، ولا فعل ولا مشيئة غير معقول، بل كل مملوك له مشيئة واختيار وفعل أتم من هذا الملك وأكمل ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (١٧) ﴾ [النحل: ١٧].

الرابع : من كونه مستعانًا ، فإن الاستعانة بمن لا اختيار له ولا مشيئة ولا قدرة محال .

الخامس : من كونه مسئولاً أن يهدى عباده، فسؤال من لا اختيار له محال . وكذلك من كونه منعمًا .

فى بيان تضمنها للرد على منكرى تعلق علمه تعالى بالجزئيات

وذلك من وجوه :

أحدها : كمال حمده، وكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئًا من العالم وأحواله وتفاصيله، ولا عدد الأفلاك، ولا عدد النجوم، ولا من يطيعه ممن يعصيه، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه؟

الثانى : أن هذا مستحيل أن يكون إلهًا، وأن يكون ربًا، فلا بد للإله المعبود، والرب المدبر، من أن يعلم عابده، ويعلم حاله .

الثالث : من إثبات رحمته . فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم .

الرابع : إثبات ملكه . فإن ملكًا لا يعرف أحدًا من رعيته ألبتة، ولا شيئًا من أحوال مملكته ألبتة، ليس بملك بوجه من الوجوه .

الخامس : كونه مستعانًا .

السادس : كونه مسئولاً أن يهدى سائله ويجيبه .

السابع : كونه هاديًا .

الثامن : كونه منعمًا .

التاسع : كونه غضبانَ على من خالفه .

العاشر :كونه مُجَازِيًا، يَدين الناس بأعمالهم يوم الدين .

فنفى علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله .

* *

فى بيان تضمنها للرد على منكرى النبوات

وذلك من وجوه :

أحدها : إثبات حمده التام . فإنه يقتضى كمال حكمته ، وأن لا يخلق خلقه عبثًا ، ولا يتركهم سدىً ، لا يؤمرون ولا ينهون . ولذلك نزه الله نفسه عن هذا فى غير موضع من كتابه . وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة ، وأن يكون ما أنزل على بشر من شىء -فإنه ما عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق تعظيمه ، ولا قدره حق قدره ، بل نسبه إلى مالا يليق به ، ويأباه حمده ومجده .

فمن أعطى الحمد حقه - علمًا ومعرفة وبصيرة - استنبط منه «أشهد أن محمدًا رسول الله» كما يستنبط منه «أشهد أن لا إله إلا الله» ، وعلم- قطعًا- أن تعطيل النبوات فى منافاته للحمد ، كتعطيل صفات الكمال ، وكإثبات الشركاء والأنداد .

الثانى : إلهيته ، وكونه إلهًا ، فإن ذلك مستلزم لكونه معبودًا مطاعًا . ولا سبيل إلى معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله .

الثالث : كونه ربًا . فإن الربوبية تقتضى أمر العباد ونهيهم . وجزاء محسنهم بإحسانه ، ومسيئهم بإساءته . هذا حقيقة الربوبية . وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة .

الرابع : كونه رحمانًا رحيمًا . فإن من كمال رحمته : أن يُعَرِّفَ عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه ، ويباعدهم منه . ويثيبهم على طاعته ، ويجزيهم بالحسنى . وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة . فكانت رحمته مقتضية لها .

الخامس : ملكه . فإن الملك يقتضى التصرف بالقول ، كما أن الملك يقتضى التصرف بالفعل . فالملك هو المتصرف بأمره وقوله ، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء . والمالك هو المتصرف فى ملكه بفعله ؛ والله هو الملك ، وله الملك ، فهو المتصرف فى خلقه بالقول والفعل .

وتصرفه بقوله نوعان : تصرف بكلماته الكونية ، وتصرف بكلماته الدينية ، وكمال الملك بهما .

فإرسال الرسل : موجب كمال ملكه وسلطانه ، وهذا هو الملك المعقول فى فطر الناس وعقولهم . فكل ملك لا تكون له رسل يبثهم فى أقطار مملكته فليس بملك .

وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته ، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه . فإنهم رسل الله فى خلقه وأمره .

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهو يوم الجزاء، الذى يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشراً. وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التى بسببها يدان المطيع والعاصى.

السابع: كونه معبوداً، فإنه لا يعبد إلا بما يحبه ويرضاه، ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله، فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً.

الثامن: كونه هاديًا إلى الصراط المستقيم. وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب، فإن الخط المستقيم: هو أقرب خط موصل بين نقطتين. وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل. فتوقفه على الرسل ضرورى، أعظم من توقف الطريق الحسى على سلامة الحواس.

التاسع: كونه منعمًا على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم: فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قابلين الرسالة، مستجيبين لدعوته، وبذلك ذكرهم منته عليهم وإنعامه فى كتابه.

العاشر: انقسام خلقه إلى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. فإن هذا الانقسام ضرورى -بحسب انقسامهم فى معرفة الحق، والعمل به- إلى عالم به عامل بموجبه وهم أهل النعمة، وعالم به معاند له. وهم أهل الغضب، وجاهل به وهم الضالون. هذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل، فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة، فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة. وهذا الانقسام ضرورى بحسب الواقع، فالرسالة ضرورية.

وقد تبين لك بهذه الطريق، والتى قبلها: بيان تضمنها للرد على من أنكر المعاد الجسمانى، وقيامة الأبدان، وعرفت اقتضاءها ضرورة لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهى، وهو الحق الذى خلقت به وله السموات والأرض، والدنيا والآخرة؛ وهو مقتضى الخلق والأمر، ونفيه نفى لهما.

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم

فإن حقيقة الرسالة: تبليغ كلام المرسل. فإذا لم يكن ثم كلام فماذا يبلغ الرسول؟ بل كيف يعقل كونه رسولاً؟ ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلماً، أو يكون القرآن كلامه: فقد أنكر رسالة محمدﷺ، بل ورسالة جميع الرسل، التى حقيقتها: تبليغ كلام الله تبارك وتعالى. ولهذا قال منكرو رسالتهﷺ عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ

سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥]، وإنما عنوا القرآن المسموع الذى بُلِّغُوهُ، وأُنْذِرُوا به.

فمن قال: إن الله لم يتكلم به، فقد ضاهأ قولُه قولَهم. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

فى بيان تضمنها للرد على من قال بقدم العالم

وذلك من وجوه:

أحـــدها: إثبات حمده. فإنه يقتضى ثبوت أفعاله، لا سيما وعامة مواد الحمد فى القرآن- أو كلها- إنما هى على الأفعال، وكذلك هو ههنا. فإنه حمد نفسه على ربوبيته، المتضمنة لأفعاله الاختيارية. ومن المستحيل مقارنة الفعل لفاعله. هذا ممتنع فى كل عقل سليم، وفطرة مستقيمة. فالفعل متأخر عن فاعله بالضرورة.

وأيضًا: فإنه متعلق الإرادة والتأثير والقدرة، ولا يكون متعلقها قديمًا ألبتة.

الثانى: إثبات ربوبيته للعالمين. وتقرير ما ذكرناه. والعالم كل ما سواه فثبت أن كل ما سواه مربوب. والمربوب مخلوق بالضرورة. وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن. فإذًا ربوبيته تعالى لكل ما سواه: تستلزم تقدمه عليه، وحدوث المربوب. ولا يتصور أن يكون العالم قديمًا وهو مربوب أبدًا، فإن القديم مستغن بأزليته عن فاعل له؛ وكل مربوب فهو فقير بالذات، فلا شىء من المربوب بغَنِىٍّ ولا قديم.

الثـــالث: إثبات توحيده. فإنه يقتضى عدم مشاركة شىء من العالم له فى خصائص الربوبية، والقدرة من خصائص الربوبية، فالتوحيد ينفى ثبوته لغيره ضرورة، كما ينفى ثبوت الربوبية والإلهية لغيره.

فى بيان تضمنها للرد على الرافضة

وذلك من قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٥]، إلى آخرها.

ووجه تضمنه إبطال قولهم: أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام «منعم عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه. و«مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه. و«ضالون» وهم الذين جهلوه فأخطأوه.

فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له: كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ- ورضى الله عنهم-: هم أولى بهذه الصفة من

الروافض. فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ -ورضى الله عنهم- جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما. فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام. وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى. فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم. ورأينا الرافضة بالعكس فى كل زمان ومكان. فإنه قط ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام. وكم جروا على الإسلام وأهله من بلية؟ وهل عاثت سيوف المشركين عباد الأصنام -من عسكر هولاكو وذويه من التتار- إلا من تحت رءوسهم؟ وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم، إلا بسببهم ومن جرائهم؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم فى الدين معلومة.

فأى الفريقين أحق بالصراط المستقيم؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال، إن كنتم تعلمون؟.

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله: بأبى بكر وعمر، وأصحاب رسول الله ﷺ - ورضى الله عنهم- وهو كما فسروه. فإنه صراطهم الذى كانوا عليه، وهو عين صراط نبيهم، وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال، وقال أبو العالية - رفيع الرياحى- و الحسن البصرى، وهما من أجل التابعين «الصراط المستقيم: رسول الله ﷺ وصاحباه»، وقال أبو العالية أيضًا فى قوله: «صراط الذين أنعمت عليهم: هم آل رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر»، وهذا حق. فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة. ولا خلاف بينهم، وموالاة بعضهم بعضًا، وثناؤهم عليهما، ومحاربة من حاربا، ومسالمة من سالما: معلومة عند الأمة. خاصها وعامها. وقال زيد بن أسلم: «الذين أنعم الله عليهم: هم رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر».

ولا ريب أن المنعم عليهم: هم أتباعه، والمغضوب عليهم: هم الخارجون عن اتباعه، وأتبع الأمة له وأطوعهم: أصحابه وأهل بيته. وأتبع الصحابة له: السمع والبصر، أبو بكر وعمر. وأشد الأمة مخالفة له: هم الرافضة، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة. ولهذا يبغضون السنة وأهلها، ويعادونها ويعادون أهلها. فهم أعداء سنته ﷺ. وأهل بيته وأتباعه من بنيهم أكمل ميراثًا؟ بل هم ورثته حقًا.

فقد تبين أن الصراط المستقيم: طريق أصحابه وأتباعه، وطريق أهل الغضب والضلال: طريق الرافضة.

وبهذه الطريق -بعينها- يرد على الخوارج. فإن معاداتهم الصحابة معروفة.

الفاتحة واشتمالها على جميع معانى القرآن

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين. وعليهما مدار العبودية والتوحيد. حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب. جمع معانيها فى التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معانى هذه الكتب الثلاثة فى القرآن، وجمع معانى القرآن فى المفصل، وجمع معانى المفصل فى الفاتحة، ومعانى الفاتحة فى «إياك نعبد وإياك نستعين».

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالى وهو «إياك نعبد» ونصفهما لعبده. وهو «إياك نستعين».

وسيأتى سر هذا ومعناه إن شاء الله فى موضعه.

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أى مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًا خاضعًا. ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم. بل هو غاية مطلوبهم -ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم-: منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًا للعالمين وخالقًا لهم. فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذى اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون]، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغى أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و«الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه فى أموره -مع ثقته به- لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه -مع عدم ثقته به- لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو «حقيقة إياك نعبد وإياك

نستعين» وهذان الأصلان -وهما التوكل، والعبادة -قد ذكرا فى القرآن فى عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها.

الثانى: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾[هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)﴾[الممتحنة:٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩)﴾ [المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)﴾[الرعد:٣٠].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين. وهما «إياك نعبد وإياك نستعين».

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» فى الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التى خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها. ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته واسمه «الله» و«إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» كما قدم اسم «الله» على «الرب» فى أول السورة. ولأن «إياك نعبد» قسم الرب. فكان من الشطر الأول، الذى هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به. و«إياك نستعين» قسم العبد. فكان من الشطر الذى له، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس. لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتم. ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة» جزء من العبادة من غير عكس. ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له.

ولأن «العبادة» لا تكون إلا من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذى أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التى تصدق بها عليك. وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى. وهكذا أبدا، حتى يقضى العبد نحبه.

ولأن «إياك نعبد» له. و«إياك نستعين» به. وماله مقدم على ما به، لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصى. والمتعلق بمحبته: طاعتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته. ولهذا لا يستقر فى النار شىء لله أبداً. وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم. وفيه الاهتمام وشدة العناية به. وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصر. فهو فى قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك. والحاكم فى ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدما. وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت. ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضًا أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١]، كيف تجده فى قوة: لا ترهبوا غيرى، ولا تتقوا سواى؟ وكذلك «إياك نعبد وإياك نستعين» هو فى قوة: لا نعبد غيرك. ولا نستعين بسواك. وكل ذى ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

ولا عبرة بجدل من قل فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك. فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن فى ضمير «إياك» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس فى الضمير المتصل. ففى: إياك قصدت، وأحببت: من الدلالة على

معنى: حقيقتك وذاتك قصدى، ما ليس فى قولك: قصدتك وأحببتك. وإياك أعنى، فيه معنى: نفسك وذاتك وحقيقتك أعنى.

ومن ههنا قال من قال من النحاة: إن «إيا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل. ولم يرد عليه برد شاف.

ولولا أنا فى شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام فى هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح. ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله.

وفى إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين. ففى إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس فى حذفه، فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس فى قولك: إياك أحب وأخاف.

تقسيم الناس إلى: «أهل عبادة ومعرضون»

إذا عرفت هذا، فالناس فى هذين الأصلين -وهما العبادة والاستعانة- أربعة أقسام.

القسم الأول: أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذى علمه النبى ﷺ لحبه معاذ بن جبل- رضى الله عنه- فقال: **«يا معاذ، والله إنى لأحبك. فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(١).

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته فى الفاتحة فى« إياك نعبد وإياك نستعين».

ومقابل هؤلاء:

القسم الثانى: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه

---

(١) اخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (جـ١/ ٧٥١) من طريق الصنابحى عن معاذ بن جبل بإسناد صححه الألبانى.

سبحانه يسأله من فى السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه : عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها. ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته كانت زيادة له فى شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته : كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره. وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته. ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حمايةً وحفظًا لا بُخْلاً، وهذا يفعله بعبده الذى يزيد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن -بجهله- أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضى حوائج غيره، فيسىء ظنه بربه. وهذا حشو قلبه ولا يشعر به. والمعصوم من عصمه الله. والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا : حمله على الأقدار. وعتابه الباطن لها. كما قيل :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القَدَرَا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغى أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتى، والأمر ليس إلى؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خيرته وعاقبته مُغَيَّبَةٌ عنك. وإذا لم تجد من سؤاله بدًا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة. وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة. ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها. ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، بل إن وُكِلَ إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ** ﴾ [الفجر]، أى ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته : فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته على. ولكنه ابتلاء منى،

وامتحان له: أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرنى فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه على، ولكنه ابتلاء وامتحان منى له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدى بالغنى لكرامته على، ولم أبتله بالفقر لهوانه على. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره. فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته. إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغنى الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إياك نعبد وإياك نستعين».

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق فى مقدوره إعانة له على الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها. بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه فى الإعانة. فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء. ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر. فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه. فهم موكولون إلى أنفسهم. مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس- رضى الله عنهما-: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثانى: من لهم عبادات وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها فى ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذى لا تأثير له، بل كالعدم الذى لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب. ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم. ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه ملى به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما. فانظر فى تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أى كافيه. و«الحسب» الكافى. فإن كان -مع هذا- من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه. فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بها. سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدل بشىء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

* *

التحقق بـ « إياك نعبد »

إذا عـرف هذا : فلا يكون العبد متحققًا بـ «إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين : أحدهـما: متابعة الرسول ﷺ .

والثانى: الإخلاص للمعبود . فهذا تحقيق «إياك نعبد» .

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلى أربعة أقسام :

أحـدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة فى قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم. بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه. فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه. ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه. وهذا هو العمل الذى لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذى بَلاَ عباده بالموت والحياة لأجله. قال الله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢]، وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض : «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه». قالوا : يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا: لم يقبل. وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا». والخالص: ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف]، وفى قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره. وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه -أحوج ما هو إليه- هباء منثورًا. وفى الصحيح من حديث عائشة عن النبى ﷺ :

«**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)] وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بُعْدًا. فإن الله تعالى إنما يُعْبَدُ بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقًا لشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عز وجل. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)**﴾ [آل عمران: ١٨٨]، يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف -من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة- عن الصراط المستقيم. فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص فى أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التى يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله. كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة. فلا تقبل ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥]، فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له فى العبادة. وهم أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

* *

(١) أخرجه البخارى (جـ١٣- كتاب الاعتصام- باب/ ٢٠) معلقًا بلفظ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ» وأخرجه مسلم به من حديث عائشة (جـ٣- أقضية/ ١٨)، وابن أبى عاصم فى كتاب «السنة» له (جـ١/ ٥٢) كلاهما موصولاً. كما أخرجه البخارى (جـ٥/ ٢٦٩٧)، عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث فى أمرنا ما ليس فيه ردّ» وهو فى مسلم بهذا اللفظ عنها مرفوعًا (جـ٣- أقضية/ ١٧). وعزاه بلفظ المصنف: صاحب موسوعة أطراف الحديث لتمهيد ابن عبد البر، وتفسير القرطبى.

فضل أهل مقام «إياك نعبد»

ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم فى ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثًا لا أصل له «أفضل الأعمال أحمرها» أى أصعبها وأشقها.

وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثانى: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد فى الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطِّرَاحِ الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه. ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة. فرأوا الزهد فى الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات فى الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان. فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهى بادروا إليه ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم:

يُطَالَبُ بالأورادِ مَنْ كان غافلاً ... فكيفَ بقلبٍ كل أوقاته وِرْدُ؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان. منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته. ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي[١]، فما الأفضل في حقي؟

فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك. وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب. ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل «إياك نعبد».

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: **«الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»**[٢] رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟.

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه-: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم»[٣] وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله ﷺ: **«من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»**[٤] واحتجوا بقوله ﷺ: **«إن الله وملائكته يصلون على معلمي**

---

(١) هذا من تلبيس الشيطان عليهم، يغرر بهم بمثل هذه الأباطيل التي لا تروج إلا على الجُهَّال والضُّلَّال

(٢) ضعيف جدًا: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (جـ٨ ص١٩١) عن أنس مرفوعًا. وقال: رواه أبو يعلى والبزار وفيه: يوسف بن عطية الصفار وهو متروك. وأورد بعده عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا: «الخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله» وعزاه للطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وقال: وفيه عمير وهو أبو هارون القرشي متروك.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (جـ٤/ ٢٩٤٢) وفي غير موضع جزءًا من حديث عن سهل بن سعد، ورواه أبو داود والترمذي.

(٤) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ٤- علم/ ١٦) عن أبي هريرة، والترمذي (جـ٥/ ٢٦٧٤)، وأحمد (جـ٢ ص٣٩٧)، وابن ماجه (جـ١/ ٢٠٦) وابن أبي عاصم وغيرهم.

الناس الخير»(١) وبقوله ﷺ : **«إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض، حتى الحيتان فى البحر، والنملة فى جحرها»**(٢) .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله(٣) ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذى نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم فى معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبى ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق فى أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك .

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات فى وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما فى حالة الأمن .

والأفضل فى وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل فى أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل فى أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن .

---

(١) وقفت عليه فى «صحيح الجامع الصغير» (جـ١/ ١٨٣٤) عن أبى أمامة: «إن الله وملائكته- حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت فى البحر- ليصلون على معلم الناس الخير». وعزاه للطبرانى فى «الكبير» والضياء المقدسى وصححه .

(٢) أخرجه أبو داود (جـ٣/ ٣٦٤١) من حديث أبى الدرداء، وكذلك الترمذى (جـ٥/ ٢٦٨٢)، وابن حبان (٨٠- موارد الظمآن) وأعلَّ الترمذى إسناده بعدم الاتصال .

(٣) هو معنى حديث صحيح أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى، وأحمد والبيهقى وغيرهم ولفظ رواية مسلم عن أبى هريرة كما فى كتاب «الوصية»: **«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله لا من ثلاثة: إلامن صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»** .

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى الجامع . وإن بعد كان أفضل .

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال : الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل فى وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف على ذلك .

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة : الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل فى العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء .

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم فى الخير . فهى خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم فى الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل فى كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق . والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد . وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على

غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم. وإن رأيت العباد. رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم. وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق، الذى لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه. فهذا هو المتحقق بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» حقًا، القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولى عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهًا له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان.

ثم للناس فى منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة:

وهم فى ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحكَم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيَام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة فى معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة. وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا فى الخلق: إنه لم يخلق ما خلقه لعلة، ولا لغاية هى المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه. وليس فى المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها، ولا فيها قوىً ولا طبائع. فليست النار سببًا للإحراق، ولا الماء سببًا للإرواء والتبريد، وإخراج النبات، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضى ذلك. وحصول الإحراق والرى ليس بهما، لكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا، لا بسبب ولا بقوة قامت به. وهكذا الأمر عندهم فى أمره الشرعى

سواء. لا فرق فى نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه، ولا المنهى عنه صفة اقتضت قبحه.

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة. وقد ذكرناها فى كتابنا الكبير المسمى «مفتاح دار السعادة، ومطلب أهل العلم والإرادة» وبينا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهًا، وهو كتاب بديع فى معناه. وذكرناه أيضًا فى كتابنا المسمى «سفر الهجرتين، وطريق السعادتين».

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها. وليست الصلاة قرة أعينهم. وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم. ولهذا يسمونها «تكاليف» أى قد كلفوا بها. ولو سمى مدع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا، وقال: إنى إنما أفعله بكلفة: لم يعده أحد محبًا له. ولهذا أنكر هؤلاء -أو كثير منهم- محبة العبد لربه. وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذى يتمتع به. لا أنه يحب ذاته. فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه. وحقيقة العبودية هى كمال المحبة. فأنكروا حقيقة العبودية ولبها. وحقيقة الإلهية: كونه مألوهًا محبوبًا بغاية الحب، المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال والتعظيم. فأنكروا كونه محبوبًا. وذلك إنكار لإلهيته، وشيخ هؤلاء: هو الجعد بن درهم الذى ضحى به خالد بن عبد الله القسرى فى يوم أضحى، وقال: «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً» وإنما كان إنكاره: لكونه تعالى محبوبًا محبًا، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التى هى الخلة عند الجهمية، التى يشترك فيها جميع الخلائق، فكلهم أخلاء لله عندهم.

وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهًا فى كتابنا المسمى «قرة عيون المحبين، وروضة قلوب العارفين» وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك ألبتة، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة، ولا لعينه إلا بالنور الباصر، ولا لأذنه إلا بالسمع، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم.

الصنف الثانى: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل.

ولكن لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه. بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته.

فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله ﷺ -فيما يحكى عن ربه عز وجل- يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ [الزمر: ١٠]

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرًا وثوابًا، لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أى يرجع إليه منه.

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى.

قالوا: ويدل عليه الوزن. فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى. وقد قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)﴾ [الأعراف: ٨، ٩]

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل. وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء ألبتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره فى طاعته، وينعم من أفنى عمره فى معصيته. وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات. والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضى تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح. وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله. ما أجهلهم بالله وأغرهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة. ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا فى الجزاء ألبتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذى فطر الله عليه عباده،

وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب. وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب. مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنِّه، وصدقته على عبده. أنْ أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببهَا إليه، وزينها فى قلبه وكره إليه أضدادها؛ ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هى على قدره، بل غايتها -إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه- أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه. فلو طالبه بحقه لبقى عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها. فلذلك لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبى ﷺ. ولهذا نفى النبى ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: **«لن يُدْخل أحدًا منكم الجنة عَمَلُهُ»** وفى لفظ: **«لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله. وفى لفظ: لن ينجى أحدًا منكم عملهُ- قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»**(1) وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما فى قوله: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿٣٢﴾﴾ [النحل]، ولا تنافى بينهما. إذ توارد النفى والإثبات ليس على معنى واحد. فالمنفى استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًا على القدرية المجوسية، التى زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا. وحق لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة. ويكفى فى جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه فى منته، وأن من تمام الفرح والسرور، والغبْطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا فى منته؟ ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصًا لأنه نظيره. فإذا من عليه استعلى عليه، ورأى الممنونُ عليه نَفْسَه دونه. هذا مع أنه ليس فى كل مخلوق، فلرسول الله ﷺ المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أمن» ولا نقص فى منة الوالد على ولده، ولا عار عليه فى احتمالها، وكذلك السيد على عبده، فكيف برب العالمين الذى إنما يتقلب الخلائق فى

---

(١) حديث متفق عليه: أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، ومسلم (جـ٣- منافقين/ ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٨)، وأخرجه أحمد ابن ماجه.

بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم، وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذى أثبت به دخول الجنة فى قوله: ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (٣٢) ﴾ [النحل: ٣٢].

فهذه باء السببية، ردًا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هى أسباب له. وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها فى الخير والشر. فلم يبق إلا محض الأمر الكونى والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هى مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة. وهم الفرقة الوسط. المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعًا من الحق، وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا. وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٢١٣) ﴾ [البقرة: ٢١٣]، و﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٤) ﴾ [الجمعة: ٤].

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس السبعية والبهيمية. فلو عطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم. والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة. فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها. وهذا يقوله طائفتان.

إحداهما: من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة، القائلين بقدم العالم، وعدم انشقاق الأفلاك، وعدم الفاعل المختار.

الطائفة الثانية: من تفلسفت من صوفية الإسلام، وتقرب إلى الفلاسفة؛ فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها، ومفارقتها العالم الحسى، ونزول الواردات والمعارف عليها.

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنى. فإذا حصل لها بقى مخيرًا فى

حفظه أوردة، أو الاشتغال بالوارد عنها. ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف. وعدم الإخلال بها. وهم صنفان أيضًا.

أحدهما: من يوجبونه حفظًا للقانون، وضبطًا للنفوس.

والآخرون: الذين يوجبونه حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرج النفس -بمفارقتها له- إلى حالتها الأولى من البهيمية.

فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك. وغاية معرفتهم بحكم العبادة وما شرعت لأجله. ولا تكاد تجد فى كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة، على سبيل الجمع، أو على سبيل البدل.

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته فى أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر فى عبادته، ومراده بها.

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشبه الباطلة، والقواعد الفاسدة. ما عندهم وراء ذلك شيء. قد فرحوا بما عندهم من المحال، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم، لما ارتضوا بدونه، ولكن عقولهم قصرت عنه، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا فى طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه. وهذه بلية الطوائف والمعافى من عافاه الله.

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يَطَّلِعُ عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغى إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هى الغاية المقصودة بالخلق، والتى لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه من خلق السموات

والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً. ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سدًى مهملاً. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أى لغير شىء ولا حكمة، ولا لعبادتى ومجازاتى لكم، وقد صرح تعالى بهذا فى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة: هى الغاية التى خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]، أى مهملاً. قال الشافعى: لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهى. والأمر والنهى طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالهما. قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هى غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟.

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحى يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يجب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هى حقيقة عبوديته وسرها. فهى إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهى تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هى حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفى ذلك فى العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شىء أحب إليه من الله ورسوله. ومتى كان عنده شىء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** (٢٤) ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه. أو معاملة أحدهم على معاملة الله: فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه. وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله. فذلك المقدم عنده أحب إليه من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه، أو طاعته أو مرضاته، ظنًا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول، فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك. فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك. وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقًا، أو فى بعض الأمور- ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به- فهذا الذى يخاف عليه. وهو داخل تحت الوعيد. فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه فهو من الظلمة المعتدين. وقد جعل الله لكل شىء قدرًا.

* *

بناء «إياك نعبد»

وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب «إياك نعبد» حقًا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذَّبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ «إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و«إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و«اهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

دعوة الرسل إلى التوحيد والعبادة

وجميع الرسل إنما دعوا إلى «إياك نعبد، وإياك نستعين» فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)** ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)** ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]

مقام العبودية

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وهذا يبين أن الوقف التام فى قوله فى سورة الأنبياء: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١٩]، ههنا. ثم يبتدئ ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، فهما جملتان تامتان مستقلتان، أى إن له من فى السموات ومن فى الأرض عبيداً وملكًا. ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، يعنى أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته يعنى لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون -يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا- بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبنى آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثانى: وصف لعبيد إلهيته. وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى آخر السورة. وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)﴾ [الإنسان: ٦]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص ١٧]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)﴾ [ص: ٣٠]، وقال عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الزخرف: ٥٩]، فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى. ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية فى أشرف مقاماته. فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، فذكره بالعبودية فى مقام إنزال الكتاب عليه، وفى مقام التحدى بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾ [الجن: ١٩]، فذكره بالعبودية فى مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١]، فذكره بالعبودية فى مقام الإسراء، وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا

تُطْرونى(١) **كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد. فقولوا عبد الله ورسوله**»(٢) وفى الحديث: «**أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»(٣) وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت فى التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدى ورسولى، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر»(٤).

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالى: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: ﴿**يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩)**﴾ [الزخرف]، وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به. فقال: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)**﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)**﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وجعل النبى ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان. فقال فى حديث جبريل -وقد سأله عن الإحسان-: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٤).

فى لزوم «إياك نعبد» لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)**﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال أهل النار: ﴿**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)**﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧]، واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفى الصحيح -فى قصة موت عثمان بن مظعون- رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**»(٥) أى: الموت وما فيه. فلا

---

(١) لا تُطرونى: أطراه: أحسن الثناء عليه أو بالغ فيه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٤/ ٣٤٤٥)، والدارمى (جـ٢/ ٢٧٨٤)، وأحمد (جـ١ ص٢٣، ٣٤، ٤٧، ٥٥) من حديث عمر- رضى الله عنه.

(٣) أخرجه أبو الشيخ فى «أخلاق النبى وآدابه» برقم (٦٠٧) بإسناد ضعيف لانقطاعه، وله شواهد قواه بها الألبانى فى «صحيحته» (٥٤٤).

(٤) حديث صحيح: متفق عليه أخرجه البخارى فى «صحيحه» فى تفسير سورة لقمان وفى كتاب «الإيمان» من «صحيحه» باب: (٣٧)، وأخرجه مسلم (جـ١- إيمان/ ٥٧) وأخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد.

(٥) قاله النبىﷺ لما قالت امرأة من الأنصار لما توفى عثمان بن مظعون وكفن فى أثوابه: رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله». انظر صحيح البخارى (جـ٣/ ١٢٤٣).

ينفك العبد من العبودية مادام فى دار التكليف، بل عليه فى البرزخ عبودية أخرى لما يسأله «الملكان من كان يعبد؟ وما يقول فى رسول الله ﷺ؟»ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله[(١)]. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ -بل على جميع الرسل- أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولى العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولى العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

فى انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)**﴾ [مريم: ٨٨- ٩٣][(٢)]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ**﴾ [الفرقان: ١٧]، فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسميةً مقيدة بالإشارة؛ وأما المطلقة: فلم تجئ إلا لأهل النوع الثانى، كما سيأتى بيانه. إن شاء الله.

---

(١) يقول بعض ضلال الصوفية من أصحاب مذهب وحدة الوجود: أن وجود الرب هو وجود العبد، ووجود العبد هو وجود الرب وليس ثمَّ غير ولا سوى فى نفس الأمر. فالوجود عندهم وجود واحد ولا فرق بين خالق ومخلوق أو رب وعبد، وهم يرون أن هذه المعرفة هى اليقين ومن بلغها فقد بلغ مرتبة اليقين التى تسقط عن صاحبها التكاليف الشرعية والواجبات التعبدية يتأولون قول الله عز وجل: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ تأولاً باطلاً لا يصدر إلا عن مفترٍ زائغ لا دين له.

(٢) إدًا: الإدُّ الأمر الداهيُ المنكر. يقال: أدَّ فلانًا أدًا: اشتد عليه ودهاه.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾ [غافر: ٤٨]، فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثانى: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠]، فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤١].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

ولا يجىء فى القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتى إلا على أحد خمسة أوجه: إما مُنكَّرًا. كقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)﴾ [مريم: ٩٣].

والثانى: مُعَرَّفًا باللام، كقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾ [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيداً بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ﴾ [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا فى عموم عباده. فيندرجوا مع أهل طاعته فى الذكر. كقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾ [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم. كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. يقال: «طريق معبد» إذا كان مذللاً بوطء الأقدام، و«فلان عَبَّدَهُ الحب» إذا ذلله، لكن

أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه. وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغمًا.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و«السجود» كذلك. قال تعالى فى القنوت الخاص: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال فى حق مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]، وهو كثير فى القرآن.

وقال فى القنوت العام: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦]، أى خاضعون أذلاء.

وقال فى السجود الخاص: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨]، وهو كثير فى القرآن.

وقال فى السجود العام: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فخص بالسجود هنا كثيراً من الناس وعمهم بالسجود فى سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [النحل: ٤٩]، وهو سجود الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته. مقهور تحت سلطانه تعالى.

فى مراتب «إياك نعبد» علماً وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداهما: دينه الأمرى الشرعى، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائى، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل فى هذا العلمِ العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما رتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات. وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم فى معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات فى حقهم طاعات وقربات بالنية[1] فليس فى حقهم مباح متساوى الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات. ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

* *

---

(١) يقصد رحمه الله من «النية» عقد القلب وتوجه عزمه فى حسن تلقى هذه النعم والآلاء بأنها من ربهم العليم الحكيم، الذى ما أعطى عباده هذ النعم إلا ليربيهم بها، وينمى فيهم ملكات الخير، ويزيدهم بها من عناصر الإنسانية الكريمة يرقون بها على معارج الخير والإحسان والرشد والحكمة، فيكونون من الأبرار، فهم فى كل شئونهم وأحوالهم عابدون ذاكرون لربهم الرحمن، بكل أنواع الذل والخضوع والمحبة والإسلام، فهم فى حقلهم عابدون، وفى متاجرهم عابدون وفى مضاجعهم مع أزواجهم عابدون، وهكذا لا يرون فى شىء مما أتاهم الله ما يشغلهم عن ربهم وينسيهم أسماءه، وما يرون فى شىء إلا أنه عنصر جديد من عناصر التربية والإحسان، فيزدادون لمسديها إليهم سبحانه شكراً وحبًا وخضوعًا وذلاً وإسلامًا وطاعة.

وليس المراد من «النية» المعنى الاصطلاحى فى كتب الفقه، الذى يريدون منه أن يقصد العبادة الاصطلاحية الصورية ويعبرون عنها بقولهم: نويت كذا لله- ويقصدون من ذلك: أن نية الموافقة فى الأكل واللبس ونحو ذلك من المباحات للرسول ﷺ: تجعل المباح عبادة اصطلاحية ومشروعة لها حكم بقية ما شرع الله لرسوله فى العبادات. فإن هذا هو الباب الذى دخل منه الشيطان بالبدع المحدثة، وحَسَّنَها إلى قلوب أكثر الناس وأعمالهم فَطَمَّ بها الوادى، وعمت بها البلوى حتى جرهم إلى الشرك والوثنية، والذى ينبغى أن يعرفه المؤمن ويَدين به من صميم قلبه: أن الأعمال والأحوال البشرية للرسول ﷺ هى منة كغيرها من غيره من بقية البشر. لأَن الله يقول له: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ فلاينبغى أبدًا أن تخلط بالرسالة ولله أعمالها وأحوالها فإنها من عند الله وقد جعلها لنا دينًا وجعل فيها الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ وهو مقام ينبغى التأمل فيه حق التأمل فإنه دقيق غاب فهمه عن كثير فأخطأهم التوفيق. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل. ا. هـ.

هامش الشيخ الفقى؛ وقد أجاد جزاه الله خيراً.

قواعد العبودية

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة. مَن كَمَّلهَا كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التى للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهى لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية فى العبادة. وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدق. والفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص: توحيد مطلوبه. والصدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسمًا. والصدق: أن لا يكون الطلب منقسمًا. فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح فى العبودية. ومدار الدين عليه. وهو بذل الجهد فى إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضى له. وأصل هذا واجب. وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (جـ٢٢/ ٨٠٧) من حديث أبى هند الدارى وإسناده ضعيف، قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (جـ٧ ص٢٠٧): «فيه سعيد بن زياد وهو متروك». وانظر جامع الأحاديث القدسية (٨٢٥).

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر فى تسعين موضعًا من القرآن، أو بضعًا وتسعين، وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه كالرضا. فإن فى وجوبه قولين للفقهاء والصوفية. والقولان لأصحاب أحمد. فمن أوجبه قال: السخط حرام. ولا خلاص عنه إلا بالرضا. وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

واحتجوا بأثر: «**من لم يصبر على بلائى، ولم يرض بقضائى، فليتخذ ربًّا سواى**»[(١)].

ومن قال هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به فى القرآن ولا فى السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به فى مواضع كثيرة من كتابه. وكذلك التوكل. قال: ﴿ **إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس: ٨٤]، وأمر بالإنابة. فقال: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ [الزمر: ٥٤]، وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [البينة: ٥]، وكذلك الخوف كقوله: ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿ **فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿ **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة: ٤٠]، وكذلك الصدق. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وكذلك المحبة. وهى أفرض الواجبات. إذ هى قلب العبادة المأمور بها، ومخها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء فى القرآن مدح أهله، والثناء عليهم. لا الأمر به.

قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلى. لا يحتج به.

قالوا: وفى الحديث المعروف عن النبى ﷺ: «**إن استطعت أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع، فإن فى الصبر على ما تكره النفس خيرًا كثيرًا**»[(١)] وهو فى بعض السنن.

قالوا: وأما قولكم: «لا خلاص عن السخط إلا به» فليس بلازم، فإن مراتب الناس فى المقدور ثلاثة: الرضا. وهو أعلاها، والسخط. وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به. وهو أوسطها. فالأولى للمقربين السابقين. والثالثة للمقتصدين. والثانية للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط، وهو غير راض به، فالرضا أمر آخر.

---

(١) لم أقف عليه فى الكتب الستة ولا فى «المسند»، ولكن عزاه صاحب موسوعة الأطراف لجامع المسانيد ولإتحاف السادة المتقين.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم، وظن أنهما متباينان. وليس كما ظنه. فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم فى شهر رمضان فى شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها. فالتألم كما لا ينافى الصبر لا ينافى الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو فى الرضا بقضائه الكونى، وأما الرضا به ربًا وإلهًا، والرضا بأمره الدينى: فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلمًا إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً.

ومن هذا أيضًا اختلافهم فى الخشوع فى الصلاة. وفيه قولان للفقهاء، وهما فى مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم فى وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس فى صلاته. فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالى فى إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

واحتجوا بأن النبى ﷺ أمر من سها فى صلاته بسجدتى السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله: «**إن الشيطان يأتى أحدكم فى صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا** -لما لم يكن يذكر- **حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى**»(١) ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شىء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه. كما قال النبى ﷺ: «**إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، ثلثها، ربعها-حتى بلغ عشرها**»(٢) وقال ابن عباس- رضى الله عنهما-: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنّا لا نأمره بالإعادة ولا ينبغى أن يعلق لفظ الصحة عليها. فيقال: «صلاة صحيحة» مع أنه لا يثاب عليها فاعلها.

والقصد: أن هذه الأعمال -واجبها ومستحبها- هى عبودية القلب. فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء -وهو القلب- قائمًا بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذى، وأبو داود وابن ماجه والدارقطنى من حديث أبى هريرة.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (جـ٤ ص٣٢١) من حديث عمار بن ياسر، وأخرجه البيهقى فى «سننه الكبرى» (جـ٢ ص٢٨١) من عدة طرق عن سعيد المقبرى به من حديث عمار، وأخرجه من حديث أبى هريرة أيضًا.

وأما المحرمات التى عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهى نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنى زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التى هى أشد تحريمًا من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح. فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر فى حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة فى الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى. فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره فى تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته فى أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته فى أحكام الشرع. ولهذا قال النبى ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول فى النار**». قالوا: هذا القاتل، يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1] فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه، فى الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة فى الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته

(١) حديث فى الصحيحين عن الأحنف بن قيس عن أبى بكرة أخرجه البخارى (جـ١/ ٣١)، ومسلم (جـ٤- فتن/ ١٤-١٦).

من القرآن. وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتَلفظه بالأذكار الواجبة فى الصلاة التى أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح فى الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفى ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة فى العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول. والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم. وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل فى حقه كلام مباح، متساوى الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره. أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس فى حقه شىء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور. وهو: **«كل كلام ابن آدم عليه، لا له. إلا ما كان من ذكر الله وما والاه»**(١).

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله. ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما فى حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهى. وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح. وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: **«اتق الله. فإنما نحن بك. فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»**(٢)

---

(١) عن أم حبيبة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله» أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٤١٢) وقال: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٤٠٧)، وأحمد (جـ٣ - ص٩٦) من حديث أبى سعيد الخدرى، وابن خزيمة والبيهقى وهو حديث حسن بمجموع طرقه.

وأكثر ما يكب الناس على مناخرهم فى النار حصائد ألسنتهم. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أولا. فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها فى المباح المستوى الطرفين، لما له فى ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه فى الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة. فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده. فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوى الطرفين، كانت حركة اللسان التى هى الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود فى الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك. فقد يكون الشىء مباحًا، بل واجبًا، ووسيلته مكروهة -كالوفاء بالطاعة المنذورة- هو واجب، مع أن وسيلته -وهو النذر- مكروه منهى عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة، وهذا كثير جدًا؛ فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا. إذ الحواس خمسة. وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة فى الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، فى أصح قولى العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون فى استماعه مصلحة راجحة: من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التى تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها. ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات. فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المُحْرِم: لا يجوز له تعمد شم الطيب. وإذا حملت الريح رائحته وألقتها فى مشامه لم يجب عليه سَد أنفه.

ونظير هذا: نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه. وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر فى المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام فى الأعيان التى يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التى يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، ولغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذى المحرم.

والمستحب: النظر فى كتب العلم والدين التى يزداد بها الرجل إيمانًا وعلما. والنظر فى المصحف، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر فى آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته (١).

والمكروه: فضول النظر الذى لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضولاً. وكم

---

(١) علق عليه الأستاذ حامد الفقى فقال: النظر والتأمل فى آيات الله الكونية أوجب الواجبات، فإنه قد ورد الأمر المشدد به فى القرآن كثيرًا جدًا وجاء التوعد الشديد لمن عمى وغفل عن آيات الله الكونية، فإن العمى عنها مؤد ولابد إلى التكذيب بآيات الله فى الأنفس والآفاق، ثم يثمر ذلك اتخاذ الآلهة من الموتى وعبادتهم من دون الله، والأرباب من المشايخ وغيرهم يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله. ومن المحال أن يكون إيمان بالله وكتابه ورسوله إلا ثمرة التفكر فى آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق، أما النظر إلى المصحف ووجوه العلماء فلا أدرى من أين جاء استحبابه؟ اللهم إلا إذا كان على أنه من سنن الله وآياته فيكون للاعتبار».

قاد فضولها إلى فضول عَزَّ التخلص منها، وأعيى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذى لا مضرة فيه فى العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهى قسمان.

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر فى العورة التى وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شىء، وذهبت هدراً، بنص رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته(١). وإن ضعفه بعض الفقهاء، لكونه لم يَبْلُغهُ النصُّ، أو تأوله.

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور -أو مأذون له- فى الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصيًا قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد و طاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به. فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة. وهو الطعام الذى تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين فى الولائم والدعوات ونحوها. وفى السنن: أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن طعام المتبارين**»(٢) وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

---

(١) هو الحديث الذى رواه البخارى فى «صحيحه» (١٢ / ٦٩٠٢) بلفظ: «لو أن امرءًا اطَّلَعَ عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح» وعند مسلم بنحوه، إلا أنه قال: «ما كان عليك من جناح»، والحديث عند النسائى وأحمد والترمذى والدارمى وغيرهم بلفظ يختلف.

(٢) أخرجه أبو داود (جـ٣/ ٣٧٥٤) بإسناد رجاله ثقات عن ابن عباس: «أن النبى ﷺ نهى عن طعام المتبارين أن يؤكل» وقال أبو داود: أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابن عباس يعنى أكثرهم يرويه مرسلاً.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذى تعلم به هذه العين هل هى خبيثة أو طيبة؟ وهل هى سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، ومالا يملك؟ ومن هذا شم المقوم، ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم، و(شم) العبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب فى الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوى الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ: «من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه طيب الريح، خفيف المحمل»[(١)].

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمَة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: مالا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس مالا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة فى الإحرام للذة. وكذلك فى الاعتكاف، وفى الصيام، إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت -لغير غاسله- لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحى تكريمًا

---

(١) أخرجه مسلم (جـ٤- ألفاظ/ ٢٠)، والنسائى (جـ٨- ص١٨٩)، وأبو داود (جـ٤/ ٤١٧٢)، وأحمد (جـ٢ ص٣٢٠) من حديث أبى هريرة.

له . ولهذا يستحب ستره عن العيون، وتغسيله فى قميصه فى أحد القولين، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هى عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مرتبة على البطش باليد، والمشى بالرجل. وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفى وجوبه لقضاء دينه خلاف. والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة. وفى وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى فى الدليل: وجوبه لدخوله فى الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك. والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمى الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التى حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه، ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة، كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم، ولاسيما إن كسبت عليه مالاً ﴿ **فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكذلك كتابة المفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذى ليس بحرام، وكتابة مالا فائدة فى كتابته، ولا منفعة فيه فى الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة فى الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق(١)، أو يفرغ من دلوه فى دلو المستقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك. ومنه: لمس الركن بيده فى الطواف، وفى تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

---

(١) فى الصحيحين عن أبى ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد فى سبيله. قلت: أى الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا. قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعًا أو تصنع لأخرق. . .» واللفظ لمسلم.

وأما المشى الواجب: فالمشى إلى الجمعات والجماعات، فى أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة فى غير هذا الموضع. والمشى حول البيت للطواف الواجب، والمشى بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشى إلى حكم الله ورسوله إذا دعى إليه، والمشى إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشى إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشى إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشى إلى معصية الله، وهو من رَجِلَ الشيطان. قال تعالى: ﴿**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**﴾ [الإسراء: ٦٤]، قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. فكل راكب وماش فى معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: فى الركوب فى الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: فى الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين. وفى الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء. ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب فى معصية الله عز وجل.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة.

منازل «إياك نعبد»

فصل فى منازل «إياك نعبد» التى ينتقل فيها القلب منزلة فى حال سيره إلى الله.

وقد أكثر الناس فى صفة المنازل وعددها، فمنهم من جعلها ألفًا، ومنهم من جعلها مائة، ومنهم من زاد ونقص، فكل وصفها بحسب سيره وسلوكه. .

وسأذكر فيها أمرًا مختصرًا جامعًا نافعًا. إن شاء الله تعالى.

* *

فأول منازل العبودية «اليقظة»

وهى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين. ولله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها وخطرها وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو فى سكرات الغفلة فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التى سُبِىَ منها.

فحى على جنات عدن، فإنها منازلك الأولى، وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو، فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم؟

فأخذ فى أهبة السفر، فانتقل إلى منزلة «العزم» وهو العقد الجازم على المسير، ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كل معين وموصل. وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه. وبحسب قوة عزمه يكون استعداده.

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة «الفكرة» وهى تحديق القلب نحو المطلوب الذى قد استعد له مجملاً، ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه.

فإذا صحت فكرته أوجبت له «البصيرة» فهى نور فى القلب يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله فى هذه لأوليائه، وفى هذه لأعدائه. فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله، وقد نصب كرسيه لفصل القضاء. وقد أشرقت الأرض بنوره، ووضع الكتاب، وجىء بالنبيين والشهداء وقد نصب الميزان، وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم، وتعلق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كثب، وكثر العطاش وقل الوارد، ونصب الجسر للعبور، ولُزَّ الناس إليه، وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنار يحطم بعضها بعضًا تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

فينفتح فى قلبه عين يرى بها ذلك. ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها.

فـ«البصيرة» نور يقذفه الله فى القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل. كأنه يشاهده رأى عين. فيتحقق -مع ذلك- انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم. وهذا معنى قول بعض العارفين «البصيرة: تحقق الانتفاع بالشىء والتضرر به» وقال بعضهم: «البصيرة: ما خلصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان».

و«البصيرة» على ثلاث درجات. من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة فى الأسماء والصفات، وبصيرة فى الأمر والنهى، وبصيرة فى الوعد والوعيد.

فالبصيرة فى الأسماء والصفات: أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك فى وجود الله. فكلاهما سواء فى البلاء عند أهل البصائر.

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويًا على عرشه، متكلمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم علويه وسفليه، وأشخاصه وذواته، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره فى أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزهًا عن العيوب والنقائص والمثال. هو كما وصف نفسه فى كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حى لا يموت، قيوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء. سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. تمت كلماته صدقًا وعدلاً، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلاً. وتعالت ذاته أن تشبه شيئًا من الذوات أصلاً، ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً، وحكمة ورحمة وإحسانًا وفضلاً، له الخلق والأمر، وله النعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد، أول ليس قبله شىء، وآخر ليس بعده شىء، ظاهر ليس فوقه شىء، باطن ليس دونه شىء. أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، كل شىء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا ترك الإنسان سدىً عاطلاً. بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته. تعرف إلى عباده بأنواع التعرفات. وصرَّفَ لهم الآيات، ونَوَّعَ لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومد بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتم عليهم نعمه السابغة، وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذى كتبه: أن رحمته تغلب غضبه.

وتفاوت الناس فى هذه البصيرة بحسب تفاوتهم فى معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذى ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم، وإذا تأملت حال العامة -الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم- رأيتهم أتم بصيرة منهم، وأقوى إيمانًا، وأعظم تسليمًا للوحى، وانقيادًا للحق.

المرتبة الثانية: من البصيرة

البصيرة فى الأمر والنهى. وهى تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوى. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به. ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد فى تلقى الأحكام من مشكاة النصوص.

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء من غيرهم.

المرتبة الثالثة: البصيرة فى الوعد والوعيد

وهى أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت فى الخير والشر، عاجلاً وآجلاً، فى دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته، وعدله وحكمته. فإن الشك فى ذلك شك فى إلهيته وربوبيته. بل شك فى وجوده. فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملاً، وتركها سدى؛ تعالى الله عن هذا الحسبان علوًا كبيرًا.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية. ولهذا كان الصحيح: أن المعاد معلوم بالعقل. وإنما اهتدى إلى تفاصيله بالوحى. ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفرًا به سبحانه. لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته. وكلاهما مستلزم للكفر به. قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد: ٥].

وفى الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: «أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد» فعجب قولهم! كيف ينكرون هذا. وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئا.

والثانى: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث، وقولهم: «أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد» أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان. وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

ولصاحب المنازل فى «البصيرة» طريقة أخرى قال:

«البصيرة ما يخلصك من الحيرة. وهى على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: أن تعلم أن الخبر القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لا يخاف عواقبها، فترى من حقه أن تؤديه يقينًا، وتغضب له غيرةً».

ومعنى كلامه: أن ما أخبر به الرسول ﷺ صادر عن حقيقة صادقة، لا يخاف متبعها فيما بعد مكروهًا. بل يكون آمنًا من عاقبة اتباعها. إذ هى حق. ومتبع الحق لا خوف عليه، ومن حق ذلك الخبر عليك: أن تؤدى ما أمرت به منه من غير شك ولا شكوى، والأحوط بك والذى لا تبرأ ذمتك إلا به تناول الأمر بامتثال صادر عن تصديق محقق، لا يصحبه شك، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حقه، ويهمل جانبه.

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام «البصيرة» لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله: تكون الغيرة عليه أن يضيع، والغضب على من أضاعه. فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه. وذلك عين البصيرة. فكما أن الشك القادح فى كمال الامتثال مُعْمٍ لعين البصيرة، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله- إذا ضيعت، ومحارمه إذا انتهكت- معم لعين البصيرة.

قال: «الدرجة الثانية: أن تشهد فى هداية الحق وإضلاله: إصابة العدل، وفى تلوين أقسامه: رعاية البر، وتعاين فى جذبه: حبل الوصل».

يريد -رحمه الله- بشهود العدل فى هدايته من هداه، وفى إضلاله من أضله: أمرين:

أحدهما: تفرده بالخلق. والهدى والضلال.

والثانى: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل، لا بالاتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة اقتضت هدى من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده. فالله أعلم حيث يجعل رسالاته، أصلاً وميراثًا. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى،

ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان فى هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

ولا يبقى إلا أن يقال: فلم خلق من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مفرط فى الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الأضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم.

قوله: «وفى تلوين أقسامه رعاية البر».

يريد بتلوين الأقسام: اختلافها فى الجنس والقدر والصفة، من أقسام الأموال والقوى، والعلوم والأعمال، والصنائع وغيرها. قسمها على وجه البر والمصلحة، فأعطى كلا منهم ما يصلحه، وما هو الأنفع له، براً وإحساناً.

وقوله: «وتعاين فى جذبه حبل الوصال».

يريد تعاين فى توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك: أنه يريد تقريبك منه. فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصال. وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متمسكا بحبله - الذى هو عهده ووصيته إلى عباده- على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى فى المحبة والشكر، وبذل النصيحة فى العبودية، وهذا كله من تمام البصيرة، فمن لا بصيرة له فهو بمعزل عن هذا.

قال: «الدرجة الثالثة: بصيرة تفجر المعرفة، وتثبت الإشارة، وتنبت الفراسة».

يريد بالبصيرة فى الكشف والعيان: أن تتفجر بها ينابيع المعارف من القلب، ولم يقل: «تفجر العلم» لأن المعرفة أخص من العلم عند القوم، ونسبتها إلى العلم نسبة الروح إلى الجسد، فهى روح العلم ولبه.

وصدق -رحمه الله- فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف،

التى لا تنال بكسب ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً فى كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه(١).

وقوله: «وتثبت الإشارة».

يريد بالإشارة: ما يشير إليه القوم من الأحوال والمنازلات، والأذواق التى ينكرها الأجنبى من السلوك، ويثبتها أهل البصائر. وكثير من هذه الأمور ترد على السالك. فإن كان له بصيرة ثبتت بصيرته ذلك له وحققته عنده. وعرفته تفاصيله. وإن لم يكن له بصيرة، بل كان جاهلاً، لم يعرف تفصيل ما يرد عليه. ولم يهتد لتثبيته.

قوله: «وتنبت الفراسة».

يعنى أن البصيرة تنبت فى أرض القلب الفراسة الصادقة. وهى نور يقذفه الله فى القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]، قال مجاهد: للمتفرسين. وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «**اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عز وجل**»(٢) ثم قرأ: (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين).

و«التوسم» تفعل من السيما. وهى العلامة. فسمى المتفرس متوسمًا. لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب. فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء. لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهى، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعَلَّمه إياه حين علمه أسماء كل شىء. وبنوه هم نسخته وخلفاؤه. فكل قلب فهو قابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة. وبعث الله رسله مذكرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحى والإيمان. فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد. فيصير نورًا على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم، بزيادة مادته ودوامها. ولا يزال فى تزايد حتى يُرَى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال؛ ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه فى الغلاف والأكنة. فأظلم، وعمى عن البصيرة؛ فحجبت عنه حقائق الإيمان؛ فيرى الحق باطلاً، والباطل حقًا، والرشد غيًا، والغى رشدًا. قال تعالى:

---

(١) وهل يؤتى العبد هذا الفهم على جهل بغير مجاهدة فى التعليم والتفقه فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(٢) أخرجه الترمذى (جـ٥/ ٣١٢٧) من حديث أبى سعيد الخدرى وأشار إلى ضعفه بقوله: حديث غريب.

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾[المطففين: ١٤] ، والرين والران هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة. وهى نوعان:

فراسة علوية شريفة، مختصة بأهل الإيمان، وفراسة سفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر. وهى فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل. فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور، والإخبار ببعض المغيبات[1] السفلية التى لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالاً للنفس، ولا زكاة ولا إيمانًا ولا معرفة. وهؤلاء لا تتعدى فراستهم هذه السفليات. لأنهم محجوبون عن الحق تعالى. فلا تصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه، وطريق هؤلاء وهؤلاء.

وأما فراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره: فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوة الخلق إليه على بصيرة كانت فراستهم متصلة بالله، متعلقة بنور الوحى مع نور الإيمان. فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال، وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب، وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله، فحملت كل إنسان على قدر استعداده، علمًا وإرادة وعملاً.

ففراسة هؤلاء دائمًا حائمة حول كشف طريق الرسول وتعرفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد فى معاشه ومعاده.

منزلة القصد

فإذا انتبه وأبصر أخذ فى «القصد» وصدق الإرادة. وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله. وعلم وتيقن أنه لابد له منه. فأخذ فى أهبة السفر، وتعبئة الزاد ليوم المعاد. والتجرد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التى تمنعه من الخروج.

وقد قسم صاحب المنازل «القصد» إلى ثلاث درجات فقال:

الدرجة الأولى: «قصد يبعث على الارتياض، ويخلص من التردد، ويدعو إلى مجانبة الأغراض».

---

(١) لا يعلم الغيب إلا الله تعالى. وحاصل هذا التفرس لا يعدو جانب الظن الراجح الذى يعتمد على معرفة القرائن والملابسات.

فذكر له ثلاث فوائد: أنه يبعث على السلوك بلا توقف، ولا تردد، ولا علة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو طلب محمدة، أو جاه ومنزلة عند الخلق.

قال: «الدرجة الثانية: قصد لا يلقى سببًا إلا قطعه، ولا حائلاً إلا منعه ولا تحاملاً إلا سهله».

يعنى أنه لا يلقى سببًا يعوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلا دونه إلا منعه ولا صعوبة إلا سهلها.

قال: «الدرجة الثالثة: قصد الاستسلام لتهذيب العلم، وقصد إجابة داعى الحكم، وقصد اقتحام بحر الفناء».

يريد أنه ينقاد إلى العلم ليتهذب به ويصلح. ويقصد إجابة داعى الحكم الدينى الأمرى كلما دعاه. فإن للحكم فى كل مسألة من مسائل العلم مناديًا ينادى للإيمان بها علمًا وعملاً. فيقصد إجابة داعيها، ولكن مراده بداعى الحكم: الأسرار والحكم الداعية إلى شرع الحكم. فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال. فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال، والمعرفة والحمد، فالأمر يدعو إلى الامتثال، وما تضمنه من الحكم؛ والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة.

وقوله: «وقصد اقتحام بحر الفناء».

هذا هو الغاية المطلوبة عند القوم. وهو عند بعضهم لازم من لوازم الطريق. وليس بغاية. وعند آخرين عارض من عوارض الطريق. وليس بغاية. ولا هو لازم لكل سالك. وأهل القوة والعزم لا يعرض لهم، وحال البقاء أكمل منه، ولهذا كان البقاء حال نبينا ﷺ ليلة الإسراء، وقد رأى ما رأى. وحال موسى الفناء، ولهذا خَرَّ صَعِقًا عند تجلى الله للجبل، وامرأة العزيز كانت أكمل حبًا ليوسف من النسوة، ولم يَعْرِضَ لها ما عرض لهن عند رؤية يوسف لفنائهن وبقائها، وسيأتى إن شاء الله تحقيق الكلام فيه.

فإذا استحكم قصده صار «عزما» جازمًا، مستلزمًا للشروع فى السفر، مقرونًا بالتوكل على الله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و«العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل. ولذلك قيل: إنه أول الشروع فى الحركة لطلب المقصود، وأن التحقيق: أن الشروع فى الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظن أنه هو.

وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و«العزم» نوعان: أحدهما: عزم المريد على الدخول فى الطريق. وهو من البدايات. والثانى: عزم فى حال السير معه. وهو أخص من هذا. وهو من المقامات. وسنذكره فى موضعه إن شاء الله.

وفى هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما له مما عليه، ليستصحب ما له ويؤدى ما عليه. وهو «المحاسبة» وهى قبل «التوبة» فى المرتبة. فإنه إذا عرف ما له وما عليه أخذ فى أداء ما عليه، والخروج منه. وهو «التوبة».

وصاحب المنازل قدم التوبة على المحاسبة. ووجه هذا: أنه رأى «التوبة» أول منازل السائر بعد يقظته، ولا تتم التوبة إلا بالمحاسبة. فالمحاسبة تكميل مقام التوبة. فالمراد بالمحاسبة الاستمرار على حفظ التوبة، حتى لا يخرج عنها. وكأنه وفاء بعقد التوبة.

ترتيب مقامات السالك

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام، ويفارقه وينتقل إلى الثانى. كمنازل السير الحسى. هذا محال. ألا ترى أن «اليقظة» معه فى كل مقام لا تفارقه، وكذلك «البصيرة» و«الإرادة» و«العزم» وكذلك «التوبة» فإنها كما أنها من أول المقامات فهى آخرها أيضًا. بل هى فى كل مقام مستصحبة. ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته. فقال تعالى فى غزة تبوك. وهى آخر الغزوات التى قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)**﴾ [التوبة: ١١٧]، فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال فى سورة أجل رسول الله ﷺ التى هى آخر سورة أنزلت: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)**﴾ [النصر: ١-٣].

وفى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها -: أن رسول الله ﷺ ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة، إلا قال فى ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لى، يتأول القرآن**»[١] فالتوبة هى نهاية كل سالك وكل ولى لله. وهى الغاية التى يجرى إليها العارفون بالله وعبوديته. وما ينبغى له. قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ**

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٨/ ٤٩٦٧)، (جـ٢/ ٨١٧)، ومسلم (جـ١ - صلاة ٢١٧/ ، ٢١٩) من حديث عائشة.

اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]، فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

وكذلك «الصبر» فإنه لا ينفك عنه فى مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك: أن «الرضا» مترتب على الصبر لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام «الرضا» أو حاله -على الخلاف بينهم: هل هو مقام أو حال؟- بعد مقام «الصبر» لا يعنى به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعنى أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب فى مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن «القصد» و«العزم» متقدم على سائر المنازل فلا وجه لتأخيره. وعلمت بذلك أن «المحاسبة» متقدمة على «التوبة» بالرتبة أيضًا. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه. وهى حقيقة التوبة. وأن منزلة «التوكل» قبل منزلة «الإنابة» لأنه يتوكل فى حصولها. فالتوكل وسيلة. والإنابة غاية. وأن مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به. كما أنه أول دعوة الرسل كلهم. قال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل -حين بعثه إلى اليمن- «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**» وفى رواية: «**إلى أن يعرفوا الله**»(١) ولأنه لا يصح مقام من المقامات، ولا حال من الأحوال إلا به، فلا وجه لجعله آخر المقامات. وهو مفتاح دعوة الرسل. وأول فرض فرضه الله على العباد. وما عدا هذا من الأقوال فخطأ. كقول من يقول: أول الفروض النظر، أو القصد إلى النظر، أو المعرفة، أو الشك الذى يوجب النظر.

وكل هذه الأقوال خطأ، بل أول الواجبات: مفتاح دعوة المرسلين كلهم، وهو أول ما دعا إليه فاتحهم نوح. فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهو أول ما دعا إليه خاتمهم محمد ﷺ.

ولأرباب السلوك اختلاف كثير فى عدد المقامات وترتيبها، كل يصف منازل سيره، وحال سلوكه. ولهم اختلاف فى بعض منازل السير: هل هى من قسم الأحوال؟ والفرق بينهما: أن المقامات كسبية. والأحوال وهبية. ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات. والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقامًا، وكل من كان أعلى مقامًا كان أعظم حالاً.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٣/ ١٣٩٥)، ومسلم (جـ١- إيمان/ ٢٩، ٣١).

فمما اختلفوا فيه «الرضا» هل هو حال، أو مقام؟ فيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين.

وحكم بينهم بعض الشيوخ، فقال: إن حصل بكسب فهو مقام، وإلا فهو حال.

والصحيح فى هذا: أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبدوها، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد، فإذا نازلته وباشرها فهى أحوال، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات. وهى لوامع ولوائح فى أولها، وأحوال فى أوسطها، ومقامات فى نهاياتها. فالذى كان بارقًا هو بعينه الحال. والذى كان حالاً هو بعينه المقام. وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب، وظهوره له، وثباته فيه.

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب، وينزل إلى ما دونه. ثم قد يعود إليه، وقد لا يعود.

ترتيب المقامات

ومن المقامات: ما يكون جامعًا لمقامين.

ومنها: ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك.

ومنها: ما يندرج فيه جميع المقامات. فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونهما.

و«التوكل» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى. لا يتصور وجوده بدونها.

و«الرجاء» جامع لمقام الخوف والإرادة.

و«الخوف» جامع لمقام الرجاء والإرادة.

و«الإنابة» جامعة لمقام المحبة والخشية. لا يكون العبد منيبًا إلا باجتماعهما.

و«الإخبات» له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع. لا يكمل أحدها بدون الآخر إخباتًا.

و«الزهد» جامع لمقام الرغبة والرهبة، لا يكون زاهدًا من لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهب مما يخاف ضرره.

ومقام «المحبة» جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة. فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة؛ وبها تحققها.

ومقام «الخشية» جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته. فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨]، فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبى ﷺ: **«أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»**(١).

ومقام «الهيبة» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام «الشكر» جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق «الرضا» وهو يتضمن «الصبر» من غير عكس. ويتضمن «التوكل» و«الإنابة» و«الحب» و«الإخبات» و«الخشوع» و«الرجاء» فجميع المقامات مندرجة فيه. لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل فى الشكر، فرجع الإيمان كله شكراً، والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى وقليل من عبادى الشكور.

ومقام «الحياء» جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام «الأنس» جامع لمقام الحب مع القرب، فلو كان المحب بعيداً من محبوبه لم يأنس به. ولو كان قريبًا من رجل ولم يحبه لم يأنس به، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم، فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية، فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل، والتفويض والرضى والتسليم. فهو معنى ملتئم من هذه الأمور. إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب الطمأنينة، وما نقص منها نقص من الطمأنينة.

وكذلك «الرغبة» و«الرهبة» كل منهما ملتئم من «الرجاء» و«الخوف» والرجاء على الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون. فالأبرار

---

(١) أخرجه البخارى (جـ١٠/ ٦١٠١، ٧٣٠١) ومسلم (جـ٤ - فضائل/ ١٢٧) عن عائشة عن رسول الله ﷺ بلفظ: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه، والله إنى لأَعْلَمُهُم بالله وأشدهم له خشية».

فى أذياله، والمقربون فى ذروة سنامه. وهكذا مراتب الإيمان جميعها. وكل من النوعين لا يحصى تفاوتهم، وتفاضل درجاتهم إلا الله.

وتقسيمهم ثلاثة أقسام -عام، وخاص، وخاص خاص- إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق، وعلم القوم الذى شمروا إليه. وسنذكر ما فى ذلك، وأقسام الفناء، محموده ومذمومه، فاضله ومفضوله. فإن إشارة القوم إليه. إن شاء الله. ومدارهم عليه.

على أن الترتيب الذى يشير إليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم، ودعوى من غير مطابقة. فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام، ودخل فيه كله. فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة، ومقاماته وأحواله. وله فى كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات. لا يكون موفيًا لذلك العقد والواجب إلا بها. وكلما وفى واجبًا أشرف على واجب آخر بعده. وكلما قطع منزلة استقبل أخرى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال فى أول بداية سيره. فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك فى نهايته. ويحتاج هذا السالك فى نهايته إلى أمور -من البصيرة، والتوبة، والمحاسبة- أعظم من حاجة صاحب البداية إليها. فليس فى ذلك ترتيب كلى لازم للسلوك.

وقد ذكرنا أن التوبة -التى جعلوها من أول المقامات- هى غاية العارفين، ونهاية أولياء الله المقربين. ولا ريب أن حاجتهم إلى المحاسبة فى نهايتهم، فوق حاجتهم إليها فى بدايتهم.

فالأولى الكلام فى هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلامًا مطلقًا فى كل مقام مقام، ببيان حقيقته وموجبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذكر عامِّه وخاصِّه.

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج، فمن تأمله - كسهل بن عبد الله التسترى، وأبى طالب المكى، والجنيد بن محمد، وأبى عثمان النيسابورى، ويحيى بن معاذ الرازى- وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل أبى سليمان الدارانى، وعون بن عبد الله -الذى يقال له حكيم الأمة- وأضرابهما. فإنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلامًا مفصلاً جامعًا مبينًا مطلقًا من غير ترتيب، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم. فإنهم كانوا أجل من هذا. وهمهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة،

وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة. ولهذا كلامهم قليل فيه البركة. وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.

ولكن لابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم. إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقى السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم. ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه، ولعدوه سلوكًا عاميًا، وللخاصة سلوك آخر، كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم «إن القوم كانوا أسلم. وإن طريقنا أعلم» وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه «إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه، وضبط قواعده وأحكامه، اشتغالاً منهم بغيره، والمتأخرون تفرغوا لذلك، فهم أفقه».

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شىء. فالمتأخرون فى شأن والقوم فى شأن، (وقد جعل الله لكل شىء قدرًا).

فالأولى بنا: أن نذكر منازل «العبودية» الواردة فى القرآن والسنة. ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها. إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله. وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق. فقال تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾ [التوبة: ٩٧] فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية: يستكمل العبد الإيمان. ويكون من أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

ونذكر لها ترتيبًا غير مستحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسى، ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس، فيكون التصديق أتم، ومعرفته أكمل، وضبطه أسهل.

فهذه فائدة ضرب الأمثال، وهى خاصة العقل ولبه. ولهذا أكثر الله تعالى منها فى القرآن، ونفى عقلها عن غير العلماء. فقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** (٤٣)﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* *

منازل العبودية

فاعلم أن العبد قبل وصول الداعى إليه فى نوم الغفلة، قلبه نائم وطرفه يقظان. فصاح به الناصح. وأسمعه داعى النجاح. وأذن به مؤذن الرحمن: حَىَّ على الفلاح.

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم. وقد ذكرنا: أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

وصاحب المنازل يقول: «هى القومة لله المذكورة فى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾[سبأ: ٤٦] ».

قال: «القومة لله هى اليقظة من سنة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهى أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وهى على ثلاثة أشياء: لحظ القلب إلى النعمة، على اليأس من عَدِّها، والوقوف على حدها، والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير فى حقها».

وهذا الذى ذكره: هو موجب اليقظة وأثرها. فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه. أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلما حدق قلبه وطرفه فيها، شاهد عظمتها وكثرتها. فيئس من عدها، والوقوف على حدها، وَفَرَّغَ قلبه لمشاهدة منة الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن، فتيقن حينئذ تقصيره فى واجبها، وهو القيام بشكرها.

فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم. واللهج[(١)] بذكره، وتذكر الله وخضوعه له، وإزراءه[(٢)] على نفسه، حيث عجز عن شكر نعمه. فصار متحققًا بـ «**أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[(٣)] وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. وعلم أن العبد دائمًا سائر إلى الله بين مطالعة المنة، ومشاهدة التقصير.

---

(١) اللهج بذكره: يقال: لَهِجَ بالأمر لَهَجًا أولع به فَثَابَرَ عليه واعتاده.

(٢) (إزراءه على نفسه): مَعَاتبهُ عليها.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٣٢٣)، والترمذى (٣٣٩٣)، وابن ماجه (٣٨٧٢)، وأحمد (جـ٤- ص٢٢٦).

قال: الثاني: «مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها، والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها».

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة. ويعلم أنه على خطر عظيم فيها، وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه. وقد ذم الله تعالى فى كتابه من نسى ما تقدم يداه. فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]، فإذا طالع جنايته شمر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل. وتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص، وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خَبَث الجناية، كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما. ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب. ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ [النحل: ٣٢]، فليس فى الجنة ذَرَّةُ خبث.

وهذا التمحيص يكون فى دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ [فصلت: ٣٠]، عند الموت: ﴿ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحًا -وهى العامة الشاملة الصادقة- ولم يكن الاستغفار كاملاً تامًا -وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه- وهذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من فى يده قَدَحُ السُّكْر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه. ولم تكن الحسنات فى كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب. وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما محص فى البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنَازَةَ عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثانى: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدى إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج،

والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه(١)، والصلاة. وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء. قال الإمام أحمد: لا يختلفون فى ذلك. وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق، وأحمد ومن وافقه: مذهبهم فى ذلك أوسع المذاهب. يقولون: يصل إليه ثواب جميع القُرَب. بَدَهيِّها ومَاليِّها، والجامع للأمرين. واحتجوا بأن النبى ﷺ قال لمن سأله: **«يا رسول الله، هلَ بقى مَن بر أبوى شىء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: نعم. فذكر الحديث»**(٢). وقد قال ﷺ: **«من مات وعليه صيام صام عنه وليه»**(٣).

فإن لم تف هذه بالتمحيص. محص بين يدى ربه فى الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة. وشدة الموقف. وشفاعة الشفعاء. وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكير، رحمة فى حقه ليتخلص ويتمحص، ويتطهر فى النار. فتكون النار طهرة له وتمحيصًا لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصفى ذهبه، وصار خالصًا طيبًا، أخرج من النار، وأدخل الجنة.

قال: «الثالث» يعنى من مراتب اليقظة «الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام، والتنصل من تضييعها، والنظر إلى الظن بها لتدارك فائتها، وتعمير باقيها».

يعنى أنه يعرف ما معه من الزيادة والنقصان. فيتدارك ما فاته فى بقية عمره التى لا ثمن لها، ويبخل بساعاته -بل بأنفاسه- عن ذهابها ضياعًا فى غير ما يقربه إلى الله. فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس، مع تفاوتهم فى قدره، قلة وكثرة. فكل نَفَس يخرج فى غير ما يقرب إلى الله فهو حسرة على العبد فى معاده، ووقفة له فى طريق سيره، أو نكسة إن استمر، أو حجاب إن انقطع به.

* *

---

(١) ليس فى قراءة القرآن عن الموتى دليل صحيح من كتاب أو سنة والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود (جـ٢/ ٥١٤٢)، وابن ماجه (جـ٢/ ٣٦٦٤) عن أبى أسيد مالك بن ربيعة وتمامه: «قال: نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٤/ ١٩٥٢)، ومسلم (جـ٢- صيام/ ١٥٣)، وأبو داود (جـ٢/ ٢٤٠٠) من حديث عائشة.

معرفة النعمة

قال: «فأما معرفة النعمة: فإنها تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل، وشيم بروق المنة، والاعتبار بأهل البلاء».

يعنى أن حقيقة مشاهدة النعمة: يصفو بهذه الثلاثة. فهى النور الذى أوجب اليقظة، فاستنار القلب به لرؤية التنبه. وعلى حسبه -قوة وضعفًا- تصفو له مشاهدة النعمة. فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا فى مأكله وملبسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس. فليس له نصيب من هذا النور ألبتة. فنعمة الله بالإسلام والإيمان، وجذب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعم بذكره، والتلذذ بطاعته: هو أعظم النعم. وهذا إنما يدرك بنور العقل، وهداية التوفيق.

وكذلك شيمه بروق منن الله عليه. وهو النظر إليها، ومطالعتها من خلال سحب الطبع، وظلمات النفس. والنظر إلى أهل البلاء -وهم أهل الغفلة عن الله، والابتداع فى دين الله- فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقًا. فإذا رآهم، وعلم ما هم عليه، عظمت نعمة الله عليه فى قلبه، وصفت له وعرف قدرها * فالضد يظهر حسنه الضد * وبضدها تتميز الأشياء *.

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة: رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب.

قال: «وأما مطالعة الجناية: فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد».

يعنى أن من كملت عظمة الحق تعالى فى قلبه عظمت عنده مخالفته. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتى إلى مولاها الحق فى كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه فى كل لحظة ونفس.

وأيضًا فإذا عرف حقارتها -مع عظم قدر من خالفه- عظمت الجناية عنده. فشمر فى التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره فى التخلص من الجناية التى تلحق به.

ومدار السعادة، وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابًا لا يرجى معه فلاح ألبتة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون

بالآيات، دون من عداهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥)﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق: ٤٥]، وأخبر تعالى أن أهل النجاة فى الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)﴾ [إبراهيم: ١٤].

قال: «وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام: فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: سماع العلم، وإجابة داعى الحرمة، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات».

يعنى أن السالك: على حسب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب. تكون معرفته بالزيادة والنقصان فى حاله وإيمانه. وكذلك تفقد إجابة داعى تعظيم حرمات الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطىء عنها؟ فبحسب إجابة الداعى -سرعة وإبطاء- تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم، المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى، يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان.

والذى يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض. وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه. فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾ [التوبة: ٤٦].

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة. وهى -كما تقدم- تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له.

وصاحب المنازل جعلها بعد «البصيرة» وقال: فى حدها «هى تلمس البصيرة لاستدراك البغية» أى التماس العقل المطلوب بالتفتيش عليه.

قال: «وهى ثلاثة أنواع: فكرة فى عين التوحيد، وفكرة فى لطائف الصنعة، وفكرة فى معانى الأعمال والأحوال».

قلت: الفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتى تتعلق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفى. والتى تتعلق بالطلب والإرادة: هى الفكرة التى تميز بين النافع والضار.

ثم يترتب عليها فكرة أخرى فى الطريق إلى حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلى ما يضر فيتركها.

فهذه ستة أقسام. لا سابع لها، هى مجال أفكار العقلاء.

فالفكرة فى التوحيد: استحضار أدلته، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين. فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنين، والتوكل على اثنين. بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق، والرب الحق. وهو الله الواحد القهار.

التوحيد ومذهب الهروى

وقد خَبَطَ صاحب المنازل فى هذا الموضع، وجاء بما يَرْغَبُ عنه الكُمَّلُ من سادات السالكين والواصلين إلى الله.

فقال: «الفكرة فى عين التوحيد: اقتحام بحر الجحود».

وهذا بناء على أصله الذى أصَّلَهُ، وانتهى إليه كتابه فى أمر الفناء. فإنه لما رأى أن الفكرة فى عين التوحيد تبعد العبد من التوحيد الصحيح عنده، لأن التوحيد الصحيح عنده: لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والتفكر. والفكرة تدل على بقاء رسم، لاستلزامها مفكراً، وفعلاً قائمًا به. والتوحيد التام عنده: لا يكون مع بقاء رسم أصلاً. كانت الفكرة عنده علامة الجحود، واقتحامًا لبحره. وقد صرح بهذا فى أبياته فى آخر الكتاب:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته ... عارية، أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

ومعنى أبياته: ما وحد الله عز وجل أحد حق توحيده الخاص، الذى تفنى فيه الرسوم. ويضمحل فيه كل حادث. ويتلاشى فيه كل مكون. فإنه لا يتصور منه التوحيد إلا ببقاء الرسم، وهو الموحد، وتوحيده القائم به. فإذا وحده شهد فعله الحادث ورسمه الحادث. وذلك جحود لحقيقة التوحيد، الذى تفنى فيه الرسوم، وتتلاشى فيه الأكوان. فلذلك قال:

«إذ كل من وحده جاحد» هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه. وقد فسره أهل الوحدة بصريح كلامهم فى مذهبهم.

قالوا: معنى «كل من وحده جاحد» أى كل من وحده فقد وصف الموحد بصفة تتضمن جحد حقه الذى هو عدم انحصاره تحت الأوصاف. فمن وصفه فقد جحد إطلاقه عن قيود الصفات.

وقوله: «توحيد من ينطق عن نعته» أى توحيد المحدث له الناطق عن نعته، عارية مستردة. فإنه الموحد قبل توحيد هذا الناطق، وبعد فنائه، فتوحيده له عارية أبطلها الواحد الحق بإفنائه كل ما سواه.

والاتحادى يقول: معناه أن الموحد واحد من جميع الوجوه. فأبطل ببساطة ذاته تركيب نطق واصفه، وأبطل بإطلاقه تقييد نعت موحده.

وقوله: «توحيده إياه توحيده» يعنى أن توحيده الحقيقى هو توحيده لنفسه، حيث لا هناك رسم ولا مكون. فما وحد الله حقيقة إلا الله.

والاتحادى يقول: ما ثم غير يوحده، بل هو الموحد لنفسه بنفسه، إذ ليس ثم سوىً فى الحقيقة.

قوله: «ونعت من ينعته لاحد» أى نعت الناعت له ميل وخروج عن التوحيد الحقيقى. والإلحاد أصله الميل. لأنه بنعته له قائم بالرسوم، وبقاء الرسوم ينافى توحيده الحقيقى.

والاتحادى يقول: نعت الناعت له شرك، لأنه أسند إلى المطلق مالا يليق به إسناده من التقييد. وذلك شرك وإلحاد.

فرحمة الله على أبى إسماعيل. فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد. فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم: إنه لمنهم. وما هو منهم وغره سراب الفناء. فظن أنه لجة بحر المعرفة، وغاية العارفين، وبالغ فى تحقيقه وإثباته، فقاده قسراً إلى ما ترى.

تعريف الفناء

و«الفناء» الذى يشير إليه القوم، ويعملون عليه: أن تذهب المحدثات فى شهود العبد، وتغيب فى أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد. ويبقى الحق تعالى كما لم يزل. ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضًا. فلا يبقى له صورة ولا رسم. ثم يغيب شهوده أيضًا. فلا يبقى له شهود. ويصير الحق هو الذى يشاهد نفسه بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات. وحقيقته: أن يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل.

قال صاحب المنازل : «هو اضمحلال ما دون الحق علما ، ثم جحداً، ثم حقًا ، وهو على ثلاث درجات :

«الدرجة الأولى: فناء المعرفة فى المعروف . وهو الفناء علمًا . وفناء العيان فى المعاين . وهو الفناء جحداً . وفناء الطلب فى الوجود . وهو الفناء حقًا .

الدرجة الثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه ، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها ، وفناء شهود العيان لإسقاطه .

الدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء . وهو الفناء حقًا ، شائمًا برق العين ، راكبًا بحر الجمع ، سالكا سبيل البقاء» .

فنذكر ما فى هذا الكلام من حق وباطل . ثم نتبعه ذكر أقسام الفناء . والفرق بين الفناء المحمود ، الذى هو فناء خاصة أولياء الله المقربين . والفناء المذموم الذى هو فناء أهل الإلحاد ، القائلين بوحدة الوجود ، وفناء المتوسطين الناقصين عن درجة الكمال ، بعون الله وحوله وتأييده .

فقوله : «الفناء اضمحلال ما دون الحق جحداً» لا يريد به أنه يعدم من الوجود بالكلية . وإنما يريد اضمحلاله فى العلم . فيعلم أن ما دونه باطل ، وأن وجوده بين عدمين ، وأنه ليس له من ذاته إلا العدم . فعدمه بالذات ، ووجوده بإيجاد الحق له . فيفنى فى علمه ، كما كان فانيًا فى حال عدمه . فإذا فنى فى علمه ارتقى إلى درجة أخرى فوق ذلك . وهى جحد السوى وإنكاره . وهذه أبلغ من الأولى . لأنها غيبته عن السوى . فقد يغيب عنه وهو غير جاحد له . وهذه الثانية جحده وإنكاره .

ومن هاهنا دخل الاتحادى . وقال : المراد جحد السوى بالكلية ، وأنه ما ثَمَّ غَيْرٌ بوجهٍ ما .

وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد ، وإن كانت عبارته موهمة ، بل مفهِّمة ذلك . وإنما أراد بالجحد : فى الشهود ، لا فى الوجود ، أى يجحده أن يكون مشهوداً ، فيجحد وجوده الشهودى العلمى ، لا وجوده العينى الخارجى . فهو أولاً يغيب عن وجوده الشهودى العلمى . ثم ينكر ثانيًا وجوده فى علمه . وهو اضمحلاله جحداً . ثم يرتقى من هذه الدرجة إلى درجة أخرى أبلغ منها . وهى اضمحلاله فى الحقيقة ، وأنه لا وجود له ألبتة . وإنما وجوده قائم بوجود الحق . فلولا وجود الحق لم يكن هو موجوداً . ففى الحقيقة : الموجود إنما هو الحق وحده ، والكائنات من أثر وجوده . هذا معنى قولهم : «إنها لا وجود لها ولا أثر لها . وإنها معدومة وفانية ومضمحلة» .

والاتحادى يقول: إن السالك فى أول سلوكه يرى أنه لا فاعل فى الحقيقة إلا الله. فهذا توحيد العلم. ولا يقدر فى طوره الأول على أكثر من ذلك. ثم ينتقل عن هذا إلى الدرجة الثانية. وهى شهود عود الأفعال إلى الصفات، والصفات إلى الذات. فعاد الأمر كله إلى الذات. فيجحد وجود السوى بالكلية. فهذا هو الاضمحلال جحداً. ثم يرتقى عن هذه الدرجة إلى ركوب البحر الذى تغرق فيه الأفعال والأسماء والصفات. ولا يبقى إلا أمر مطلق لا يتقيد باسم ولا فعل ولا صفة، قد اضمحل فيه كل معنىً وقيد وصفة ورسم. وهذا- عندهم- غاية السفر الأول. فحينئذ يأخذ فى السفر الثانى. وهو البقاء.

قوله: «الدرجة الأولى: فناء المعرفة فى المعروف».

يريد اضمحلال معرفته وتلاشيها فى معروفه. وأن يغيب بمعروفه عن معرفته، كما يغيب بمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمحبوبه عن حبه، وبمخوفه عن خوفه. وهذا لا ريب فى إمكانه ووقوعه. فإن القلب إذا امتلأ بشىء لم يبق فيه متسع لغيره. وأنت ترى الرجل يشاهد محبوبه الذى قد استغرق فى حبه، بحيث تخلل حبه جميع أجزاء قلبه. أو يشاهد المخوف الذى امتلأ قلبه بخوفه. فتراه دهشًا عن شعوره بحبه أو خوفه، لاستيلاء سلطان المحبوب أو المخوف على قلبه، وعدم اتساعه لشهود غيره ألبتة. لكن هذا لنقصه لا لكماله. والكمال وراء ذلك. فلا أحد أعظم محبة لله عز وجل من الخليلين -عليهما الصلاة والسلام- وكانت حالهما أكمل من هذه الحال. وشهود العبودية أكمل وأتم وأبلغ من الغيبة عنها بشهود المعبود. فشهود العبودية والمعبود درجة الكمل. والغيبة بأحدهما عن الآخر للناقصين. فكما أن الغيبة بالعبادة عن المعبود نقص، فكذلك الغيبة بالمعبود عن عبادته نقص. حتى إن من العارفين من لا يعتد بهذه العبادة. ويرى وجودها عدما. ويقول: هى بمنزلة عبودية النائم وزائل العقل. لا يعتد بها. ولم يبعد هذا القائل.

فالحق تعالى مراده من عبده: استحضار عبوديته، لا الغيبة عنها، والعامل على الغيبة عنها عامل على مراده من الله، وعلى حظه والتنعم بالفناء فى شهوده، لا على مراد الله منه، وبينهما ما بينهما.

فكيف يكون قائمًا بحقيقة العبودية من يقول: «إياك نعبد» ولا شعور له بعبوديته ألبتة؟ بل حقيقة «إياك نعبد» علمًا ومعرفة وقصداً وإرادة وعملاً. وهذا مستحيل فى وادى الفناء. ومن له ذوق يعرف هذا وهذا.

قوله: «وفناء العيان فى المعاين. وهو الفناء جحدًا».

لما كان ما قبل هذا فناء العلم فى المعلوم، والمعرفة فى المعروف، والعيان فوق العلم

والمعرفة. إذ نسبته إلى العلم كنسبة المرئى إليه: كان الفناء فى هذه المرتبة فناء عيانه فى معاينه. ومحو أثره واضمحلال رسمه.

قوله: «وفناء الطلب فى الموجود وهو الفناء حقًا».

يريد: أنه لا يبقى لصاحب هذا العيان طلب. لأنه قد ظفر بموجوده ومطلوبه. وطلب الموجود محال. لأنه إنما يطلب المفقود عن العيان لا الموجود، فإذا استقرت فى عيانه وشهوده فنى الطلب حقًا.

قوله: «الدرجة الثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها. وفناء شهود العيان لإسقاطه».

يريد: أن الطلب يسقط. فيشهد العبد عدمه. فهاهنا أمور ثلاثة مترتبة أحدها: فناء الطلب وسقوطه، ثم شهود سقوطه، ثم سقوط شهوده.

فهذا هو فناء شهود الطلب لإسقاطه.

وأما «فناء شهود المعرفة لإسقاطها»، فيريد به: أن المعرفة تسقطه فى شهود العيان. إذ هو فوقها. وهى تفنى فيه. فيشهد سقوطها فى العيان. ثم يسقط شهود سقوطها.

وصاحب المنازل يرى أن المعرفة قد يصحبها شىء من حجاب العلم، ولا يرتفع ذلك الحجاب إلا بالعيان. فحينئذ تفنى فى حقه المعارف. فيشهد فناءها وسقوطها. ولكن عليه بعد بقية، لا تزول عنه حتى يسقط شهود فنائها وسقوطها منه. فالعارف يخالطه بقية من العلم لا تزول إلا بالمعاينة. والمعاين قد يخالطه بقية من المعرفة لا تزول إلا بشهود سقوطها. ثم سقوط شهود هذا السقوط.

وأما «فناء شهود العيان لإسقاطه» فيعنى أن العيان أيضًا يسقط فيشهد العبد ساقطًا. فلا يبقى إلا المعاين وحده.

قال الاتحادى: «هذا دليل على أن الشيخ يرى مذهب أهل الوحدة. لأن العيان إنما يسقط فى مبادئ حضرة الجمع. لأنه يقتضى ثلاثة أمور: معاِين، ومعايَن، ومعاينة. وحضرة الجمع تنفى التعداد».

وهذا كذب على شيخ الإسلام. وإنما مراده: فناء شهود العيان. فيفنى عن مشاهدة المعاينة. ويغيب بمعاينه عن معاينته. لأن مراده: انتفاء التعدد والتغاير بين المعاين والمعاين. وإنما مراده: انتفاء الحاجب عن درجة الشهود، لا عن حقيقة الوجود، ولكنه باب لإلحاد هؤلاء الملاحدة. منه يدخلون.

وفرق بين إسقاط الشىء عن درجة الوجود العلمى الشهودى، وإسقاطه عن رتبة الوجود الخارجى العينى. فشيخ الإسلام -بل مشايخ القوم المتكلمين بلسان الفناء- هذا مرادهم.

وأما أهل الوحدة، فمرادهم: أن حضرة الجمع والوحدة تنفى التعدد والتقييد فى الشهود والوجود، بحيث يبقى المعروف والمعرفة والعارف من عين واحدة، لا بل ذلك هو نفس العين الواحدة. وإنما العلم والعقل والمعرفة حجب، بعضها أغلظ من بعض. ولا يصير السالك عندهم محققًا حتى يخرق حجاب العلم والمعرفة والعقل، فحينئذ يفضى إلى ما وراء الحجاب من شهود الوحدة المطلقة التى لا تتقيد بقيد، ولا تختص بوصف.

قوله: «الدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء».

أى يشهد فناء كل ما سوى الحق تعالى فى وجود الحق. ثم يشهد الفناء قد فنى أيضًا. ثم يفنى عن شهود الفناء. فذلك هو الفناء حقًا.

وقوله: «شائمًا برق العين».

يعنى ناظرًا إلى عين الجمع. فإذا شام برقه من بُعْدٍ انتقل من ذلك إلى ركوب لجة بحر الجمع، وركوبه إياها هو فناؤه فى جمعه.

ويعنى بالجمع: الحقيقة الكونية القدرية التى يجتمع فيها جميع المتفرقات، وتشمير القوم إلى شهودها والاستغراق والفناء فيها: هو غاية السلوك والمعرفة عندهم.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أن العبد لا يدخل بهذا الفناء والشهود فى الإسلام، فضلاً أن يكون به من المؤمنين، فضلاً أن يكون به من خاصة أولياء الله المقربين فإن هذا شهود مشترك لأمر أقرَّ به عُبَّادُ الأصنام وسائر أهل الملل: أنه لا خالق إلا الله. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فالاستغراق والفناء فى شهود هذا القدر: غاية التحقيق لتوحيد الربوبية الذى أقر به المشركون، ولم يدخلوا به فى الإسلام، وإنما الشأن فى توحيد الإلهية الذى دعت إليه الرسل، وأنزلت به الكتب، وتميز به أولياء الله من أعدائه، وهو أن لا يعبد إلا الله، ولا يحب سواه، ولا يتوكل على غيره.

والفناء فى هذا التوحيد: هو فناء خاصة المقربين. كما سيأتى. إن شاء الله.

* *

أقسام الفناء

إذا عرفت مراد القوم بالفناء، فنذكر أقسامه ومراتبه، وممدوحه ومذمومه ومتوسطه.

فاعلم أن «الفناء» مصدر فنى يفنى فناءً إذا اضمحل وتلاشى وعدم، وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه، مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء: لا يقتل فى المعركة شيخ فان. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)﴾ [الرحمن: ٢٦]، أى هالك ذاهب. ولكن القوم اصطلحوا على وضع هذه اللفظة لتجريد شهود الحقيقة الكونية، والغيبة عن شهود الكائنات.

وهذا الاسم يطلق على ثلاثة معان، الفناء عن وجود السوى، والفناء عن شهود السوى، والفناء عن إرادة السوى.

فأما الفناء عن وجود السوى: فهو فناء الملاحدة، القائلين بوحدة الوجود، وأنه ما ثم غير، وأن غاية العارفين والسالكين: الفناء فى الوحدة المطلقة، ونفى التكثر، والتعدد عن الوجود بكل اعتبار. فلا يشهد غيرًا أصلاً. بل يشهد وجود العبد عين وجود الرب. بل ليس عندهم فى الحقيقة رب وعبد.

وفناء هذه الطائفة فى شهود الوجود كله واحد. وهو الواجب بنفسه، ما ثم وجودان: ممكن، وواجب. ولا يفرقون بين كون وجود المخلوقات بالله، وبين كون وجودها هو عين وجوده. وليس عندهم فرقان بين «العالمين» و«رب العالمين» ويجعلون الأمر والنهى للمحجوبين عن شهودهم وفنائهم. والأمر والنهى تلبيس عندهم. والمحجوب عندهم يشهد أفعاله طاعات أو معاص، ما دام فى مقام الفرق. فإذا ارتفعت درجته شهد أفعاله كلها طاعات، لا معصية فيها. لشهوده الحقيقة الكونية الشاملة لكل موجود. فإذا ارتفعت درجته عندهم فلا طاعة ولا معصية، بل ارتفعت الطاعات والمعاصى. لأنها تستلزم اثنينية وتعددًا. وتستلزم مطيعًا ومطاعًا، وعاصيًا ومعصيًا. وهذا عندهم محض الشرك، والتوحيد المحض يأباه. فهذا فناء هذه الطائفة.

وأما الفناء عن شهود السوى: فهو الفناء الذى يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين. ويعدونه غاية. وهو الذى بنى عليه أبو إسماعيل الأنصارى كتابه: وجعله الدرجة الثالثة فى كل باب من أبوابه.

وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله فى الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم. فحقيقته: غيبة أحدهم عن سوى مشهوده. بل غيبته أيضًا عن شهوده ونفسه. لأنه يغيب

بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده.

وقد يسمى حال مثل هذا سُكْرًا، واصطلامًا، ومَحْوًا، وجَمْعًا. وقد يفرقون بين معانى هذه الأسماء، وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به، فيظن أنه اتحد به وامتزج، بل يظن أنه هو نفسه. كما يحكى أن رجلا ألقى محبوبه نفسه فى الماء. فألقى المحب نفسه وراءه. فقال له: ما الذى أوقعك فى الماء؟ فقال: غبتُ بك عَنِّى فظننتُ أنكَ أنيِّ.

وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطًا فى ذلك. وأن الحقائق متميزة فى ذاتها. فالرب رب. والعبد عبد. والخالق بائن عن المخلوقات. ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته، ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته. ولكن فى حال السكر والمحو والاصطلام والفناء: قد يغيب عن هذا التمييز. وفى هذه الحال قد يقول صاحبها ما يحكى عن أبى يزيد أنه قال: «سبحانى» أو «ما فى الجبة إلا الله» ونحو ذلك من الكلمات التى لو صدرت عن قائلها وعقله معه لكان كافراً. ولكن مع سقوط التمييز والشعور، قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة(١).

وهذا الفناء يحمد منه شيء. ويذم منه شيء. ويعفى منه عن شيء.

فيحمد منه: فناؤه عن حب ما سوى الله، وعن خوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والاستعانة به، والالتفات إليه، بحيث يبقى دين العبد ظاهراً وباطنًا كله لله.

وأما عدم الشعور والعلم، بحيث لا يفرق صاحبه بين نفسه وغيره، ولا بين الرب والعبد -مع اعتقاده الفرق- ولا بين شهوده ومشهوده، بل لا يرى السوى ولا الغير: فهذا ليس بمحمود، ولا هو وصف كمال، ولا هو مما يرغب فيه ويؤمر به. بل غاية صاحبه: أن يكون معذوراً لعجزه، وضعف قلبه وعقله عن احتمال التمييز والفرقان، وإنزال كل ذى منزلة منزلته، موافقة لداعى العلم، ومقتضى الحكمة، وشهود الحقائق على ماهى عليه. والتمييز بين القديم والمحدث، والعبادة والمعبود، فينزل العبادة منازلها، ويشهد مراتبها، ويعطى كل مرتبة منها حقها من العبودية، ويشهد قيامه بها، فإن شهود العبد قيامه بالعبودية أكمل فى العبودية من غيبته عن ذلك، فإن أداء العبودية فى حال غيبة العبد عنها وعن نفسه

---

(١) هذا لسان كفر ظاهر، ما كان أغنى ابن القيم - رحمه الله - عن الاعتذار لأصحابه بغياب العقل وفَقْد الإدراك والتمييز مع هذا الكلام، قد كان حسبه أن يشير إلى فساد هذا الكلام وبطلانه. ثم الله أعلم بأحوال هؤلاَء.

بمنزلة أداء السكران والنائم . وأداؤها في حال كمال يقظته وشعوره بتفاصيلها وقيامه بها ، أتم وأكمل وأقوى عبودية .

فتأمل حال عبدين في خدمة سيدهما . أحدهما : يؤدي حقوق خدمته في حال غيبته عن نفسه وعن خدمته ، لاستغراقه بمشاهدة سيده . والآخر يؤديها في حال كمال حضوره ، وتمييزه ، وإشعار نفسه بخدمة السيد ، وابتهاجها بذلك ، فرحًا بخدمته ، وسروراً والتذاذاً منه ، واستحضاراً لتفاصيل الخدمة ومنازلها . وهو -مع ذلك- عامل على مراد سيده منه ، لا على مراده من سيده ، فأي العبدين أكمل ؟

فالفناء : حظ الفاني ومراده . والعلم ، والشعور ، والتمييز ، والفرق ، وتنزيل الأشياء منازلها ، وجعلها في مراتبها : حق الرب ومراده . ولا يستوي صاحب هذه العبودية ، وصاحب تلك .

نعم ، هذا أكمل حالاً من الذي لا حضور له ولا مشاهدة بالمرة ، بل هو غائب بطبعه ونفسه عن معبوده وعن عبادته . وصاحب التمييز والفرقان -وهو صاحب الفناء الثالث- أكمل منهما . فزوال العقل والتمييز والغيبة عن شهود نفسه وأفعالها لا يحمد ، فضلاً عن أن يكون في أعلى مراتب الكمال ، بل يذم إذا تسبب إليه ، وباشر أسبابه ، وأعرض عن الأسباب التي توجب له التمييز والعقل ، ويعذر إذا ورد عليه ذلك بلا استدعاء ، بأن كان مغلوبًا عليه ، كما يعذر النائم والمغمى عليه ، والمجنون ، والسكران الذي لا يذم على سكره . كالموجر ، والجاهل بكون الشراب مسكرًا ، ونحوهما .

وليس أيضًا هذه الحال بلازمة لجميع السالكين ، بل هي عارضة لبعضهم ، منهم : من يبتلى بها ، كأبي يزيد وأمثاله . ومنهم : من لا يبتلى بها ، وهم أكمل وأقوى . فإن الصحابة- رضي الله عنهم -وهم سادات العارفين . وأئمة الواصلين المقربين ، وقدوة السالكين- لم يكن منهم من ابتلى بذلك ، مع قوة إرادتهم ، وكثرة منازلاتهم ، ومعاينة ما لم يُعَايِنْهُ غيرهم ، ولا شم له رائحة ، ولم يخطر على قلبه ، فلو كان هذا الفناء كمالاً لكانوا هم أحقَ به وأهله . وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم .

ولا كان هذا أيضًا لنبينا ﷺ ، ولا حالاً من أحواله ، ﷺ . ولهذا -في ليلة المعراج لما أسرى به ، وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى- لم تعرض له هذه الحال . بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم:١٧، ١٨] ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠] ،

وقال ابن عباس: «هى رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به» ومع هذا فأصبح بينهم لم يتغير عليه حالمه، ولم يعرض له صعق ولا غشى، يخبرهم عن تفصيل ما رأى، غير فان عن نفسه، ولا عن شهوده. ولهذا كانت حاله أكمل من حال موسى بن عمران- صلى الله عليهما وسلم- لما خر صعقًا حين تجلى ربه للجبل وجعله دكًا.

أسباب الفناء

وهذا الفناء له سببان:

أحدهما: قوة الوارد وضعف المورود. وهذا لا يذم صاحبه.

الثانى: نقصان العلم والتمييز. وهذا يذم صاحبه، لاسيما إذا أعرض عن العلم الذى يحول بينه وبين هذا الفناء، وذمه وذم أهله، ورأى ذلك عائقًا من عوائق الطريق، فهذا هو المذموم المخوف عليه.

ولهذا عظمت وصية القوم بالعلم، وحذروا من السلوك بلا علم، وأمروا بهجر من هجر العلم وأعرض عنه، وعدم القبول منه، لمعرفتهم بمآل أمره، وسوء عاقبته فى سيره. وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعى العلم، وسيره على جادة الذوق والوجد، ذاهبة به الطريق كل مذهب. فهذا فتنته والفتنة به شديدة. وبالله التوفيق.

أصل الفناء

وأصل هذا الفناء: الاستغراق فى توحيد الربوبية. وهو رؤية تفرد الله بخلق الأشياء، وملكها واختراعها، وأنه ليس فى الوجود قط إلا ما شاءه وكَوَّنَهُ. فيشهد ما اشتركت فيه المخلوقات من خلق الله إياها، ومشيئته لها، وقدرته عليها، وشمول قيوميته وربوبيته لها. ولا يشهد ما افترقت فيه من محبة الله لهذا وبغضه لهذا، وأمره بما أمر به، ونهيه عما نهى عنه، وموالاته لقوم ومعاداته لآخرين.

فلا يشهد التفرقة فى الجمع. وهى تفرقة الخلق والأمر فى جمع الربوبية. تفرقة موجب الإلهية فى جمع الربوبية، تفرقة الإرادة الدينية فى جمع الإرادة الكونية، تفرقة ما يحبه ويرضاه فى جمع ما قدره وقضاه. ولا يشهد الكثرة فى الوجود. وهى كثرة معانى الأسماء الحسنى والصفات العلى، واقتضاؤها لآثارها فى وحدة الذات الموصوفة بها.

فلا يشهد كثرة دلالات أسماء الرب تعالى وصفاته على وحدة ذاته.

فهو الله الذى لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن،

المهيمن العزيز، الجبار المتكبر. وكل اسم له صفة، وللصفة حكم. فهو سبحانه واحد الذات، كثير الأسماء والصفات. فهذه كثرة فى وحدة.

والفرق بين مأموره ومنهيه، ومحبوبه ومبغوضه، ووليه وعدوه: تفرقة فى جمع.

فمن لم يتسع شهوده لهذه الأمور الأربعة فليس من خاصة أولياء الله العارفين. بل إن انصرف شهوده عنها مع اعترافه بها فهو مؤمن ناقص. وإن جحدها -أو شيئًا منها- فكفر صريح أو بتأويل، مثل أن يجحد تفرقة الأمر والنهى، أو جمع القضاء والقدر، أو كثرة معانى الأسماء والصفات ووحدة الذات.

فليتدبر اللبيب السالك هذا الموضع حق التدبر، وليعرف قدره. فإنه مجامع طرق العالمين. وأصل تفرقتهم. قد ضبطت لك معاقده، وأحكمت لك قواعده وبالله التوفيق.

وإنما يعرف قدر هذا من اجتاز القفار، واقتحم البحار، وعرض له ما يعرض لسالك القفر، وراكب البحر، ومن لم يسافر ولم يخرج عن وطن طبعه ومرباه، وما ألف عليه أصحابه وأهل زمانه، فهو بمعزل عن هذا. فإن عرف قدره، وكفى الناس شره، فهذا يرجى له السلامة. وإن عدا طوره، وأنكر ما لم يعرفه، وكذب بما لم يحط به علمًا، ثم تجاوز إلى تكفير من خالفه، ولم يقلد شيوخه، ويرضى بما رضى هو به لنفسه. فذلك الظالم الجاهل، الذى ما ضر إلا نفسه، ولا أضاع إلا حظه.

ما يعرض للسالك على طريق الفناء

ويعرض للسالك على درب الفناء معاطب ومهالك، لا ينجيه منها إلا بصيرة العلم، التى إن صحبته فى سيره، وإلا فبسبيل من هلك.

منهـا: أنه إذا اقتحم عقبة الفناء ظن أن صاحبها قد سقط عنه الأمر والنهى، لتشويشه على الفناء ونقضه له. والفناء عنده غاية العارفين، ونهاية التوحيد. فيرى ترك كل ما أبطله وأزاله، من أمر ونهى أو غيرهما. ويصرح بعضهم بأنه إنما يسقط الأمر والنهى عمن شهد الإرادة. وأما من لم يشهدها فالأمر والنهى لازمان له. ولم يعلم هذا المغرور أن غاية ما معه: الفناء فى توحيد أهل الشرك الذى أقروا به، ولم يكونوا به مسلمين ألبتة، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩]،

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال ابن عباس: «تسألهم: من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله. وهم يعبدون غيره»(١).

ومن كان هذا التوحيد والفناء غاية توحيده: انسلخ من دين الله، ومن جميع رسله وكتبه، إذ لم يتميز عنده ما أمر الله به مما نهى عنه. ولم يفرق بين أولياء الله وأعدائه، ولا بين محبوبه ومبغوضه، ولا بين المعروف والمنكر، وسوى بين المتقين والفجار، والطاعة والمعصية. بل ليس عنده فى الحقيقة إلا طاعة، لاستواء الكل فى الحقيقة التى هى المشيئة العامة الشاملة.

ثم صاحب هذا المقام: يظن أنه صاحب الجمع والتوحيد. وأنه وصل إلى عين الحقيقة. وإنما وصل المسكين إلى الحقيقة الشاملة التى يدخل فيها إبليس وجنوده أجمعون، وكل كافر ومشرك وفاجر. فإن هؤلاء كلهم تحت الحقيقة الكونية القدرية. فغاية صاحب هذا المشهد: وصوله إلى أن يشهد استواء هؤلاء والمؤمنين الأبرار، وأولياء الله وخاصة عباده، فى هذه الحقيقة. ومع هذا فلابد له من الفرق، والموالاة والمعاداة ضرورة. فينسلخ عن الفرق الشرعى، ويعود إلى الفرق الطبعى النفسى بهواه وطبعه. إذ لابد أن يفرق بين ما ينفعه فيميل إليه، وما يضره فيهرب منه. فبينا هو منكر عن أهل الفرق الشرعى، ناكبًا عن طريقتهم إلى عين الجمع، إذ انتكس، وارتكس. وعاد إلى الفرق الطبعى النفسى. فيوالى ويعادى، ويحب ويبغض، بحسب هواه وإرادته.

فإن الفرق أمر ضرورى للإنسان، فمن لم يكن فرقه قرآنيًا محمديًا، فلابد له من قانون يفرق به: إما سياسة سائس فوقه، أو ذوق منه أو من غيره، أو رأى منه أو من غيره، أو يفرق فرقًا بهيميًا حيوانيًا بحسب مجرد شهوته وغرضه أين توجهت به. فلابد من التفريق بأحد هذه الوجوه.

فلينظر العبد من الحاكم عليه فى الفرق. وليزن به إيمانه قبل أن يوزن، وليحاسب نفسه قبل أن يحاسب، وليستبدل الذهب بالخزف، والدر بالبعر، والماء الزلال بالسراب الذى: ﴿ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩]، قبل أن يسأل الرجعة إلى دار الصرف، فيقال: هيهات! اليوم يوم

---

(١) هو فى تفسير الطبرى الأثر (١٩٩٥٤)، وفى ابن كثير (يوسف: ١٠٦)، وقال: «وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهكذا فى «الصحيحين» أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك. وفى الصحيح أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك يقول رسول الله ﷺ: قد قد أى حَسْبُ حَسْبُ لا تزيدوا على هذا».

الوفاء. وما مضى فقد فات. أحْصِىَ المُسْتَخْرَجُ والمصروف، وستعلم الآن ما معك من النقد الصحيح والزيوف.

وأصحاب هذه الحقيقة: أتباع كل ناعق. يميلون مع كل صائح. لم يستضيئوا بنور العلم. ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. إذا تناهوا فى حقيقتهم أضافوا الجميع إلى الله إضافة المحبة والرضى، وجعلوها عين المشيئة والخلق. ضاهوا الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقولهم عن آلهتهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فاحتجوا بإقرار الله لهم قدراً وكوناً، على رضاه ومحبته وأمره، وأنه لو كره ذلك منهم لحال بينهم وبينه، ولَمَا أقرهم عليه. فجعلوا قضاءه وقدره عين محبته ورضاه. وورثهم من سوى بين المخلوقات. ولم يفرق بالفرق النبوى القرآنى.

وطائفة من المشركين ذكرت ذلك معارضين لأمر الله ونهيه، وما بعث به رسله، بقضائه وقدره. فعارضوا الحقيقة الدينية الشرعية بالحقيقة الكونية القدرية. وورثهم من يحتج بالقضاء والقدر فى مخالفة الأمر والنهى. وكلا الطائفتين أبطلت أمره ونهيه بقضائه وقدره.

وظنت طائفة ثالثة أن إثبات القضاء والقدر يبطل الشرائع والنبوات. وأن المشركين احتجوا على بطلانها بإثباته. فجعلت التكذيب به من أصول الإيمان، بل أعظم أصوله. فردت قضاء الله وقدره الشامل العام بأمره ونهيه.

فانظر إلى اقتسام الطوائف هذا الموضع، وافتراقهم فى مفرق هذا الطريق علماً وخبراً، وسلوكًا وحقيقة. وتأمل أحوال الخلق فى هذا المقام، تنكشف لك أسرار العالمين. وتعلم أين أنت وأين مقامك؟ وتعرف ما جنى هذا الجمع، وهذا الفناء على الإيمان. وما خرب من القواعد والأركان. وتتحقق حينئذ أن الدين كله فرقان فى القرآن، فرق فى جمع، وكثرة فى وحدة، كما تقدم بيانه. وأن أولى الناس بالله وكتبه ورسله ودينه: أصحاب الفرق فى الجمع. فيقومون بالفرق بين ما يحبه الله ويبغضه، ويأمر به وينهى عنه، ويواليه ويعاديه، علمًا وشهودًا، وإرادة وعملاً، مع شهودهم الجمع لذلك كله فى قضائه وقدره، ومشيئته الشاملة العامة فيؤمنون بالحقيقة الدينية والكونية. ويعطون كل حقيقة حظها من العبادة.

فحظ الحقيقة الدينية: القيام بأمره ونهيه، ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه. وأصل ذلك: الحب فيه والبغض فيه.

وحظ الحقيقة الكونية: إفراده بالافتقار إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه والالتجاء إليه، وإفراده بالسؤال والطلب، والتذلل والخضوع، والتحقق بأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأنه لا يملك أحد سواه لهم ضراً ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً، وأنه مقلب القلوب. فقلوبهم ونواصيهم بيده، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه. إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه.

فلهذه الحقيقة عبودية. ولهذه الحقيقة عبودية. ولا تبطل إحداهما أخرى. بل لا تتم إلا بها. ولا تتم العبودية إلا بمجموعهما. وهذا حقيقة قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ بخلاف من أبطل حقيقة «إياك نعبد» بحقيقة «إياك نستعين». وقال: إنها جمع «وإياك، نعبد» فرق. وقد يغلو فى هذا المشهد فلا يستحسن حسنة، ولا يستقبح قبيحة. ويصرح بذلك ويقول: العارف لا يستحسن حسنة، ولا يستقبح قبيحة، لاستبصاره بسر القدر.

ومنهم من يقول: حقيقة هذا المشهد: أن يشهد الوجود كله حسنًا لا قبيح فيه، وأفعالهم كلها طاعات لا معصية فيها. لأنهم -وإن عصوا الأمر- فهم مطيعون المشيئة. ويقولون:

أصبحت منفعلاً لما تختاره ... منى، ففعلى كله طاعات

ويقول قائلهم: «من شهد الحقيقة سقط عنه الأمر» ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، ويفسرون «اليقين» بشهود الحكم الكونى، وهى الحقيقة عندهم.

ولا ريب أن العامة خير من هؤلاء وأصح إيمانًا. فإن هذا زندقة ونفاق، وكذب منهم على أنفسهم ونبيهم وإلههم.

أما كذبهم على أنفسهم: فإنهم لابد أن يفرقوا قطعًا، فرغبوا عن الفرق النبوى والقرآنى، ووقعوا فى الفرق النفسى الطبعى. مثل حال إبليس، تكبر عن السجود لآدم، ورضى لنفسه بالقيادة لفساق ذريته(١) ومثل المشركين، تكبروا عن عبادة الله الحى القيوم. ورضوا لأنفسهم بعبادة الأحجار والأشجار والموتى والأوثان، ومثل أهل البدع، تكبروا عن تقليد النصوص، وتلقى الهدى من مشكاتها، ورضوا لأنفسهم بتقليد أقوال مخالفة

---

(١) هو معنى ما قال أبو نواس:

عجبت من إبليس فى كبره ... وخبث ما أظهر من نيته
تاه على آدم فى سجدةٍ ... وصار قواداً لذريته

للفطرة والعقل والشرع. وظنوها قواطع عقلية. وقدموها على نصوص الأنبياء. وهى فى الحقيقة شبهات مخالفة للسمع والعقل.

ومثل الجهمية، نزهوا الرب عن عرشه، وجعلوه فى أجواف البيوت والحوانيت والحمامات، وقالوا: هو فى كل مكان بذاته. ونزهوه عن صفات كماله ونعوت جلاله حذرًا -بزعمهم- من التشبيه. فشبهوه بالجامدات الناقصة الخسيسة التى لا تتكلم، ولا سمع لها ولا بصر، ولا علم ولا حياة، بل شبهوه بالمعدومات الممتنع وجودها.

دحض أضاليل المعطلة

ومثل المعطلة الذين قالوا: ما فوق العرش إلا العدم. وليس فوق العرش رب يعبد. ولا إله يصلى له ويسجد. ولا ترتفع الأيدى إليه. ولا رفع المسيح إليه، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا أسرى برسول الله ﷺ إليه، ولا دنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، ولا ينزل من عنده شىء، ولا يصعد إليه شىء، ولا يراه أهل الجنة من فوقهم يوم القيامة. واستواؤه على عرشه لا حقيقة له، بل على المجاز الذى يصح نفيه، وعلوه فوق خلقه بالرتبة والشرف، لا بالذات. وكذلك فوقيته فوقية قهر، لا فوقية ذات، فنزهوه عن كمال علوه وفوقيته، ووصفوه بما ساووا بينه وبين العدم والمستحيل، فقالوا: لا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل به، ولا منفصل عنه، ولا محايث له، ولا مباين له، ولا هو فينا، ولا خارج عنا.

ومعلوم أنه لو قيل لأحدهم: صف لنا العدم؛ لوصفه بهذا بعينه.

وانطباق هذا السلب على العدم المحض أقرب إلى العقول والفطر من انطباقه على رب العالمين، الذى ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته. بل هو بائن من خلقه، مستو على عرشه، عال على كل شىء. وفوق كل شىء.

والقصد: أن كل من أعرض عن شىء من الحق وجحده، وقع فى باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده. ولابد، حتى فى الأعمال. من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق. فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده. فابتُلِىَ بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله فى طاعة الله ابتلى بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلى بالتعب فى خدمة الخلق ولابد.

وكذلك من رغب عن الهدى بالوحى، ابتلى بكناسة الآراء وزبالة الأذهان، ووسخ الأفكار.

فليتأمل من يريد نصح نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع فى نفسه وفى غيره.

ولا ريب أن العامة -مع غفلتهم وشهواتهم- أصح إيمانًا من هؤلاء إذا لم يعطلوا الأمر والنهى. فإن إيمانًا مع تفرقة وغفلة، خير من شهود وجمعية يصحبها فساد الإيمان، والانسلاخ منه.

وأما كذبهم على نبيهم: فاعتقادهم أنه إنما كان قيامه بالأوراد والعبادات لأجل التشريع، لا لأنها فرض عليه. إذ قد سقط ذلك عنه بشهود الحقيقة، وكمال اليقين. فإن الله عز وجل أمره وأمر سائر رسله بعبادته إلى حين انقضاء آجالهم. فقال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، وهو الموت بالإجماع. كما قال فى الآية الأخرى عن الكفار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧]، وقال ﷺ: «أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه»[(١)] قاله لما مات عثمان. وقال المسيح: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]، فهذه وصية الله للمسيح، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم. قال الحسن: لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلاً دون الموت.

وإذا جمع هؤلاء التجهم فى الأسماء والصفات إلى شهود الحقيقة والوقوف عندها، فأعاذك الله من تعطيل الرب وشرعه بالكلية، فلا رب يعبد، ولا شرع يتبع بالكلية.

ومن أراد الوقوف على حقيقة ما ذكرنا فَلْيُسَيِّرْ طرفه بين تلك المعالم. وليقف على تلك المعاهد. وليسأل الأحوال والرسوم والشواهد، فإن لم تجبه حوارًا[(٢)]، أجابته حالاً واعتبارًا. وإنما يُصَدِّق بهذا من رافق السالكين، وفارق القاعدين وتبوأ الإيمان. وفارق عوائد أهل الزمان، ولم يرض بقول القائل:

دَعِ المعالىَ، لا تَنْهَضْ لبُغْيَتِهَا ... واقْعُدْ. فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكاسى

الدرجة الثالثة: من درجات الفناء: فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين وهو الفناء عن إرادة السوى، شائمًا[(٣)] برق الفناء عن إرادة ما سواه، سالكًا سبيل الجمع على ما يحبه

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٣/ ١٢٤٣)، (جـ٧/ ٣٩٢٩)، (جـ/ ١٢ ٧٠٠٣).

(٢) الحوار: حاوره حوارًا ومحاورة جاوبه وجادله.

(٣) شائمًا: يقال شام السحاب والبرق: نظر إليه يتحقق أين يكون مطره.

ويرضاه. فانيًا بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه، فضلاً عن إرادة غيره، قد اتحد مراده بمراد محبوبه -أعني المراد الدينى الأمرى، لا المراد الكونى القدرى- فصار المرادان واحدًا.

وليس فى العقل اتحاد صحيح إلا هذا، والاتحاد فى العلم والخبر، فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحدًا، مع تباين الإرادتين والعلمين والخبرين. فغاية المحبة: اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب، وفناء إرادة المحب فى مراد المحبوب.

فهذا الاتحاد والفناء: هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم، فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه، والاستعانة به، والطلب منه، عن حب ما سواه، وخوفه ورجائه والتوكل عليه.

ومن تحقيق هذا الفناء: أن لا يحب إلا فى الله ولا يبغض إلا فيه. ولا يوالى إلا فيه. ولا يعادى إلا فيه. ولا يعطى إلا له، ولا يمنع إلا له، ولا يرجو إلا إياه، ولا يستعين إلا به. فيكون دينه كله ظاهرًا وباطنًا لله. ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. فلا يواد من حاد الله ورسوله. ولو كان أقرب الخلق إليه، بل:

يعادى الذى عادى من الناس كلهم جميعًا. ولو كان الحبيب المصافيا

وحقيقة ذلك: فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضى ربه وحقوقه.

والجامع لهذا كله: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علمًا ومعرفة، وعملاً وحالاً وقصدًا.

وحقيقة هذا النفى والإثبات الذى تضمنته هذه الشهادة: هو الفناء والبقاء، فيفنى عن تأليه ما سواه علمًا وإقرارًا وتعبدًا. ويبقى بتأليهه وحده.

فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحد الذى عليه المرسلون، وأنزلت به الكتب. وخلقت لأجله الخليقة، وشرعت له الشرائع، وقام عليه سوق الجنة. وأسس عليه الخلق والأمر.

وحقيقته أيضا: البراء والولاء، البراء من عبادة غير الله، والولاء لله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال أيضًا: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ

للذى فطر السموات والأرض حنيفا ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② ﴾ إلى آخرها. وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك.

وهى حقيقة المحو والإثبات. فيمحو محبة ما سوى الله عز وجل من قلبه، علمًا وقصداً وعبادة، كما هى ممحوة من الوجود. وثبت فيه إلهيته سبحانه وحده.

وهى حقيقة الجمع والفرق. فيفرق بين الإله الحق وبين من ادُّعِيَتْ له الإلهية بالباطل. ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته علىَ إلهه الحق الذى لا إله سواه.

وهى حقيقة التجريد والتفريد. فيتجرد عن عبادة ما سواه، ويفرده وحده بالعبادة. فالتجريد نفى، والتفريد إثبات. ومجموعهما هو التوحيد.

فهذا الفناء والبقاء. والولاء والبراء. والمحو والإثبات، والجمع والتجريد. والتفريد المتعلق بتوحيد الإلهية: هو النافع المثمر. المنجى الذى به تنال السعادة والفلاح.

وأما تعلقه بتوحيد الربوبية -الذى أقر به المشركون عُبَّاد الأصنام- فغايته فناء فى تحقيق توحيد مشترك بين المؤمنين والكفار، وأولياء الله وأعدائه. لا يصير به وحده الرجل مسلمًا، فضلاً عن كونه عارفًا محققًا.

وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أكابر الشيوخ، وأصحاب الإرادة ممن غلظ حجابه، والمعصوم من عصمه الله، وبالله المستعان، والتوفيق والعصمة.

عودة إلى منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»

فلنرجع إلى ذكر منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» التى لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها.

فذكرنا منها «اليقظة» «والبصيرة» و«الفكرة» و«العزم».

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله. ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها ألبتة. وهى على ترتيب السير الحسى، فإن المقيم فى وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصر فى أمر سفره وخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر فى أهبة السفر والتزود وإعداد عدته.

ثم يعزم عليه. فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهى «التمييز» بين ماله وعليه. فيستصحب ماله. ويؤدى ما عليه. لأنه مسافر سفر من لا يعود.

ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة «التوبة» لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه. وهى حقيقة «التوبة» فكان تقديم «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضًا. وهو أن «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضى وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضى حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ [الحشر: ١٨]، فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب- رضى الله عنه-: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر» ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** (١٨) ﴾ [الحاقة: ١٨]، أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم»[(١)].

قال صاحب المنازل: «المحاسبة لها ثلاثة أركان:

أحدها: أن تقايس بين نعمته وجنايتك».

يعنى تقايس بين ما منَ الله وما منك. فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاكَ والعطب.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال. وأن كل نعمة منه فضل. وكل نقمة منه عدل. وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها. فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص، وأن حدها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها ما زكت أبدًا. ولولا هداه ما اهتدت، ولولا إرشاده

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٤٥٩) من حديث عمر بن الخطاب موقوفًا عليه معلقًا بصورة التمريض.

وتوفيقه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة، وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها، وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده، فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود. فليس لها من ذاتها إلا العدم -عدم الذات، وعدم الكمال- فهناك تقول حقًا: «أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى».

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات. فتعلم بهذه المقايسة: أيهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة.

وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

قال: «وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء: نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة».

يعنى أن هذه المقايسة والمحاسبة تتوقف على نور الحكمة. وهو النور الذى نور الله به قلوب أتباع الرسل. وهو نور الحكمة. فبقدره ترى التفاوت. وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة ههنا: هو العلم الذى يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال. والضار والنافع. والكامل والناقص. والخير والشر. ويُبْصر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش. ويلبس عليه. فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالاً. فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعين الرضى عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التى يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التى يرى بها الاستدراج، فكم من مُسْتَدْرَج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه! وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغهم من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة، وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء فى صورة النعمة، والمحنة فى صورة

المنحة. فليحذر فإنما هو مستدرج. ويميز بذلك أيضًا بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!.

فإن العبد بين منَّة من الله عليه، وحجة منه عليه. ولا ينفك عنهما. فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته. قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والحكم الكونى أيضًا متضمن لمنته وحجته. فإذا حكم له كونًا حكمًا مصحوبًا باتصال الحكم الدينى به فهو منة عليه. وإن لم يصحبه الدينى فهو حجة منه عليه.

وكذلك حكمه الدينى إذا اتصل به حكمه الكونى. فتوفيقه للقيام به منَّةٌ منه عليه. وإن تجرد عن حكمه الكونى صار حجة منه عليه. فالمنة: باقتران أحد الحكَمين بصاحبه. والحجة: فى تجرد أحدهما عن الآخر. فكل علمٍ صحبه عَمَلٌ يُرْضِى الله سبحانه فهو منة. وإلا فهو حجة.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منة. وإلا فهى حجة.

وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة.

وكل مال اقترن به إنفاق فى سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو منة من الله عليه. وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول فى الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبرة ومزيد فى العقل، ومعرفة فى الإيمان فهى منة، وإلا فهى حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد. فهو منة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمأنينتها إليها، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر. ويميز بين مواقع المنن والمحن والحجج

والنعم. فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة: ٢١٣].

الركن الثاني من أركان المحاسبة: وهي أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية. وبين ما لك وما عليك، فالذي لك: هو المباح الشرعي، فعليك حق، ولك حق، فأد ما عليك يؤتك ما لك.

ولابد من التمييز بين ما لك وما عليك. وإعطاء كل ذي حق حقه.

وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله. فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لا حق أداه.

وبإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه. فيتعبد بترك ما له فعله، كترك كثير من المباحات. ويظن ذلك حقًا عليه. أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظن ذلك حقًا عليه.

مثال الأول: من يتعبد بترك النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً، أو الطيبات من المطاعم والملابس. ويرى -لجهله- أن ذلك مما عليه. فيوجب على نفسه تركه. أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجلِّ الطاعات. وقد أنكر النبي ﷺ على من زعم ذلك، ففي الصحيح: «أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا عن عبادته في السر؟ فكأنهم تقالوها. فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش. فبلغ النبي ﷺ مقالتهم. فخطب، وقال: «**ما بال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج. ويقول الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكني أتزوج النساء، وآكل اللحم. وأنام وأقوم. وأصوم وأفطر. فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(١)] فتبرأ ممن رغب عن سنته، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة. فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

ومثال الثاني: من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال، والكشف والتصرف. ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها ألبتة. فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلاً وتركًا. ويراها حقًا عليه؛ وهي حق له، وله تركها- كفعل الرياضات، والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم، من غير تمييز بين ما فيها من حظ العبد، والحق الذي عليه. فهذا لون وهذا لون.

---

(١) أخرجه البخاري (جـ٩/ ٥٠٦٣)، ومسلم (جـ٢- نكاح/ ٥)، والنسائي (جـ٦ ص٦٠).

ومن أركان المحاسبة: ما ذكره صاحب المنازل، فقال:

«الثالث: أن تعرف أن كل طاعة رَضِيتَها منك فهى عليك، وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك».

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه. وجهله بحقوق العبودية. وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغى أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها. ويتولد من ذلك: من العُجْب والكِبْر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحفَ ونحوَها.

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه. وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجل المواقف وأفضلها. فقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل. وفى الصحيح: أن النبى ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا. ثم قال: «اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[(١)] وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله، فقال فى آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر: ١ - ٣].

ومن ههنا فهم عمر وابن عباس -رضى الله عنهم- أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه

---

(١) أخرجه مسلم (جـ١ - مساجد/ ١٣٥) والترمذى (جـ٢/ ٣٠٠)، والنسائى (جـ٣ ص٦٨)، وابن ماجه (جـ١/ ٩٢٨) من حديث ثوبان، وأبو داود (جـ٢/ ١٥١٢)، والترمذى (جـ٢/ ٢٩٨) من حديث عائشة.

به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه. فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شىء. فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل. وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه: «سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلنى من التوابين. واجعلنى من المتطهرين».

فهذا شأن من عرف ما ينبغى لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم.

وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟.

ولله در الشيخ أبى مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب فى قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التى تبذلها فى تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله. ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله.

التعبير بالذنب وفائدة الاعتبار

وقوله: «وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك».

يحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها. وهذا مأخوذ من الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن النبى ﷺ: **«من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»**(١) قال الإمام أحمد، فى تفسير هذا الحديث: من ذنب قد تاب منه.

وأيضًا: ففى التعيير ضرب خفى من الشماتة بالمعير. وفى الترمذى أيضًا مرفوعًا: **«لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»**(٢).

ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه. وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٥٠٥) من حديث معاذ بن جبل وإسناده ضعيف لانقطاعه.

(٢) أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٥٠٦) عن واثلة بن الأسقع وقال: حديث حسن غريب.

أخاك باء به، ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله. فذنب تَذلُّ به لديه، أحب إليه من طاعة تُدلُّ بها عليه. وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أنَ تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المَعجب لا يصعد له عمل. وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكى وأنت مدل. وأنين المذنبين، أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو. ولا يطالعها إلا أهل البصائر. فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك مالا يطلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبى ﷺ: **«إذا زنت أمة أحدكم، فليقم عليها الحد ولا يثرب»**[1] أى لا يعير، من قول يوسف- عليه السلام- لإخوته: ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ [يوسف: ٩٢]، فإن الميزان بيد الله، والحكم لله. فالسوط الذى ضُربَ به هذا العاصى بيد مُقَلِّب القلوب. والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب. ولا يأمن كَرَّات القَدَر وسَطْوَتَهُ إلا أهل الَجهل بالله. وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وَسيلةَ: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤)**﴾ [الإسراء:٧٤]، وقال يوسف الصديق: ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)**﴾ [يوسف: ٣٣]، وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ: **«لا ومقلب القلوب»**[2] وقال: **«ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل. إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»**[3] ثم قال: **«اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»**[4].

---

(١) أخرجه البخارى (جـ١٢/ ٦٨٣٩)، ومسلم (جـ٣- حدود/ ٣٠) عن أبى هريرة وانظر «سنن أبى داود» أيضًا (جـ٤/ ٤٤٦٩- ٤٤٧١).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٦٢٨)، والترمذى (جـ٤/ ١٥٤٠)، والنسائى (جـ٧ ص٢، ٣) عن ابن عمر.

(٣) حديث صحيح: أخرجه أحمد (جـ٤ ص١٨٢)، وابن ماجه (جـ١/ ١٩٩) عن النواس بن سمعان.

(٤) أخرجه أحمد (جـ٢ ص١٦٨، ١٧٣) عن عبد الله بن عمرو بإسناد صحيح، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢/ ٣٨٣٤) عن أنس بنحوه.

مقام التوبة

فإذا صح هذا المقام، ونزل العبد في هذه المنزلة، أشرف منها على مقام «التوبة» لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ما له مما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات.

ومنزل «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾[النور]، وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾ [الحجرات: ١١]، قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث ألبتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب. ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فو الله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»**(١) وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: **«رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة»**(٢) وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخرها. إلا قال فيها: **«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي»**(٣) وصح عنه ﷺ أنه قال: **«لن ينجي أحدًا منكم عمله»**. قالوا: **«ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (جـ١١/ ٦٣٠٧)، ومسلم (جـ٤- ذكر/ ٤٢) وابن ماجه (جـ٢/ ٣٨١٥، ٣٨١٦)، وأحمد (جـ٤ ص٢١١).

(٢) أخرجه الترمذي (جـ٥/ ٣٤٣٤)، وأبو داود (جـ٢/ ١٥١٦)، وابن ماجه (جـ٢/ ٣٨١٤)، وأحمد (جـ٢ ص٢١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (جـ١١/ ٦٤٦٣، ٦٤٦٧)، ومسلم (جـ٤- منافقين/ ٧١، ٧٣، ٧٥) من حديث عائشة وانظر «المسند» (جـ٢ ص٢٣٥)، وابن ماجه (جـ٢/ ٤٢١٠) عن أبي هريرة بقريب منه.

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

حقيقة التوبة

ولما كانت «التوبة» هى رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم. ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحة حقها - علمًا وشهودًا وحالاً ومعرفة- علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح. فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأول جهل ينافى معرفة الهدى، والثانى غَىٌّ ينافى قصده وإرادته، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخرًا.

قال صاحب المنازل: «وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء: إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه، وفرحك عند الظفر به، وقعودك على الإصرار عن تداركه، مع تيقنك نظر الحق إليك».

يحتمل أن يريد «بالانخلاع عن العصمة»: انخلاعه عن اعتصامه بالله. فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾ [آل عمران: ١٠١]، فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبدًا. قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج: ٧٨]، أى متى اعتصمتم به تولاكم. ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان. وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج. وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

وسيأتى الكلام إن شاء الله تعالى بعد هذا فى حقيقة «الاعتصام» وأن الإيمان لا يقوم إلا به.

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له، وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك، فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده، واشتدت عليه مفارقته. وعلم أن الهلك كل الهلك بعده، وهو حقيقة الخذلان، فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا

بعد أن خذلك، وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان: أن يكلَكَ الله إلى نفسك، ويخلى بينك وبينها. والتوفيق: أن لا يكلك الله إلى نفسك. وله سبحانه فى هذه التخلية -بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته- حكم وأسرار. سنذكر بعضها.

وعلى الاحتمالين فترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمته لك.

قوله: «وفرحك عند الظفر به».

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها. ففرحه بها غطى عليه ذلك كله. وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلى قلبه من هذا الحزن. واشتدت غبطته وسروره، فليتهم إيمانه. وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لِجُرْحٍ بميت إيلامُ.

وهذه النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها. وهى موضع مخوف جدًا، مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة. وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد فى استدراكه.

قوله: «وقعودك على الإصرار عن تداركه».

الإصرار: هو الاستقرار على المخالفة. والعزم على المعاودة. وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبة الذنب: أنه يوجب ذنبًا أكبر منه، ثم الثانى كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصية أخرى. والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها. وذلك علامة الهلاك. وأشد من هذا كله: المجاهرة بالذنب، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم. وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر، وانسلاخ من الإسلام بالكلية. فهو دائر بين الأمرين: بين قلة الحياء، ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين. فلذلك يشترط فى صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظرًا -ولا يزال- إليه مطلعًا عليه.

يراه جهرة عند مواقعة الذنب. لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم، إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له. فتوبته دخوله فى الإسلام، وإقراره بصفات الرب- جل جلاله.

شروط التوبة

قال: «وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار».

فحقيقة التوبة: هى الندم على ما سلف منه فى الماضى. والإقلاع عنه فى الحال. والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل.

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة، فإنه فى ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه. وفى المسند «الندم توبة»(١).

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار: ففيه إشكال. فإن من الناس من يقول: من تمام التوبة ترك الاعتذار. فإن الاعتذار محاجة عن الجناية. وترك الاعتذار اعتراف بها، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف. وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه، وقد عتب عليه فى شىء:

وما قابلت عتبك باعتذار ... ولكنى أقول كما تقول

وأطرق باب عفوك بانكسار ... ويحكم بيننا الخلق الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره. وأزال عتبه عليه. فتمام الاعتراف: ترك الاعتذار، بأن يكون فى قلبه ولسانه: اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر، ولا قوة لى فأنتصر، ولكنى مذنب مستغفر، اللهم لا عذر لى، وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتى، فإن عفوت وإلا فالحق لك.

والذى ظهر لى من كلام صاحب المنازل: أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف

---

(١) أخرجه أحمد (جـ١ ص٣٧٦) وابن ماجه (جـ٢/ ٤٢٥٢)، وأخرجه الحاكم (جـ٤ ص٢٤٣) مطولاً ومختصراً كلهم من حديث عبد الله بن معقل عن عبد الله بن مسعود وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

والمسكنة، وغلبة العدو. وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لاطلاعك، ولا استهانة بوعيدك. وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا فى مغفرتك واتكالاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعًا فى سعة حلمك ورحمتك، وغرنى بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخى على، وأعاننى جهلى، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك؛ ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة. وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله يحب من عبده أن يتملق له.

وفى الحديث: «**تملقوا لله**»(١) وفى الصحيح: «**لا أحد أحب إليه العذر من الله**»(٢) وإن كان معنى ذلك الإعذار. كما قال فى آخر الحديث: «**من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين**» ومنذرين وقال تعالى: ﴿**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)**﴾ [المرسلات: ٥، ٦]، فإنه من تمام عدله وإحسانه: أن أعذر إلى عباده. وأن لا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه. فهو أيضًا يحب من عبده أن يعتذر إليه. ويتنصل إليه من ذنبه. وفى الحديث: «**من اعتذر إلى الله قبل الله عذره**»(٣) فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

وأما الاعتذار بالقدر: فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل لذنبه على الأقدار. وهذا فعل خصماء الله. كما قال بعض شيوخهم فى قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**﴾ [آل عمران: ١٤]، قال: أتدرون ما المراد بهذه الآية؟ قالوا: ما المراد بها؟ قال: إقامة أعذار الخليقة.

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه. وإنما المراد بها: التزهيد فى هذا الفانى الذاهب، والترغيب فى الباقى الدائم، والإزراء بمن آثر هذا المُزَيَّنَ واتبعه، بمنزلة الصبى الذين يزين له ما يلعب به. فيهش إليه ويتحرك له، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين، فلم يقل: «زَيَّنَّا

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وفى الحديث عن أبى ذر عن النبى ﷺ قال: ثلاثة يحبهم الله عز وجل: . . وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحبَّ إليهم مما يُعْدَلُ به نزلوا فوضعوا رؤوسهم «فقام يتملقنى ويتلو آياتى . .» صحيح أخرجه النسائى وأحمد والترمذى.

(٢) أخرجه البخارى (جـ١٣/ ٧٤١٦)، ومسلم (جـ٤- توبة/ ٣٥)، وأحمد (جـ٤ ص٢٤٨).

(٣) ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (جـ١٠ ص٢٩٨) وقال: رواه أبو يعلى وفيه الربيع بن سليمان الأزدى وهو ضعيف».

للناس» والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال وكذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وفي الحديث: «بعثت هاديًا وداعيًا، وليس إليَّ من الهداية شيء، وبعث إبليس مغويًا ومزينًا. وليس إليه من الضلالة شيء»(١) ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدرًا، وإلى الشيطان تسببًا، مع أنَّ تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم. فمن عقوبة السيئة: السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة: الحسنة بعدها.

والمقصود: أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة. وليس هو من الاعتذار في شيء. وفي بعض الآثار: «إن العبد إذا أذنب. فقال: يا رب، هذا قضاؤك. وأنت قدرت علي. وأنت حكمت علي. وأنت كتبت علي. يقول الله عز وجل: وأنت عملت، وأنت كسبت، وأنت أردت واجتهدت، وأنا أعاقبك عليه، وإذا قال: يا رب، أنا ظلمت، وأنا أخطأت، وأنا اعتديت، وأنا فعلت، يقول الله عز وجل: وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت، وأنا أغفر لك، وإذا عمل حسنة. فقال: يا رب أنا عملتها، وأنا تصدقت، وأنا صليت، وأنا أطعمت، يقول الله عز وجل: وأنا أعنتك، وأنا وفقتك، وإذا قال: يا رب أنت أعنتني ووفقتني، وأنت مننت علي، يقول الله: وأنت عملتها، وأنت أردتها، وأنت كسبتها»(٢).

فالاعتذار اعتذاران: اعتذار ينافي الاعتراف، فذلك مناف للتوبة، واعتذار يقرر الاعتراف، فذلك من تمام التوبة.

قال صاحب المنازل: «وحقائق التوبة ثلاثة أشياء: تعظيم الجناية، واتهام التوبة، وطلب أعذار الخليقة».

حقائق التوبة

يريد بالحقائق: ما يتحقق به الشيء، وتتبين به صحته وثبوته، كما قال النبي ﷺ لحارثة: «إن لكل حق حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟»(٣).

فأما تعظيم الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها. وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل في الضعفاء»، والعقيلي في «الضعفاء» عن عمر كما في «كنز العمال» (جـ١/ ٥٤٦)، وهو حديث ضعيف راجع تنزيه الشريعة (ص٣١٥).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) حديث ضعيف: انظر «كنز العمال» (/ ١٣ ٣٦٩٨٨- ٣٦٩٩١).

على ارتكابها . فإن من استهان بإضاعة فلس -مثلاً- لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه ، وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الآمر ، والتصديق بالجزاء .

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه . لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذى ينبغى له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله . فتاب للحال ، لا خوفًا من ذى الجلال . أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفًا من الله ، وتعظيمًا له ولحرماته ، وإجلالاً له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة . فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضًا : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعته ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشوراً بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات .

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين . فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿ **أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠]، فهناك يزول الخوف .

ومنها: انخلاع قلبه ، وتقطعه ندمًا وخوفًا ، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها . وهذا

تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]، قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة. لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين. فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شىء. ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد. وإنما هى أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يَدَىْ ربه طريحًا ذليلاً خاشعًا، كحال عبد جان آبق من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منّه بداً ولاً عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته. هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها. وما أقربه بها من سيده! فليس شىء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال «أسألك بعزك وذلى إلا رحمتى، أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك. هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير. وليس لى سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه».

يا مَنْ أَلُوذُ به فيما أؤَمِّلُهُ ... ومن أعوذ به مما أحاذِرُهُ

لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أنتَ كاسِرُهُ ... ولا يَهِيضُونَ عَظْمًا أنت جابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشىء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات: فى كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها، فعندهم -من الإزراء على أهل

الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم: ومنتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك- ما هو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك. فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها، ليكسر بها نفسه، ويعرفه قدره، ويذله بها، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه فهى رحمة فى حقه، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبةٍ نصوح، وإقبالٍ بقلوبهم إليه. فهو رحمة فى حقهم، وإلا فكلاهما على خطر.

أعذار الخليقة: ما بين محمود ومذموم

وأما طلب أعذار الخليقة. فهذا له وجهان. وجه محمود، ووجه مذموم حرام.

فالمذموم: أن تطلب أعذارهم، نظرًا إلى الحكم القدرى، وجريانه عليهم، شاءوا أم أبوا، فتعذرهم بالقدر.

وهذا القدر ينتهى إليه كثير من السالكين، الناظرين إلى القَدَر، الفانين فى شهوده. وهو- كما تقدم- درب خطر جدًا، قليل المنفعة، لا ينجى وحده.

وأظن هذا مراد صاحب المنازل؛ لأنه قال بعد ذلك:

«مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة. ولا استقباح سيئة، لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم».

وهذا الشهود شهود ناقص مذموم. إن طرده صاحبه. فعذر أعداء الله، وأهل مخالفته ومخالفة رسله، وطلب أعذارهم: كان مضادًا لله فى أمره، عاذرًا من لم يعذره الله، طالبًا عذر من لامه الله وأمر بلومه. وليست هذه موافقة لله. بل موافقته لوم هذا. واعتقاد أنه لا عذر له عند الله، ولا فى نفس الأمر. فالله عز وجل قد أعذر إليه. وأزال عذره بالكلية. ولو كان معذورًا فى نفس الأمر عند الله لما عاقبه ألبتة. فإن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر. فلا أحد أحب إليه العذر من الله. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، إزالة لأعذار خلقه. لئلا يكون لهم عليه حجة.

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه. فلله الحجة البالغة. ومن له عذرٌ منْ خَلْقه -كالطفل الذى لا يميز، والمعتوه، ومن لم تبلغه الدعوة، والأصم الأعمى الذىَ لا يبصر ولا يسمع- فإن الله لا يعذب هؤلاء بلا ذنب ألبتة. وله فيهم حكم آخر فى المعاد. يمتحنهم بأن يرسل إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم. فمن أطاع الرسول منهم، أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار. حكى ذلك أبو الحسن الأشعرى

عن أهل السنة والحديث فى مقالاته. وفيه عدة أحاديث بعضها فى مسند أحمد ، كحديث الأسود بن سريع ، وحديث أبى هريرة .

ومن طعن فى هذه الأحاديث بأن الآخرة دار جزاء لا دار تكليف : فهذه الأحاديث مخالفة للعقل. فهو جاهل. فإن التكليف إنما ينقطع بدخول دار القرار، الجنة أو النار. وإلا فالتكليف واقع فى البرزخ وفى العرصات، ولهذا يدعوهم إلى السجود له فى الموقف. فيسجد المؤمنون له طوعًا واختياراً، ويحال بين الكفار والمنافقين وبين السجود.

والمقصود: أنه لا عذر لأحد ألبتة فى معصية الله، ومخالفة أمره. مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل والترك. ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم، لا فى الدنيا ولا فى العقبى.

فإن قيل : هذا كلام بلسان الحال بالشرع، ولو نطقت بلسان الحقيقة، لعذرت الخليقة. إذ هم صائرون إلى مشيئة الله فيهم، وما قضاه وقدره عليهم، ولابد. فهم مجار لأقداره. وسهامها نافذة فيهم. وهم أغراض لسهام الأقدار لا تخطئهم ألبتة. ولكن منَّ غلب عليه مشاهدة الحكم الشرعى لم يمكنه طلب العذر لهم، ومن غلب عليه مشاهدة الحكم الكونى عذرهم، فأنت معذور فى الإنكار علينا بحقيقة الشرع، ونحن معذورون فى طلب العذر بحقيقة الحكم؛ وكلانا مصيب.

فالجواب من وجوه :

أحدها: أن يقال : العذر إن لم يكن مقبولاً لم يكن نافعًا. والاعتذار بالقَدَر غير مقبول. ولا يعذر أحد به، ولو اعتذر. فهو كلام باطل. لا يفيد شيئًا ألبتة. بل يزيد فى ذنب الجانى، ويغضب الرب عليه، وما هذا شأنه لا يشتغل به عاقل.

الثانى: أن الاعتذار بالقَدَر يتضمن تنزيه الجانى نفسه، وتنزيه ساحته. وهو الظالم الجاهل. والجهل على القدر نسبة الذنب إليه، وتظليمه بلسان الحال والقال، بتحسين العبارة وتلطيفها. وربما غلبه الحال. فصرح بالوجد، كما قال بعض خصماء الله[1]:

ألقاه فى اليَمِّ مكْتُوفًا، وقال له : إياكَ إياك أن تبتلَّ بالماءِ

وقال خصم آخر :

وضعوا اللحم للبزا ةعلى ذروتى عدن

---

(١) فى هامش المطبوعة :قال فى هامش الأصل : هذا الخصم هو الحسين بن منصور الحلاج .

ثم لامــوا البـزاة أن خلعـوا عنهم الرَّسَـــنْ
لـــو أرادوا صـيانتى ستروا وجهـك الحسَنْ

وقال خصم آخر:

أصبحت منفعلاً لما تختـاره منـى، ففعلى كـله طاعـات

وقال خصم آخر شاكيًا متظلمًا:

إذا كان المحب قليلَ حَــظ فمــا حسنــاته إلا ذنوب

وقال خصم آخر معتذراً عن إبليس: لما عصى من كان إبليسه؟.

ولخصماء الله ههنا تظلمات وشكايات. ولو فتشوا زوايا قلوبهم لوجدوا هناك خصمًا متظلمًا شاكيًا عاتبًا، يقول: لا أقدر أن أقول شيئًا. وإنى مظلوم فى صورة ظالم. ويقول بحرقة، ويتنفس الصعداء: مسكين ابن آدم، لا قادر ولا معذور.

وقال الآخر: ابن آدم كرة تحت صولجانات الأقدار، يضربها واحد، ويردها الآخر. وهل تستطيع الكرة الانتصاف من الصولجان؟.

ويتمثل خصم آخر بقول الشاعر:

بأبـــى أنت وإن أســـــ رفت فى هجــــرى وظلمى

فجعله هاجراً بلا ذنب، ظالمًا، بل مسرفًا. قد تجاوز الحد فى ظلمه. ويقول آخر:

أظلت علينا منك يومًا ســحابة أضاءت لنا برقًا، وأبطا رشَاشُها
فلا غيمها يجلو، فييأس طالـب ولا غيثها يأتى، فيروى عِطَاشُها

ويقول آخر:

يدنو إليك ونقص الحظ يبعـــده ويســـتقيم وداعى البين يلويـه

ويقول خصم آخر:

واقف فـــى المـــاء ظمآ نُ ولكــــن ليس يُسْـــقَى

ومن له أدنى فهم وبصيرة يعلم أن هذا كله تظلم وشكاية وعتب، ويكاد أحدهم يقول: يا ظالمى لولا. ولو فتش نفسه كما ينبغى لوجد ذلك فيها، وهذا مالا غاية بعده من الجهل والظلم، والإنسان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر: ١٥].

ولو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء. ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ ﴾ [العاديات: ٦]. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «كفور جحود لنعم الله» وقال الحسن: «هو الذى يعد المصائب. وينسى النعم» وقال أبو عبيدة «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التى لا نبت بها. وقيل: التى لا تنبت شيئًا من المنافع. وقال الفضل بن عباس: «الكنود: الذى أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

ولو علم هذا الظالم الجاهل: أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر فى طريق الماء الذى به حياته. وهو السِّكْر الذى قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك: العطش العطش، وقد وقف فى طريق الماء. ومنع وصوله إليه. فهو حجاب قلبه عن سر غيبه. وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب. فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ فى نكايته وعداوته منه.

ما تبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

فتبًا له ظالمًا فى صورة مظلوم، وشاكيًا والجناية منه. قد جد فى الإعراض وهو ينادى: طردونى وأبعدونى. ولى ظهره الباب، بل أغلقه على نفسه وأضاع مفاتيحه وكسرها. ويقول:

دعانى، وسد الباب دونى، فهل إلى   دخولى سبيلٌ. بينوا لىَ قصتى

يأخذ الشفيق بحجزته عن النار. وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها، ويستغيث: ما حيلتى؟ وقد قدمونى إلى الحفيرة وقذفونى فيها. والله كم صاح به الناصح: الحذر الحذر، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه. وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام:

وكم سُقْتُ فى آثاركم من نصيحة   وقد يستفيدُ الظِّنَّةَ المُتَنَصِّحُ

يا ويله ظهيرًا للشيطان على ربه، خصمًا لله مع نفسه، جبرى المعاصى، قدرى الطاعات، عاجز الرأى مضياع لفرصته، قاعد عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه. يحتج على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته، إذا احتجوا به عليه فى التهاون فى بعض أمره. فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شىء فارتكبه، وقال: القدر ساقنى إلى ذلك، لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل فى ترك حق ربك، فهلا كان حجة لعبدك وأمتك فى ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسىء، وجنى عليك جانٍ، واحتج بالقدر:

لاشتد غضبك عليه. وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة. ثم تحتج على ربك به. وتراه عذراً لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أزاح عَلَلَكَ، ومكنك من التزود إلى جنته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قطاع الطريق عليك. فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله، وأنزل إليك كتابه، ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم. بل تظاهره وتواليه دون وَلِيِّكَ الحق الذى هو أولى بك. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]، طرد إبليس عن سمائه، وأخرجه من جنته، وأبعده عن قربه، إذ لم يسجد لك، وأنت فى صلب أبيك آدم، لكرامتك عليه. فعاداه وأبعده، ثم واليت عدوه، وملت إليه وصالحته. وتتظلم مع ذلك، وتشتكى الطرد والإبعاد، وتقول:

عودونى الوصالَ، والوصْلُ عَـذْبٌ ... ورمـونى بالصد. والصـد صعب

نعم. وكيف لا يُطْرَدُ من هذه معاملته؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه؟ وكيف يجعل من خاصته وأهل قربه من حاله معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكدَّره.

أمره الله بشكره، لا لحاجته إليه. ولكنَ لينال به المزيد من فضله. فجعل كفر نعمه، والاستعانة بها على مساخطه: من أكبر أسباب صرفها عنه.

وأمره بذكره ليذكره بإحسانه، فجعل نسيانه سببًا لنسيان الله له ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٦٧]، أمره بسؤاله ليعطيه، فلم يسأله. بل أعطاه أجلَّ العطايا بلا سؤال، فلم يقبل. يشكو من يرحمه إلى من لا يرحمه. ويتظلم ممن لا يظلمه. ويدع من يعاديه ويظلمه. إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه. وإن سلبه ذلك ظل متسخطًا على ربه وهو شاكيه، لا يصلح له على عافية، ولا على ابتلاء، العافية تلقيه إلى مساخطه، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته، وشكايته إلى خلقه.

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طرقه، ثم فتحه له فما عَرَّجَ عليه ولا ولَجَه. أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامته، فعصى الرسول، وقال: لا أبيع ناجزاً بغائب، ونقدا بنسيئة. ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به، ويقول:

خذ ما رأيت، ودع شـيئًا سمعت به   فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَلِ

فإن وافق حظه طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه، لا لرضى مرسله. لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه، حتى أعرض عنه، وأغلق الباب فى وجهه.

ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته. بل قال: متى جئتنى قبلتك. إن أتيتنى ليلاً قبلتك. وإن أتيتنى نهاراً قبلتك. وإن تقربت منى شبراً تقربت منك ذراعًا. وإن تقربت منى ذراعًا تقربت منك باعًا. وإن مشيت إلى هرولت إليك، ولو لقيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك به شيئًا، أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتنى غفرت لك(١). ومن أعظم منى جوداً وكرمًا؟

عبادى يبارزوننى بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فُرُشهم، إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيرى، وأرزق ويشكر سواى. خيرىَ إلى العباد نازل. وشرهم إلى صاعد. أتحبب إليهم بنعمى- وأنا الغنى عنهم- ويتبغضون إلى بالمعاصى- وهم أفقر شىء إلى.

من أقبل إلى تلقيته من بعيد. ومن أعرض عنى ناديته من قريب. ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد. ومن أراد رضاى أردت ما يريد. ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد.

أهل ذكرى أهل مجالستى. وأهل شكرى أهل زيادتى. وأهل طاعتى أهل كرامتى. وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم. فإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلى فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب.

من آثرنى على سواى آثرته على سواه. الحسنة عندى بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. والسيئة عندى بواحدة. فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل، وأغفر الكثير من الزلل، رحمتى سبقت غضبى، وحلمى سبق مؤاخذتى، وعفوى سبق عقوبتى، أنا أرحم بعبادى من الوالدة بولدها «لله أشد فرحًا بتوبة

(١) انظر البخارى(جـ١٣/ ٧٤٠٥)، ومسلمًا (جـ٤- ذكر/ ٢، ٣، ٢٠-٢٢).

عبده من رجل أضل راحلته بأرض مَهْلَكَة دَوِّيَّة عليها طعامه وشرابه. فطلبها حتى إذا أيس من حصولها نام فى أصل شجرة ينتظر المَوت، فاستيقظ فإذا هى على رأسه، قد تعلق خطامها بالشجرة، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته»[١].

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها. وكذلك موالاته لعبده إحسانًا إليه، ومحبة له وبرًا به، لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به من ذلة، ولا ينتصر به من غلبة. ولا يعده لنائبة. ولا يستعين به فى أمر ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾ [الإسراء: ١١١] فنفى أن يكون له ولى من الذل. والله ولى الذين آمنوا، وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد، وهم يقيمون أعذار أنفسهم. ويُحَمِّلُون ذنوبهم على أقداره.

استأثر الله بالمحامد والمجـــــد ووَلَّى الملامةَ الرَّجُـــلا

وما أحسن قول القائل:

تطوى المراحل عن حبيبك دائبًا وتظل تبكيه بدمع ســاجم
كذبتك نفسك، لست من أحبابه تشكو البعاد. وأنت عين الظالم

المعنى الثانى لأعذار الخليقة

فهذا أحد المعنيين فى قوله: «إن من حقائق التوبة: طلب أعذار الخليقة».

وقد ظهر لك بهذا: أن طلب أعذارهم فى الجناية عائد على التوبة بالنقض والإبطال.

المعنى الثانى: أن يكون مراده: إقامة أعذارهم فى إساءتهم إليك، وجنايتهم عليك، والنظر فى ذلك إلى الأقدار. وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار، فتعذرهم بالقدر فى حقك، لا فى حق ربك. فهذا حق. وهو من شأن سادات العارفين، وخواص أولياء الله الكمل، يفنى أحدهم عن حقه. ويستوفى حق ربه. ينظر فى التفريط فى حقه، وفى الجناية عليه إلى القدر، وينظر فى حق الله إلى الأمر، فيطلب لهم العذر فى حقه، ويمحو عنهم العذر ويطلبه فى حق الله.

---

(١) انظر صحيح البخارى (جـ١١/ ٦٣٠٨)، وصحيح مسلم (جـ٤- توبة/ ٣- ٨).

هذه كانت حال نبينا ﷺ، كما قالت عائشة- رضى الله عنها- : «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، ولا نيل منه شىء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله. فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شىء، حتى ينتقم لله»(١).

وقالت عائشة- رضى الله عنها- أيضًا: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما، ولا دابة، ولا شيئًا قط، إلا أن يجاهد فى سبيل الله»(٢).

وقال أنس- رضى الله عنه- : «خدمت النبى ﷺ عشر سنين، فما قال لى لشىء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشىء لم أصنعه: لِمَ لَمْ تصنعه؟ وكان إذا عاتبنى بعض أهله يقول: دعوه. فلو قُضِىَ شَىءْ لكان»(٣).

فانظر إلى نظره إلى القدر عند حقه، وقيامه بالأمر، وقطع يد المرأة عند حق الله، ولم يقل هناك: القدر حكم عليها.

وكذلك عزمه على تحريق المتخلفين عن الصلاة معه فى الجماعة(٤)، ولم يقل: لو قضى لهم الصلاة لكانت.

وكذلك رجمه المرأة والرجل لما زنيا، ولم يحتج فى ذلك لهما بالقدر.

وكذلك فعله فى العُرَنِيِّين الذين قتلوا راعيه، واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. ولم يقل: قدر عليهم، بل أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمرت أعينهم، وتركوا فى الحرة يستسقون فلا يُسْقَون، حتى ماتوا عطشًا(٥). إلى غير ذلك مما يطول بسطه.

وكان رسول الله ﷺ أعرف بالله وبحقه من أن يحتج بالقدر على ترك أمره. ويقبل الاحتجاج به من أحد. ومع هذا فعذر أنسًا بالقدر فى حقه. وقال لو قضى شىء لكان فصلوات الله وسلامه عليه.

فهذا المعنى الثانى - وإن كان حقًا- لكن ليس هو من شرائط التوبة، ولا من أركانها. ولا له تعلق بها، فإنه لو لم يقم أعذارهم فى إساءتهم إليه لما نقص ذلك شيئًا من توبته، فما أراد إلا المعنى الأول، وقد عرفت ما فيه.

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (جـ٦/ ٢٥٩)، (جـ٨/ ١٤٦، ١٤٩).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ٤- فضائل/ ٧٩)، وأحمد (جـ٦ ص٢٣٢، ٢٨١) من حديث عائشة.

(٣) أخرج البخارى بعضه (جـ١٠/ ٦٠٣٨)، وأخرجه أحمد (جـ٣ ص٢٣١) عن أنس بن مالك.

(٤) انظر البخارى (جـ٥/ ٢٤٢٠)، و «سنن أبى داود» (جـ١/ ٥٤٨).

(٥) القصة فى الصحيحين: البخارى (جـ٧/ ٤١٩٢)، ومسلم (جـ٣- قسامة/ ١٠، ١١).

ولا ريب أن صاحب المنازل إنما أراد أن يعذرهم بالقدر، ويقيم عليهم حكم الأمر. فينظر بعين القدر ويعذرهم بها. وينظر بعين الأمر ويحملهم عليها بموجبها. فلا يحجبه مطالعة الأمر عن القدر، ولا ملاحظة القدر عن الأمر.

فهذا -وإن كان حقًا لابد منه- فلا وجه لعذرهم. وليس عذرهم من التوبة فى شيء ألبتة. ولو كان صحيحًا -فضلاً عن كونه باطلاً- فلا هم معذورون، ولا طلب عذرهم من حقائق التوبة. بل التحقيق: أن الغيرة لله، والغضب له، من حقائق التوبة. فتعطيل عذر الخليقة فى مخالفة الأمر والنهى، وشدة الغضب: هو من علامات تعظيم الحرمة. وذلك بأن يكون من حقائق التوبة أولى من عذر مخالفة الأمر والنهى.

ولا سيما أنه يدخل فى هذا: عذر عُبَّاد الأصنام والأوثان، وَقَتَلَة الأنبياء. وفرعون وهامان، ونمروذ بن كنعان، وأبو جهل وأصحابه، وإبليس وجنوده، وكل كافر وظالم، ومتعد حدود الله، ومنتهك محارم الله. فإنهم كلهم تحت القدر. وهم من الخليقة. أفيكون عذر هؤلاء من حقيقة التوبة؟

فهذا مما أوجبه السير فى طريق الفناء فى توحيد الربوبية. وجعله الغاية التى يشمر إليها السالكون.

ثم أى موافقة للمحبوب فى عذر من لا يعذره هو؟ بل قد اشتد غضبه عليه، وأبعده عن قربه، وطرده عن بابه، ومقته أشد المقت؟ فإذا عذرته، فهل يكون عذره إلا تعرضًا لسخط المحبوب، وسقوطًا من عينه؟.

ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام إهدار محاسنه، وإساءة الظن به. فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم فى طريق السلوك المحل الذى لا يجهل. وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم- صلوات الله وسلامه عليه- والكامل من عد خطؤه. ولا سيما فى مثل هذا المجال الضنك، والمعترك الصعب، الذى زلت فيه أقدام. وضلت فيه أفهام. وافترقت بالسالكين فيه الطرقات. وأشرفوا -إلا أقلهم- على أودية الهلكات.

وكيف لا ؟ وهو البحر الذى تجرى سفينة راكبه فى موج كالجبال، والمعترك الذى تضاءلت لشهوده شجاعة الأبطال، وتحيرت فيه عقول ألباء الرجال، ووصلت الخليقة إلى ساحله يبغون ركوبه.

فمنهم: من وقف مطرقًا دهشًا، لا يستطيع أن يملأ منه عينه، ولا ينقل عن موقفه قدمه.

قد امتلأ قلبه بعظمة ما شاهد منه، فقال: الوقوف على الساحل أسلم، وليس بلبيب من خاطر بنفسه.

ومنهم: من رجع على عقبيه، لما سمع هديره، وصوت أمواجه، ولم يطق نظراً إليه.

ومنهم: من رمى بنفسه فى لججه، تخفضه موجة، وترفعه أخرى.

فهؤلاء الثلاثة على خطر. إذ الواقف على الساحل عرضة لوصول الماء تحت قدميه. والهارب- ولو جد فى الهرب- فما له مصير إلا إليه. والمخاطر ناظر إلى الغرقى كل ساعة بعينيه. وما نجا من الخلق إلا الصنف الرابع. وهم الذين انتظروا موافاة سفينة الأمر. فلما قربت منهم ناداهم الربان: ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود: ٤١]، فهى سفينة نوح حقًا. وسفينة من بعده من الرسل. من ركبها نجا. ومن تخلف عنها غرق. فركبوا سفينة الأمر بالقدر، تجرى بهم فى تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف فى البحار. فلم يك إلا غفوة، حتى قيل لأرض الدنيا وسمائها: يا أرض ابلعى ماءك، ويا سماء أقلعى، وغيض الماء. وقضى الأمر. واستوت على جودى دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة -كقوم نوح- أغرقوا. ثم أحرقوا. ونودى عليهم على رؤوس العالمين ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [هود: ٤٤]، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ثم نودى بلسان الشرع والقدر، تحقيقًا لتوحيده، وإثباتًا لحجته، وهو أعدل العادلين ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) ﴾ [الأنعام:١٤٩]

ركوب سفينة القدر

وراكب هذا البحر فى سفينة الأمر، وظيفته: مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها بعضها ببعض، وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر. وهذا سير أرباب العزائم من العارفين. وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلانى: «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا. فانفتحت لى فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعًا للقدر، لا من يكون مستسلمًا مع القدر» ولا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم؟

والله تعالى أمر أن تدفع السيئة -وهى من قدره- بالحسنة -وهى من قدره- وكذلك الجوع من قدره، وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الجوع، مع

قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتى مات: مات عاصيًا. وكذلك البرد والحر والعطش. كلها من أقداره، وأمر بدفعها بأقدار تضادها، والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبى ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: يا رسول الله، أرأيت أدويةً نتداوى بها، ورقىً نسترقى بها، وتقىً نتقى بها. هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هى من قدر الله**»(١).

وفى الحديث الآخر: «**إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض**»(٢).

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله. أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر، وترك دفعه بقدر مثله. وهو الجهاد الذى يدفعون به قدر الله بقدره؟

وكذلك المعصية إذا قدرت عليك، وفعلتها بالقدر، فادفع موجبها بالتوبة النصوح، وهى من القدر.

دفع القدر بالقدر

ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذى قد انعقدت أسبابه -ولما يقع- بأسباب أخرى من القدر تقابله. فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله. ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثانى: دفع القدر الذى قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوى. ودفع قَدَر الذنب بقَدَر التوبة. ودفع قَدَر الإساءة بقَدَر الإحسان.

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة. فإنه عجز. والله تعالى يلوم على العجز. فإذا غلب العبد، وضاقت به الحيل. ولم يبق له مجال. فهنالك الاستسلام للقدر، والانطراح كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء. وهنا ينفع الفناء فى القدر، علمًا وحالاً وشهودًا. وأما فى حال القدرة، وحصول الأسباب، فالفناء النافع: أن يفنى عن الخلق بحكم الله، وعن هواه بأمر الله، وعن إرادته ومحبته بإرادة الله ومحبته، وعن حوله وقوته بحول الله وقوته وإعانته. فهذا الذى قام بحقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» علمًا وحالاً. وبالله المستعان.

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٠٦٥)، وابن ماجه (جـ٢/ ٣٤٣٧)، وأحمد (جـ٣/ ٤٢١) عن أبى خزامة عن أبيه. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسير سورة الرعد آية (٣٩).

أسرار حقيقة التوبة

قال صاحب المنازل: «وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تمييز التقية من العزة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة. لأن التائب داخل فى الجميع من قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١]، فأمر التائب بالتوبة».

تمييز التقية من العزة: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله. وهو خوفه وخشيته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه. فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله على نور من الله. يخاف عقاب الله. لا يريد بذلك عز الطاعة. فإن للطاعة وللتوبة عزًا ظاهرًا وباطنًا. فلا يكون مقصوده العزة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة. فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة. وفى بعض الآثار «أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء: قل لفلان الزاهد: أما زهدك فى الدنيا: فقد تَعَجَّلْتَ به الراحة. وأما انقطاعك إلى: فقد اكتسبت به العزة، ولكن ما عملت فيما لى عليك؟ قال: يا رب، وما لك على بعد هذا؟ قال: هل واليت فِىَّ وليًا، أو عاديت فِىَّ عدوًا؟»(١).

يعنى أن الراحة والعز حظك، وقد نلتهما بالزهد والعبادة، ولكن أين القيام بحقى، وهو الموالاة فى والمعاداة فى؟.

فالشأن فى التفريق فى الأوامر بين حظك وحق ربك علمًا وحالاً.

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم فى ذلك. ولا يميزه إلا أولو البصائر منهم. وهم فى الصادقين كالصادقين فى الناس.

وأما نسيان الجناية: فهذا موضع تفصيل. فقد اختلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم: من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحًا. فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل: ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا.

ومنهم: من رأى أن الأولى أن لا ينسى ذنبه. بل لا يزال جاعلاً له نصب عينيه يلاحظه كل وقت، فيحدث له ذلك انكسارًا وذلاً وخضوعًا، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته.

قالوا: ولهذا نقش داود الخطيئة فى كفه، وكان ينظر إليها ويبكى.

قالوا: ومتى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (جـ١٠ ص٣١٦) وهو حديث ضعيف.

ومعنى ذلك : أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت ، وأطرقت بين يدى الله عز وجل ، خاشعًا ذليلاً خائفًا ، وهذه طريق العبودية .

والصواب: التفصيل فى هذه المسألة . وهو أن يقال : إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيمًا من الدعوى ، ورقيقة من العُجْب ونسيان المنة ، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه ، فَذكْرُ الذنب أنفع له . وإن كان فى حال مشاهدته منة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه ، وفنائه به ، وعدم استغنائه عنه فى ذرة من ذراته ، وقد خالط قلبه حال المحبة ، والفرح بالله . والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه ، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات . فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب : أولى به وأنفع . فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك ، ونزل من علو إلى أسفل ، ومن حال إلى حال ، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض ، وهذا من حسد الشيطان له ، أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه فى ميادين المعرفة والمحبة ، والشوق : إلى وحشة الإساءة ، وحصر الجناية .

والأول يكون شهوده لجنايته منة من الله ، من بها عليه ، ليؤمنه بها من مقت الدعوى . وحجاب الكبر الخفى الذى لا يشعر به . فهذا لون وهذا لون .

وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة ، وبالله التوفيق . وهو المستعان .

وأما التوبة من التوبة : فهى من المجملات التى يراد بها حق وباطل ، ويكون مراد المتكلم بها حقًا . فيطلقه من غير تمييز .

فإن التوبة من أعظم الحسنات ، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات . بل هى كفر ، إن أخذت على ظاهرها ، ولا فرق بين التوبة من التوبة والتوبة من الإسلام والإيمان ، فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان؟ .

ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة . فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته . ولو خُلِّى ونفسه لم تسمح بها ألبتة . فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به . وغفل عن منة الله عليه : تاب من هذه الرؤية والغفلة . ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هى التوبة ، ولا جزءًا منها ، ولا شرطًا لها . بل هى جناية أخرى عرضت له بعد التوبة . فيتوب من هذه الجناية ، كما تاب من الجناية الأولى ، فما تاب إلا من ذنب ، أولاً وآخرًا . فكيف يقال : يتوب من التوبة؟ .

هذا كلام غير معقول ، ولا هو صحيح فى نفسه ، بل قد يكون فى التوبة علة ونقص ،

وآفة تمنع كمالها. وقد يشعر صاحبها بذلك، وقد لا يشعر به، فيتوب من نقصان التوبة، وعدم توفيتها حقها.

وهذا أيضًا ليس من التوبة. وإنما هو توبة من عدم التوبة. فإن القدر الموجود منها طاعة لا يتاب منها، والقدر المفقود: هو الذى يحتاج أن يتوب منه.

فالتوبة من التوبة إنما تعقل على أحد هذين الوجهين.

نعم. ههنا وجه ثالث لطيف جدًا. وهو أن من حصل له مقام أنس بالله، وصفا وقته مع الله. بحيث يكون إقباله على الله، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له. حتى نزل عن هذه الحالة، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها. وطالع الجناية واشتغل بها عن الله. فهذا نقص ينبغى له أن يتوب إلى الله منه. وهو توبة من هذه التوبة. لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء[1]. والله أعلم.

لطائف أسرار التوبة

قال صاحب المنازل: «ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء:

أولها: أن ينظر الجناية والقضية. فيعرف مراد الله فيها. إذ خلاك وإتيانها. فإن الله عز وجل إنما خلى العبد والذنب لأجل معنيين:

أحدهما: أن يعرف عزته فى قضائه، وبره فى ستره، وحلمه فى إمهال راكبه، وكرمه فى قبول العذر منه، وفضله فى مغفرته.

الثاني: أن يقيم على عبده حجة عدله. فيعاقبه على ذنبه بحجته».

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور:

أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه. فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة، والإقرار على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيحدث له ذلك خوفًا وخشية، تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها. فيحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء،

---

(١) فكيف بأعلم الخلق بالله وأكثرهم خشية له وأقربهم إليه منزلة وهو يستغفر فى اليوم والليلة سبعين مرة؟!!

لا تحصل بدون لوازمها ألبتة. ويعلم ارتباط الخلق والأمر، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها فى الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه، متعلق به لابد منه.

وهذا المشهد يطلعه على رياض مونقة من المعارف والإيمان، وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

فمن بعضها: ما ذكره الشيخ «أن يعرف العبد عزته فى قضائه» وهو أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قَلَّب قلبه وصرَّفَ إرادته على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه. وجعله مريداً شائيًا لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة. إذ لا يقدر على ذلك إلا الله. وغاية المخلوق: أن يتصرف فى بدنك وظاهرك. وأما جعلك مريداً شائيًا لما يشاؤه منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته فى قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره. لا عصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعونته. فهو ذليل حقير، فى قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضًا فى قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة. كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه. وكذلك بالعكس. فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

ومنها: أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هى معصية. فإذا شهد جريان الحكم، وجعله فاعلاً لما هو غير مختار له، مريد بإرادته ومشيئته واختياره. فكأنه مختار غير مختار، مريد غير مريد، شاء غير شاء. فهذا يشهد عزة الله وعظمته، وكمال قدرته.

ومنها: أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه. وهذا من كمال بره. ومن أسمائه «البر» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة. فيبقى مع الله سبحانه. وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته. وشهود ذل معصيته. فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقًا، بل فى هذه الحال. فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة، وذكر الجناية. ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

ومنها: شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة. ولو شاء لعاجله بالعقوبة. ولكنه الحليم الذى لا يَعْجَلُ. فيُحْدثُ له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه «الحليم» ومشاهدة صفة الحلم والتعبد بهذا الاسم. والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب: أحب إلى الله، وأصلح للعبد، وأنفع من فوتها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار. لا بالقدر. فإنه مخاصمة ومحاجة، كما تقدم. فيقبل عذره بكرمه وجوده. فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك. فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك. فعبودية التوبة بعد الذنب لون. وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله فى مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله. وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلاً محمودًا. وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك. فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبدًا بمقتضاها. وذلك أكمل فى العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه. فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية. ولو قدرت لقالت كقول فرعون. ولكنه قَدَرَ فأظهر. وغيره عَجَزَ فأضمر. وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية. وهو أربع مراتب.

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق. وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله. فأهل السموات والأرض جميعًا محتاجون إليه، فقراء إليه. وهو وحده الغنى عنهم. وكل أهل السموات والأرض يسألونه. وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة، والعبودية. وهو ذل الاختيار. وهذا خاص بأهل طاعته. وهو سر العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة. فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب، كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب. فليس في ... حكم الهوى أنف يشال ويعقد

وقال آخر:

مساكين أهل الحب، حتى قبورهم ... عليها تراب الذل بين المقابر[(١)]

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع: كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم. إذ يذل له خوفًا وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة، وفقرًا وفاقة.

وحقيقة ذلك: هو الفقر الذى يشير إليه القوم. وهذا المعنى أجلُّ من أن يسمى بالفقر. بل هو لب العبودية وسرها. وحصوله أنفع شيء للعبد، وأحب شيء إلى الله.

فلابد من تقدير لوازمه: من أسباب الضعف، والحاجة، وأسباب العبودية والطاعة، وأسباب المحبة والإنابة، وأسباب المعصية والمخالفة، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، والغاية من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه، مصلحة وجوده خير من مصلحة فوته. ومفسدة فوته أكبر من مفسدة وجوده. والحكمة مبناها على دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما. وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما. وقد فتح لك الباب. فإن كنت من أهل المعرفة فادخل، وإلا فرد الباب وارجع بسلام.

ومنهـا: أن أسماءه الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها. فاسم «السميع، البصير» يقتضى مسموعًا ومُبْصرًا. واسم «الرزاق» يقتضى مرزوقًا. واسم «الرحيم» يقتضى مرحومًا. وكذلك أسماء «الغفور، والعَفُوُّ، والتواب، والحليم» يقتضى من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم. ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هى أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلابد من ظهور آثارها فى العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله- صلوات الله وسلامه عليه- حيث يقول: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم**» (٢).

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدومًا، فمن يَرْزُقُ الرزاقُ- سبحانه؟ وإذا فرضت

(١) فى هامش المطبوعة: فى هامش الأصل:

أذلُّ لمن أهوى لأكسب عزة ... وكم عزة قد نالها المرء بالذلِّ

إذا كان من تهوى عزيزًا ولم تكن ... ذليلاً ل فاقرى السلام على الوصل

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم (جـ٤ توبة/ ٩-١١)، والترمذى (جـ٤/ ٢٥٢٦)، وأحمد (جـ٢ ص٣٠٥).

المعصية والخطيئة منتفية من العالم. فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سُدَّت، والعبيد أغنياء معافون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات. ودلهم عليه بأنواع الدلالات. وفتح لهم إليه جميع الطرقات. ثم نصب إليه الصراط المستقيم. وعرفهم به ودلهم عليه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾ [الأنفال: ٤٢]

فرح الله بتوبة التائب

ومنها: السر الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادى عليه منادى الإيمان على رءوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد. فازدادت به معرفة لربها ومحبة له. وطمأنينة به وشوقًا إليه، ولهجًا بذكره. وشهودًا لبره، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافًا على حقيقة الإلهية. وهو مثبت فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لله أفرح بتوبة عبده - حين يتوب إليه- من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرةً فاضطجع فى ظلها. قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها. ثم قال -من شدة الفرح- اللهم أنت عبدى وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»**(١) هذا لفظ مسلم.

وفى الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذى يجرى على لسان العبد خطأ من فرح شديد، أو غيظ شديد، ونحوه. لا يؤاخذ به. ولهذا لم يكن هذا كافراً بقوله: **«أنت عبدى وأنا ربك»**(٢).

ومعلوم أن تأثير الغضب فى عدم القصد يصل إلى هذه الحال، أو أعظم منها. فلا ينبغى مؤاخذة الغضبان بما صدر منه فى حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام. ولا يقع طلاقه بذلك. ولا ردته. وقد نص الإمام أحمد على تفسير الإغلاق فى قوله ﷺ: **«لا طلاق فى إغلاق»** بأنه الغضب، وفسره به غير واحد من الأئمة، وفسروه بالإكراه والجنون.

قال شيخنا: وهو يعم هذا كله. وهو من الغلق. لانغلاق قصد المتكلم عليه، فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنى ما قاله.

---

(١) متفق عليه: من حديث ابن مسعود أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٣٠٨)، ومسلم (جـ٤- توبة: ٨٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود(جـ٢/ ٢١٩٣)، وابن ماجه (جـ / ٢٠٤٦) وهو حديث حسن.

والقصد: أن هذا الفرح له شأن لا ينبغى للعبد إهماله والإعراض عنه ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله.

وقد كان الأولى بنا طى الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بنى الزمان وعلومهم، ونهاية أقدامهم من المعرفة. وضعف عقولهم عن احتماله.

غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها، ومن هو عارف بقدرها. وإن وقعت فى الطريق بيد من ليس عارفًا بها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله. وشرفه. وخلقه لنفسه، وخلق كل شىء له. وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره. وسخر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته -الذين هم أهل قربه- استخدمهم له. وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته، وظعنه وإقامته. وأنزل إليه وعليه كتبه. وأرسله وأرسل إليه. وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره. ومحل حكمته. وموضع حبه. وخلق لهم الجنة والنار. فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنسانى. فإنه خلاصة الخلق. وهو المقصود بالأمر والنهى. وعليه الثواب والعقاب.

عناية الله بالإنسان

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات. وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه. وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شىء. وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات. وطرد إبليس عن قربه. وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين. واتخذه عدوًا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق. وخيرة الله من العالمين. فإنه خلقه ليتم نعمته عليه. وليتواتر إحسانه إليه. وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته. ولم يخطر على باله ولم يشعر به. ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التى لا تنال إلا بمحبته. ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره على ما سواه. فاتخذه محبوبًا له. وأعد له أفضل ما يعده محب غنى قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه. وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه. وأعلمه فى عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو، هو أبغض خلقه إليه. قد جاهره بالعداوة، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم الحق. واستقطع عباده، واتخذ منهم حزبًا ظاهروه ووالوه على ربهم. وكانوا أعداء له مع هذا العدو. يدعون إلى سخطه. ويطعنون فى ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه. ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى. ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم. ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه. فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومالهم. وحذره موالاتهم والدخول فى زمرتهم والكون معهم.

وأخبره فى عهده: أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين. وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته. وأنه قد أفاض على خلقه النعمة. وكتب على نفسه الرحمة. وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر. وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له. وأحب ما إليه: أن يجود على عباده ويوسعهم فضلاً. ويغمرهم إحسانًا وجودًا. ويتم عليهم نعمته. ويضاعف لديهم منته. ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته. وجُودُ كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبدًا: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو. وجود كل جواد فمن جوده. ومحبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور فى أوهامهم. وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطَى؟ ففرح المعطى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى. إذ هذا شأنَ الجواد من الخلق. فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده، فوق ما يحصل لمن يعطيه. ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطى، وابتهاجه وسروره. هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا فى صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحى لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته. فجوده

العالى من لوازم ذاته. والعفو أحب إليه من الانتقام. والرحمة أحب إليه من العقوبة. والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذى خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه. وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله. ولم يتركه سدى. فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه. ووالى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه. وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التى هى أحب شىء إليه. وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه. وأن يصير غضبه وسخطه فى موضع رضاه. وانتقامه وعقوبته فى موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقًا شاردًا، رادًا لكرامته، مائلاً عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو فى طاعته وخدمته، ناسيًا لسيده، منهمكًا فى موافقة عدوه. قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله: إذ عرضت له فكرة فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه. وعلم أنه لابد له منه، وأن مصيره إليه، وعرضه عليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قُدمَ به عليه على أسوأ الأحوال. ففر إلى سيده من بلد عدوه، وجَدّ فى الهرب إليه حتى وصَل إلى بابه. فوضع خده على عتبة بابه، وتوسد ثرى أعتابه، متذللاً متضرعًا، خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه. قد ألقى بيده إليه، واستسلم له وأعطاه قياده، وألقى إليه زمامه، فعلم سيده ما فى قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلمًا، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى، وصفاته العليا. فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعًا واختيارًا، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود، التى هى أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه حصل له شرود وإباق من سيده، فرأى فى بعض السكك بابًا قد فتح. وخرج منه صبى يستغيث ويبكى، وأمه خلفه تطرده، حتى خرج، فأغلقت الباب فى وجهه ودخلت؛ فذهب الصبى غير بعيد، ثم وقف

مفكرًا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذى أخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد الباب مرتجًا، فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكى، وتقول: يا ولدى، أين تذهب عنى؟ ومن يؤويك سواى؟ ألم أقل لك: لا تخالفنى، ولا تحملنى بمعصيتك لى على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتى الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: «لا تحملنى بمعصيتك لى على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة».

وتأمل قوله ﷺ: **«لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»**[(١)] وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التى وسعت كل شىء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته فى الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتدق عن إدراكه الأذهان.

وإياك وطريقة التعطيل والتمثيل. فإن كلاً منهما منزل ذميم، ومرتع على علاته وخيم. ولا يحل لأحدهما أن يجد روائح هذا الأمر ونفسه. لأن زكام التعطيل والتمثيل مفسد لحاسة الشم، كما هو مفسد لحاسة الذوق. فلا يذوق طعم الإيمان، ولا يجد ريحه. والمحروم كل المحروم من عرض عليه الغنى والخير فلم يقبله. فلا مانع لما أعطى الله. ولا معطى لما منع. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

مثل فرح الرب بتوبة العبد

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهى بالإحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبودًا: فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه. وإنما يشهده خواص المحبين.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (جـ١٠/ ٥٩٩٠)، ومسلم (جـ٤/ توبة: ٢٢) وانظر «سنن أبى داود» (جـ٣/ ٣٠٨٩) و«سنن ابن ماجه» (جـ٢/ ٤٢٩٧).

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته. وهذا هو الحق الذى خلقت به السموات والأرض. وهو غاية الخلق والأمر.. ونفيه -كما يقول أعداؤه- هو الباطل، والعبث الذى نزه الله نفسه عنه، وهو السدى الذى نزه نفسه عنه: أن يترك الإنسان عليه. وهو سبحانه يحب أن يُعْبَدَ ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئًا لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثًا وباطلاً وسدىً. وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين، والإله الحق. فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية. فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خلق عبثًا لغير شىء، إذ لم تخرج أرضه البذر الذى وضع فيها. بل قلبته شوكًا ودغلاً. فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره. ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها. وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل. فاشتدت محبة الرب له. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يقدر من الفرح. ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى ﷺ لَذَكَرَهُ، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه فى سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده. وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشىء وغاب عنه. ثم وجده وصار طوع يده. فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًا شديدًا، أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، ويعرضه لأنواع الهلاك. وأنت أولى به منه، وهو غرسك وتربيتك. ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك. فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟

هذا. ولست الذى أوجدته وخلقته. وأسبغت عليه نعمك، والله عز وجل هو الذى أوجد عبده. وخلقه وكونه، وأسبغ عليه نعمه. وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهرًا لنعمه، قابلاً لها، شاكرًا لها، محبًا لوليها، مطيعًا له عابدًا له، معاديًا لعدوه، مبغضًا له عاصيًا له. والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يحب أن يوالى الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده. فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه، ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه، مع حصول محبوبه. وهذا هو حقيقة الفرح.

وفى صفة النبى ﷺ فى بعض الكتب المتقدمة: «عبدى الذى سرت به نفسى» وهذا لكمال محبته له. جعله مما تسر نفسه به سبحانه.

ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده، حين يأتى من عبوديته بأعظم ما يحبه، فيضحك سبحانه فرحًا ورضا. كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه[1] ومضاجعة حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو فأقبل إليهم. وباع نفسه لله ولقاهم نحره، حتى قتل فى محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرًا، حيث لا يراه إلا الله الذى أعطاه. فهذا الضحك منه حبًا له، وفرحًا به. وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة. فيضحك إليه فرحًا به وبقدومه عليه.

فلبس فى إثبات هذه الصفات محذور ألبتة. فإنه «فرح» ليس كمثله شىء، و«ضحك» ليس كمثله شىء، وحكمه حكم رضاه ومحبته، وإرادته وسائر صفاته، فالباب باب واحد، لا تمثيل ولا تعطيل.

وليس ما يلزم به المعطل المثبت إلا ظلم محض، وتناقض وتلاعب. فإن هذا لو كان لازمًا للزم رحمته وإرادته ومشيئته وسمعه وبصره، وعلمه وسائر صفاته. فكيف جاء هذا اللزوم لهذه الصفة دون الأخرى؟ وهل يجد ذو عقل إلى الفرق سبيلاً؟ فما ثَمَّ إلا التعطيل المحض المطلق، أو الإثبات المطلق لكل ما ورد به النص، والتناقض لا يرضاه المحصلون.

إقامة الحجة على العبد بتبليغه الرسالة

قوله: «الثانى: أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجته».

اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أم جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه. فَقَصَّرَ عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، فإذا

---

(١) هو معنى حديث صحيح انظر «المسند» (جـ١ ص٤١٦).

عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود: ١١٧].

وفى الآية قولان. أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثانى: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم. وهم مصلحون الآن. أى إنهم بعد أن أصلحوا. وتابوا: لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثانى: إنه لم يكن ظالمًا لهم فى إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل فى إهلاكهم. والقولان فى آية الأنعام أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ [الأنعام: ١٣١].

قيل: لم يكن مهلكهم بظلمهم، وشركهم وهم غافلون. لم يُنْذَرُوا ولم يأتهم رسول.

وقيل: لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول. فيكون قد ظلمهم. فإنه سبحانه لا يأخذ أحدًا ولا يعاقبه إلا بذنبه، وإنما يكون مذنبًا إذا خالف أمره ونهيه، وذلك إنما يُعْلَمُ بالرسل.

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب، علم أن الله سبحانه قدره سببًا مقتضيًا لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة سببًا مقتضيًا للثواب. وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر. كجعل السم سببًا للموت، والنار سببًا للإحراق. والماء سببًا للإغراق.

فإذا أقدم العبد على سبب الهلاك -وقد عرف أنه سبب الهلاك- فهلك فالحجة مركبة عليه، والمؤاخذة لازمة له، كالحريق مثلاً. والذنب، كالنار، وإتيانه له، كتقديمه نفسه للنار، وملاحظة الحكم فيما لا يجدى عليه شيئًا، فإنما الذى يشهده عند قيام الحجة عليه: ملاحظة الأمر، لا ملاحظة القدر.

فجعل صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبين، بل هو من ملاحظة الجناية والأمر. لكن مراده: أن سر التقدير: أنه قد علم أن هذا العبد لا يصلح إلا للوقود، كالشوك الذى لا يصلح إلا للنار. والشجرة تشتمل على الثمر والشوك. فاقتضى عدله سبحانه أن يسوق هذا العبد إلى مالا يصلح إلا له، وأن يقيم عليه حجة عدله.

فإن قدر عليه الذنب فواقعه. فاستحق ما خلق له. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)** ﴾ [يس].

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حى قابل للانتفاع. يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به. لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير ألبتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان. بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءنى رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)** ﴾ [يونس: ٣٣]. وحق عليه العذاب. كقوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)** ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التى حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)** ﴾ [الزمر: ٧١]، وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الدينى منهم. لا مع مراد أنفسهم. فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم. فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده. وعلم سبحانه منهم: أنهم لا يؤثرون مراده ألبتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم، فأمرهم ونهاهم، فظهر بأمره ونهيه من القدر الذى قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله. فعاقبهم بظلمهم.

النفس الأمارة بالسوء

قد ذكرنا أن العبد فى الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهى.

ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها. وهو النفس الأمارة بالسوء، ويفيده نظره إليها أموراً.

منها: أن يعرف أنها جاهلة ظالمة. وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل

قبيح . ومن وَصْفُهُ الجهل والظلم لا مطمع فى استقامته واعتداله ألبتة ، فيوجب له ذلك بذل الجهد فى العلم النافع الذى يخرجها به عن وصف الجهل ، والعمل الصالح الذى يخرجها به عن وصف الظلم ، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها .

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها ، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها ، فهو خير من زكاها ، فإنه ربها ومولاها ، وأن لا يكله إليها طرفة عين ، فإنه إن وكله إليها هلك ، فما هلك من هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفسه . وقال النبى ﷺ لحصين بن المنذر قل : «اللهم ألهمنى رشدى. وقنى شر نفسى»[١] وفى خطبة الحاجة : «الحمد لله . نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا»[٢] وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (١٦) ﴾[التغابن: ١٦] ، وقال : ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾[يوسف: ٥٣] .

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه : علم أنها منبع كل شر ، ومأوى كل سوء ، وأن كل خير فيها ففضل من اللهَ مَنَّ به عليها . لم يكن منها . كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾[النور: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** (٧) ﴾ [الحجرات: ٧] ، فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا فى النفس ولا بها . ولكن هو الله الذى من بهما ، فجعل العبد بسببهما من الراشدين : ﴿ **فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٨) ﴾ [الحجرات:٨] ، عليم بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه ، ويثمر عنده ، حكيم فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه فى غير موضعه .

ومنها : ما ذكره صاحب المنازل فقال :

اللطيفة الثانية : أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يبق له حسنة بحال ، لأنه يسير بين مشاهدة المنة ، وتطلب عيب النفس والعمل .

يريد : أن من له بصيرة بنفسه ، وبصيرة بحقوق الله ، وهو صادق فى طلبه : لم يبق له

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ٥/ ٣٤٨٣)، وأحمد (جـ٤ ص٤٤٤) عن عمران بن حصين . وأشار الترمذى إلى ضعفه بقوله : غريب .

(٢) جمع الشيخ الألبانى طرق خطبة الحاجة عن ستة من الصحابة وأثبت مشروعيتها فى افتتاح خطبة النكاح أو خطبة الجمعة أو غير ذلك فى رسالة صغيرة له بعنوان «خطبة الحاجة» .

نظره فى سيئاته حسنة ألبتة. فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض، والفقر الصرف. لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح الله، وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله. فضلا عن الفوز بعظيم ثواب الله. فإن خلص له عمل وحال مع الله. وصفا له معه وقت شاهد منة الله عليه به، ومجرد فضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هى أهل لذلك. فهو دائمًا مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله. لأنه متى تطلبها رآها.

وهذا من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى، فاغفر لى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(١).

فتضمن هذا الاستغفار: الاعتراف من العبد بربوبية الله، وإلهيته وتوحيده. والاعتراف بأنه خالقه، العالم به. إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه. والاعتراف بأنه عبده الذى ناصيته بيده وفى قبضته. لا مهرب له منه. ولا ولى له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده -وهو أمره ونهيه- الذى عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتى، لا بحسب أداء حقك. فإنه غير مقدور للبشر. وإنما هو جهد المقل، وقدر الطاقة. ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذى وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب. فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك. ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك. فإنك إن لم تُعذْنى من شره، وإلا أحاطت بى الهلكة. فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقر لك وألتزمَ بنعمتك على. وأقر وألتزم وأبخع بذنبى. فمنك النعمة والإحسان والفضل. ومنى الذنب والإساءة، فأسألك أن تغفر لى بمحو ذنبى، وأن تعفينى من شره، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار. وهو متضمن لمحض العبودية، فأى حسنة تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عليه؟ فهذا الذى يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه.

* *

---

(١) حديث سيد الاستغفار: أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٣٢٣)، وأبو داود (جـ٤/ ٥٠٧٠)، وابن ماجه (جـ٢/ ٣٨٧٢)، وأحمد (جـ٤ ص١٢٢).

تدرج الشيطان فى الإغواء

النظر الرابع: نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزين له فعلها، الحاض له عليها، وهو شيطانه الموكل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظته: اتخاذه عدواً، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة. والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به فى عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به فى هذا العقبة بردت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهى عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذى أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدثة فى الدين، التى لا يقبل الله منها شيئًا. والبدعتان فى الغالب متلازمتان. قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى. كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال. فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيشون فى بلاد الإسلام، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة. فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبغوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة: وهى عقبة الكبائر. فإن ظفر به فيها زَيَّنَها له، وحَسَّنَها فى عينه. وسَوَّفَ به. وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق. فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهى قوله: «لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به فى عقبة البدعة أحب إليه.

لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفى ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق، بجعل الحق باطلاً، والباطل حقًا، والإلحاد فى دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين. كما تنسل الشعرة من العجين. فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون فى ظلمة العمى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

فَإِنْ قَطعَ هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على العقبة الرابعةَ.

العقبة الرابعة: وهى عقبة الصغائر. فكال له منها بالقفزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات. ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها. فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه. فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار. ولا صغيرة مع الإصرار. وقد قال ﷺ: **«إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوب -ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يَجىء بعود، وهذا بعود، حتى جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوا نارًا، وأنضجوا خبزتهم، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد- وهو يستهين بشأنها- حتى تهلكه»** (١).

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة طلبه على:

العقبة الخامسة: وهى عقبة المباحات التى لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن

---

(١) أخرجه أحمد(جـ٥ ص٣٣١) عن سهل بن سعد يرفعه. وحسنه الحافظ ابن حجر فى «الفتح» فى شرح الحديث (٦٤٩٢) وعزاه أيضًا لأحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود، وللنسائى وابن ماجه عن عائشة بنحوه مختصرًا. وقال الحافظ: وصححه ابن حبان.

الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشترى، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وضن بأنفاسه أن تذهب فى غير ربح. طلبه العدو على العقبة السادسة.

العقبة السادسة: وهى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها فى عينه. وزينها له. وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا. لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع فى تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية. فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمَرْضِىِّ عن الأرْضَى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد فى العالم، والأكثرون قد ظفر بهم فى العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه فى الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها فى الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرءوسها، وسيدها ومسودها. فإن فى الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذروة وما دونها، كما فى الحديث الصحيح: «**سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت**»[(١)] الحديث، وفى الحديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام الأمر**»[(٢)] وفى الأثر الآخر: «إن الأعمال تفاخرت. فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية فى الفخر عليهن» ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذى حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه، وهى عقبة تسليط جنده عليه بأنواع

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذى (جـ٥/ ٢٦١٦)، وابن ماجه (جـ٢ / ٣٩٧٣)، وأحمد (جـ٥ ص٢٣١)، والنسائى فى «السنن الكبرى» فى التفسير من حديث معاذ بن جبل فى حديث مطوَّل وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته فى الخير. فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده. وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له فى التخلص منها. فإنه كلما جد فى الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو فى إغراء السفهاء به، فهو فى هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب. وأخذ فى محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهى تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شىء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية فى مواضع من كتابه.

أحدها: قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠]، سمى المهاجر الذى يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته. كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾ [التوبة ١٢٠]، وقال تعالى فى مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبى ﷺ للمصلى إذا سها فى صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان**»(١) وفى رواية: «**ترغيمًا للشيطان**» وسماها المرغمتين.

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله. لما فى ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله- عز وجل.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس. ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) أخرجه مسلم فى «صحيحه» (جـ١/ مساجد/ ٨٨) والنسائى (جـ٣ ص٢٧)، وأحمد (جـ٣ ص٧٢) عن أبى سعيد الخدرى، وانظر «سنن أبى داود» (جـ١/ ١٠٢٥، ١٠٢٦).

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه فى الذنب، راغمه بالتوبة النصوح. فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهزئ بها. فلعلك لا تظفر بها فى مصنف آخر ألبتة. ولله الحمد والمنة. وبه التوفيق.

قال صاحب المنازل: «اللطيفة الثالثة: أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة، لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم».

هذا الكلام -إن أخذ على ظاهره- فهو من أبطل الباطل، الذى لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين، لنسب إلى لازم هذا الكلام. ولكن من عدا المعصوم -ﷺ- فمأخوذ من قوله ومتروك. ومن ذا الذى لم تزل به القدم. ولم يكْبُ به الجواد؟.

ومعنى هذا: أن العبد ما دام فى مقام التفرقة، فإنه يستحسن بعض الأفعال. ويستقبح بعضها، نظرًا إلى ذواتها وما افترقت فيه. فإذا تجاوزها نظر إلى مصدرها الأول، وصدورها عن عين الحكم، واجتماعها كلها فى تلك العين، وانسحاب ذيل المشيئة عليها، ووحدة المصدر. وهو المشيئة الشاملة العامة الموجبة. فهى بالنسبة إلى مصدر الحكم، وعين المشيئة: لا توصف بحسن ولا بقبح. إذ الحسن والقبح إنما عرضا لها عند قيامها بالكون، وجريانها عليه. فهى بمنزلة نور الشمس واحد فى نفسه غير متلون، ولا يوصف بحمرة ولا صفرة ولا خضرة، فإذا اتصل بالمحال المتلونة وصف حينئذ بحسب تلك المحال. لإضافته إليها، واتصاله بها، فيرى أحمر وأصفر وأخضر، وهو برىء من ذلك كله، إذا صعد من تلك المحال إلى مصدره الأول، المجرد عن القوابل. فهذا أحسن ما يحمل عليه كلامه.

على أن له محملا آخر مبنيًا على أصول فاسدة. وهى أن إرادة الرب تعالى هى عين محبته ورضاه. فكل ما شاءه فقد أحبه ورضيه. وكل ما لم يشأه فهو مسخوط له مبغوض، فالمبغوض المسخوط هو ما لم يشأه. والمحبوب المرضى هو ما شاءه.

هذا أصل عقيدة القدرية الجبرية، المنكرين للحكم والتعليل والأسباب، وتحسين العقل وتقبيحه، وأن الأفعال كلها سواء، لا يختص بعضها بما صار حسنًا لأجله، وبعضها بما صار قبيحًا لأجله، ويجوز فى العقل أن يأمر بما نهى عنه، وينهى عما أمر به، ولا يكون ذلك مناقضًا للحكمة.

إذ الحكمة ترجع عندهم إلى مطابقة العلم الأزلى لمعلومه، والإرادة الأزلية لمرادها. والقدرة لمقدورها، فإذا الأفعال بالنسبة إلى المشيئة والإرادة مستوية، لا توصف بحسن ولا قبح. فإذا تعلق بها الأمر والنهى صارت حينئذ حسنة وقبيحة وليس حسنها وقبحها أمراً زائداً على كونها مأموراً بها ومنهيًا عنها. فعلى هذا إذا صعد العبد من تفرقة الأمر والنهى إلى جمع المشيئة والحكم، لم يستحسن حسنة، ولم يستقبح قبيحة، فإذا نزل فرق الأمر: صح له الاستحسان والاستقباح.

فهذا محمل ثان لكلامه.

وله محمل ثالث -هو أبعد الناس منه، ولكن قد حمل عليه- وهو أن السالك ما دام محجوبًا عن شهود الحقيقة بشهود الطاعة والمعصية. رأى الأفعال بعين الحسن والقبح. فرأى منها الطاعة والمعصية. فإذا ترقى إلى شهود الحقيقة الأولى. وهى الحقيقة الكونية. ورأى شمول الحكم الكونى للكائنات وإحاطته بها، وعدم خروج ذرة منها عنه، زال عنه استقباح شىء من الأفعال، وشهدها كلها طاعات للأقدار والمشيئة. وفى مثل هذا الحال يقول: إن كنت عصيت الأمر. فقد أطعت الإرادة. ويقول:

أصبحت منفعلاً لما تختاره ... منى، ففعلى كله طاعات

فإذا ترقى مرتبة أخرى، وزال عنه الفرق بين الرب والعبد -كما زال عنه فى المرتبة الثانية: الفرق بين المحبوب والمسخوط، والمأمور والمحظور- قال: ما ثم طاعة، ولا معصية. إذ الطاعة والمعصية إنما يكونان بين اثنين ضرورة، والمطيع عين المطاع. فما ههنا غير. فالوحدة المطلقة تنفى الطاعة والمعصية. فالصعود من وحدة الفعل إلى وحدة الوجود، يزيل عنه -بزعمه- توهم الانقسام إلى طاعة ومعصية، كما كان الصعود من تفرقة الأمر إلى وحدة الحكم، يزيل عنه ثبوت المعصية.

وهذا عند القوم من الأسرار التى لا يستجيزون كشفها إلا لخواصهم. وأهل الوصول منهم[1].

---

(١) فى هامش المطبوعة: «وجدنا فى هامش الأصل هنا ما نصه: بئست الأسرار هذه فهى عين الكفر والإلحاد تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرا، بل نشهد أن الله عز وجل بائن من خلقه، مستو على عرشه، ليس فى خلقه شىء من ذاته، ولا فى ذاته شىء من خلقه، وأنه يحب الطاعة وأهلها ويثيبهم عليها، ويكره المعاصى ويبغض أهلها ويعاقبهم عليها، أو يغفرها إن شاء، ويتوب على من تاب فاحذر هذه الطريقة فإنها طريقة الاتحادية القائلين بوحدة الوجود وأنه ما ثم رب وعبد. تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً».

لكن صاحب المنازل برىء من هؤلاء وطريقتهم. وهو مكفر لهم، بل مخرج لهم من جملة الأديان. ولكن ذكرنا ذلك، لأنهم يحملون كلامه عليه. ويظنونه منهم.

فاعلم أن هذا مقام عظيم. زلت فيه أقدام طائفتين من الناس: طائفة من أهل الكلام والنظر، وطائفة من أهل السلوك والإرادة.

فنفى لأجله كثير من النظار التحسين والتقبيح العقليين. وجعلوا الأفعال كلها سواء فى نفس الأمر، وأنها غير منقسمة فى ذواتها إلى حسن وقبيح. ولا يميز القبيح بصفة اقتضت قبحه، بحيث يكون منشأ القبح. وكذلك الحسن، فليس للفعل عندهم منشأ حسن ولا قبح، ولا مصلحة ولا مفسدة، ولا فرق بين السجود للشيطان، والسجود للرحمن فى نفس الأمر. ولا بين الصدق والكذب، ولا بين السفاح والنكاح. إلا أن الشارع حرم هذا وأوجب هذا. فمعنى حسنه: كونه مأموراً به، لا أنه منشأ مصلحة. ومعنى قبحه: كونه منهيًا عنه. لا أنه منشأ مفسدة، ولا فيه صفة اقتضت قبحه. ومعنى حسنه: أن الشارع أمر به. لا أنه منشأ مصلحة، ولا فيه صفة اقتضت حسنه.

بطلان نفى التحسين والتقبيح

وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجهًا فى كتابنا المسمى «تحفة النازلين بجوار رب العالمين» وأشبعنا الكلام فى هذه المسألة هناك، وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب، وبينا بطلانه.

فإن هذا المذهب -بعد تصوره، وتصور لوازمه- يجزم العقل ببطلانه؛ وقد دل القرآن على فساده فى غير موضع، والفطرة أيضًا وصريح العقل.

فإن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر. وفطرهم على استقباح أضدادها. ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلى مشامهم، وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم. وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة. فيفرقون بين طيبه وخبيثه، ونافعه وضاره.

وقد زعم بعض نفاة التحسين والتقبيح: أن هذا متفق عليه. وهو راجع إلى الملائمة والمنافرة، بحسب اقتضاء الطباع، وقبولها للشىء، وانتفاعها به، ونفرتها من ضده.

قالوا: وهذا ليس الكلام فيه. وإنما الكلام فى كون الفعل متعلقًا للذم والمدح عاجلاً،

والثواب والعقاب آجلاً. فهذا الذى نفيناه، وقلنا: إنه لا يعلم إلا بالشرع. وقال خصومنا: إنه معلوم بالعقل. والعقل مقتض له.

فيقال: هذا فرار من الزحف. إذ ههنا أمران متغايران لا تلازم بينهما.

أحدهما: هل الفعل نفسه مشتمل على صفة اقتضت حسنه وقبحه، بحيث ينشأ الحسن والقبح منه. فيكون منشأ لهما أم لا؟

والثانى: أن الثواب المرتب على حسن الفعل، والعقاب المرتب على قبحه، ثابت - بل واقع - بالعقل، أم لا يقع إلا بالشرع؟

ولما ذهب المعتزلة ومن وافقهم إلى تلازم الأصلين استطلتم عليهم. وتمكنتم من إبداء تناقضهم وفضائحهم. ولما نفيتم أنتم الأصلين جميعًا استطالوا عليكم. وأبدوا من فضائحكم وخلافكم لصريح العقل والفطرة ما أبدوه؛ وهم غلطوا فى تلازم الأصلين. وأنتم غلطتم فى نفى الأصلين.

والحق الذى لا يجد التناقض إليه السبيل: أنه لا تلازم بينهما، وأن الأفعال فى نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة. والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات. ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهى، وقبل ورود الأمر والنهى لا يكون قبيحًا موجبًا للعقاب مع قبحه فى نفسه. بل هو فى غاية القبح. والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل. فالسجود للشيطان والأوثان، والكذب والزنا، والظلم والفواحش. كلها قبيحة فى ذاتها. والعقاب عليها مشروط بالشرع.

فالنفاة يقولون: ليست فى ذاتها قبيحة. وقبحها والعقاب عليها إنما ينشأ بالشرع.

والمعتزلة تقول: قبحها والعقاب عليها ثابتان بالعقل.

وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون: قبحها ثابت بالعقل. والعقاب متوقف على ورود الشرع. وهو الذى ذكره سعد بن على الزنجانى من الشافعية، وأبو الخطاب من الحنابلة. وذكره الحنفية وحكوه عن أبى حنيفة نصًا. لكن المعتزلة منهم يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل.

وقد دل القرآن أنه لا تلازم بين الأمرين، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل. وأن الفعل نفسه حسن وقبيح، ونحن نبين دلالته على الأمرين.

أما الأول: ففى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء: ١٥]، وفى

قوله: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وفى قوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل، بل للنذر. وبذلك أدخلوا النار. وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وفى الزمر: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: ٧١]، ثم قال فى الأنعام بعدها: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٣١]، وعلى أحد القولين- وهو أن يكون المعنى: لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل- فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة. وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال. وتكون هذه الآية فى دلالتها على الأمرين نظير الآية التى فى القصص: ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام]، فهذا يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم، ولولا قبحه لم يكن سببًا. لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها. وهو عدم مجىء الرسول إليهم. فمذ جاء الرسول انعقد السبب، ووجد الشرط، فأصابهم سيئات ما عملوا، وعوقبوا بالأول والآخر.

الأدلة القرآنية بحسن الأفعال وقبحها

وأما الأصل الثانى -وهو دلالته على أن الفعل فى نفسه حسن وقبيح- فكثير جدًا. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٨- ٣٣]، فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه. وأمر باجتنابه بأخذ الزينة. و«الفاحشة» ههنا

هى طوافهم بالبيت عراة -الرجال والنساء- غير قريش ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى لا يأمر بما هو فاحشة فى العقول والفطر، ولو كان إنما علم كونه فاحشة بالنهى، وأنه لا معنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهى به، لصار معنى الكلام: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه. وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء، فضلاً عن كلام العزيز الحكيم. وأى فائدة فى قوله إن الله: «لا يأمر بما ينهى عنه»؟ فإنه ليس لمعنى كونه فاحشة عندهم إلا أنه منهى عنه، لا أن العقول تستفحشه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾والقسط عندهم: هو المأمور به. لا أنه قسط فى نفسه. فحقيقة الكلام: قل أمر ربى بما أمر به.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ دل على أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها، وليست فواحش قبل ذلك، لكان حاصل الكلام: قل إنما حرم ربى ما حرم. وكذلك تحريم الإثم والبغى، فكون ذلك فاحشة وإثمًا وبغيًا بمنزلة كون الشرك شركًا، فهو شرك فى نفسه قبل النهى وبعده.

فمن قال: إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهى، فهو بمنزلة من يقول: الشرك إنما صار شركًا بعد النهى. وليس شركًا قبل ذلك.

ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة. فالظلم ظلم فى نفسه قبل النهى وبعده. والقبيح قبيح فى نفسه قبل النهى وبعده، والفاحشة كذلك، وكذلك الشرك، لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك.

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحًا إلى قبحها. فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحًا عند العقل بنهى الرب تعالى عنها، وذَمِّه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. كما أن العدل والصدق والتوحيد، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر: حَسَنٌ فى نفسه، وازداد حسنًا إلى حُسْنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله. وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله.

بَلَ من أعلام نبوة محمد ﷺ: أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

فلو كان كونه معروفًا ومنكرًا وخبيثًا وطيبًا إنما هو لتعلق الأمر والنهى والحلِّ والتحريم به، لكان بمنزلة أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويَحل لهم ما

يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم! وأى فائدة فى هذا؟ وأى عَلَم يبقى فيه لنبوته؟ وكلام الله يصان عن ذلك، وأن يظن به ذلك. وإنما المدح والثناء والعَلَمُ الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفًا. وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا. وما يحله تشهد كونه طيبًا، وما يحرمه تشهد كونه خبيثًا، وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وهى بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين، والكذابين والسحرة. فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغى وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب -وقد أسلم، لما عرف دعوته ﷺ- : عن أى شىء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ما أمر بشىء، فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شىء، فقال العقل: ليته أمر به. ولا أحل شيئًا، فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه» فانظر إلى هذا الأعرابى، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن فى العقل. وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث: مجرد تعلق الأمر والنهى والإباحة والتحريم به: لم يحسن منه هذا الجواب، ولكان بمنزلة أن يقول: وجدته يأمر وينهى، ويبيح ويحرم. وأى دليل فى هذا؟.

كذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ [النحل: ٩٠].

وهؤلاء يزعمون: أن الظلم فى حق عباده هو المحرم والمنهى عنه، لا أن هناك فى نفس الأمر ظلمًا نهى عنه. وكذلك الظلم الذى نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل. لا أن هناك أمرًا ممكنًا مقدورًا لو فعله لكان ظلمًا. فليس فى نفس الأمر عندهم ظلم منهى عنه ولا منزه عنه. إنما هو المحرم فى حقه. والمستحيل فى حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم: هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد فى مكانين فى آن واحد، ونحو ذلك.

والقرآن صريح فى إبطال هذا المذهب أيضًا. قال الله تعالى: ﴿**قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)**﴾ [ق: ٢٧- ٢٩]، أى لا أؤاخذ عبدًا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح. ولهذا قال قبله «وقد قدمت إليكم بالوعيد» المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهى. وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه. فذلك الظلم الذى تنزه الله- سبحانه وتعالى عنه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه:١١٢]، يعنى لا يحمل عليه من سيئات مَا لم يَعْمَلْهُ، ولا ينقص من حسنات ما عمل. ولو كان الظلم هو المستحيل الذى لا يمكن وَجوده: لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت:٤٦]، أى لا يُحَمَّلُ المسىء عقاب ما لم يعمله. ولا يُمْنَعُ المحسن من ثواب عمله.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود: ١١٧]، فدل على أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالمًا. وعندهم يجوز ذلك. وليس بظلم لو فعل. ويؤولون الآية على أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم، وعلم أنه لا يفعل ذلك. وخلاف خبره ومعلومه مستحيل. وذلك حقيقة الظلم. ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعًا. ولا أريد بها. ولا تحتمله بوجه، إذ يؤول معناها إلى أنه ما كان ليهلك القرى بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون. وكلامه تعالى يتنزه عن هذا ويتعالى عنه.

تَنَزُّه الخالق عن الظلم

وكذلك عند هؤلاء أيضًا: العبث والسدى والباطل، كلها هى المستحيلات الممتنعة التى لا تدخل تحت المقدور. والله سبحانه قد نزه نفسه عنها. إذ نسبه إليه أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده. المنكرون لأمره ونهيه. فأخبر أن ذلك يستلزم كون الخلق عبثًا وباطلاً. وحكمته وعزته تأبى ذلك. قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون:١١٥]، أى لغير شىء، لا تؤمرون ولا تنهون. ولا تثابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح. فدل على أن قبح هذا مستقر فى الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار منبه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثًا، لا لأمر ولا لنهى، ولا لثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهى والجزاء مستقر فى العقول والفطر. وأن من جوز على الله الإخلال به فقد نسبه إلىَ مالا يلَيق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة: ٣٦]، قال الشافعى: مُهْمَلاً لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. وهما متلازمان. فأنكر على من يحسب ذلك، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به. ولهذا استدل على أنه

لا يتركه سدىً بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾ [القيامة] إلى آخر السورة. ولو كان قبحه إنما علم بالسمع لكان يستدل عليه بأنه خلاف السمع، وخلاف ما أعلمناه وأخبرنا به. ولم يكن إنكاره لكونه قبيحًا فى نفسه. بل لكونه خلاف ما أخبر به. ومعلوم أن هذا ليس وجه الكلام.

وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧]، والباطل الذى ظنوه: ليس هو الجمع بين النقيضين. بل الذى ظنوه: أنه لا شرع ولا جزاء، ولا أمر ولا نهى، ولا ثواب ولا عقاب. فأخبر أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذى تنزه عنه. وذلك هو الحق الذى خلقت به. وهو التوحيد. وحقه وجزاؤه وجزاء من جحده وأشرك بربه.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾ [الجاثية: ٢١]، فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حكم سيء. والحاكم به مسيء ظالم. ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء، المستقر قبحه فى فطر العالمين كلهم. ولا كان هنا حكم سيء فى نفسه ينكر على من حكم به.

وكذلك قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ [ص: ٢٨]، وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح فى نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه. وأنه لا يليق بالله نسبته إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به فى إلهيته، وعبادة غيره معه بما ضربه لهم من الأمثال، وأقام على بطلانه من الأدلة العقلية، ولو كان إنما قبح بالشرع لم يكن لتلك الأدلة والأمثال معنى.

وعند نفاة التحسين والتقبيح: يجوز فى العقل أن يأمر بالإشراك به وبعبادة غيره! وإنما علم قبحه بمجرد النهى عنه!

فيا عجبًا! أى فائدة تبقى فى تلك الأمثال والحجج، والبراهين الدالة على قبحه فى صريح العقول والفطر؟ وأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم؟ وأي شيء يصح فى العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتى، وأن العلم بقبحه بديهى معلوم بضرورة العقل، وأن

الرسل نبهوا الأمم على ما فى عقولهم وفطرهم من قبحه، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا ألباب ولا أفئدة. بل نفى عنهم السمع والبصر. والمراد: سمع القلب وبصره. فأخبر أنهم صم بكم عمى. وذلك وصف قلوبهم أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق. وشَبَّهَهُم بالأنعام التى لا عقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل. ولذلك اعترفوا فى النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل. وأنهم لو رجعوا إلى أسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم.

قال الله تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [الملك: ١٠]، وكم يقول لهم فى كتابه: ﴿أفلا تعقلون﴾، ﴿لعلكم تعقلون﴾، فينبههم على ما فى عقولهم وفطرهم من الحَسَن والقبيح. ويحتج عليهم بها. ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقَبيح والحق والباطل.

وكم فى القرآن من مثل عقلى وحسى ينبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه. فلو لم يكن فى نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى، ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهى، دون ضرب الأمثال، وتبيين جهة القبح المشهودة بالحسِ والعقل.

أمثال القرآن

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الروم: ٢٨]، يحتج سبحانه عليهم بما فى عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكًا له، فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك. فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء تعبدونهم كعبادتى؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر فى العقول والفطر؛ والسمع نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر: ٢٩]، احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سَلَمَ كله له. فهل يصح فى العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذىَ قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لا يستويان.

وكذلك قوله تعالى: ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل[1]، والمن والأذى المبطل للصدقات بـ«صفوان» وهو الحجر الأملس «عليه تراب» غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صلداً» أملس لا شيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـ«الصفوان» وهو الحجر. كقلب المرائي والمانِّ والمؤذي. و«التراب» الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته. و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض. فإذا صادفها لينة قابلة: نبت فيها الكلأ وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئًا. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقًا، فأزاله. فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر في العقول. فلذلك نبهها على شبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾[البقرة: ٢٦٥]، فإن كانت هذه الجنة -التي بموضع عال، حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد. فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يُخرِجُ غَيْرُها -إن كانت مستحسنة في العقل والحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثبات من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يرجف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق. بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين: كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته. وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه. أفلا تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾[البقرة: ٢٦٦]، فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التي تحبط ثواب الحسنات. وشَبَّهَهَا بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء، بحيث

---

(١) هو معنى الآية رقم (٢٦٤) من سورة البقرة.

يخشى عليهم الضَّيْعَةَ وعلى نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات - فأرجى وأفقر ما هو له وأسرّ ما كان به - إذ أصابه نار شديدة فأحرقته؛ فنبه العقول على أن قبح المعاصى التى تغرق الطاعات كقبح هذه الحال. وبهذا فسرها عمر، وابن عباس - رضى الله عنهم -: «لرجل غنى عمل بطاعة الله زمانًا، فبعث الله له الشيطان. فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله»(١) ذكره البخارى فى صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبحها هذا المثل؟ ونُفَاةُ التعليل والأسباب والحكم، وحسن الأفعال وقبحها يقولون: ما ثم إلا محض المشيئة، لا أن بعض الأعمال يبطل بعضًا، وليس فيها ما هو قبيح لعينه، حتى يُشَبَّه بقبيح آخر، وليس فيها ما هو منشأ لمفسدة أو مصلحة تكون سببًا لها، ولا لها علل غائية هى مفضية إليها؛ وإنما هى متعلق المشيئة، والإرادة والأمر والنهى فقط.

رأى الفقه والطب

والفقهاء لا يمكنهم البناء على هذه الطريقة ألبتة. فكلهم مجمعون -إذا تكلموا بلسان الفقه- على بطلانها. إذ يتكلمون فى العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم. ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة، والمفاسد التى هى كذلك. ويقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحهما، ويدفعون أقوى المفسدتين باحتمال أدناهما، ولا يتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال، ومعرفة ربها.

وكذلك الأطباء لا يصلح لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قوى الأدوية والأمزجة، والأغذية وطبائعها. ونسبة بعضها إلى بعض. ومقدار تأثير بعضها فى بعض. وانفعال بعضها عن بعض، والموازنة بين قوة الدواء وقوة المرض وقوة المريض، ودفع الضد بضده. وحفظ ما يريدون حفظه بمثله ومناسبه. فصناعة الطب وعمله مبنى على معرفة الأسباب والعلل، والقوى والطبائع والخواص. فلو نفوا ذلك وأبطلوه، وأحالوا على محض المشيئة وصرف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل. وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الماء، وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الغذاء ليس فى أحدهما خاصية ولا قوة يتميز بها عن الآخر: لفسد علم الطب. ولبطلت حكمة الله فيه. بل العالم مربوط بالأسباب والقوى، والعلل الفاعلية والغائية.

---

(١) انظر صحيح البخارى (جـ٨/ ٤٥٣٨).

وعلى هذا قام الوجود بتقدير العزيز العليم، والكل مربوط بقضائه وقدره ومشيئته. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فإذا شاء سَلَبَ قوة الجسم الفاعل منه ومنع تأثيرها. وإذا شاء جعل في الجسم المنفعل قوة تدفعها وتمنع موجبها مع بقائها. وهذا لكمال قدرته ونفوذ مشيئته.

والناس فى الأسباب والقوى والطبائع ثلاثة أقسام

منهم: من بالغ فى نفيها وإنكارها. فأضحك العقلاء على عقله. وزعم أنه بذلك ينصر الشرع. فجنى على العقل والشرع. وسلط خصمه عليه.

ومنهم: من ربط العالم العلوى والسفلى بها بدون ارتباطها بمشيئة فاعل مختار. ومدبر لها يصرفها كيف أراد. فيسلب قوة هذا ويقيم لقوة هذا قوة تعارضه، ويكف قوة هذا عن التأثير مع بقائها، ويتصرف فيها كما يشاء ويختار. «وهذان طرفان جائران عن الصواب».

ومنهم: من أثبتها خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا. وأنزلها بالمحل الذى أنزلها الله به، من كونها تحت تدبيره ومشيئته. وهى طوع المشيئة والإرادة، ومحل جريان حكمها عليها. فيقوى سبحانه بعضها ببعض. ويبطل -إن شاء- بعضها ببعض، ويسلب بعضها قوته وسببيته، ويعريها منها، ويمنعه من موجبها مع بقائها عليه، ليعلم خلقه أنه الفعال لما يريد. وأنه لا مستقل بالفعل والتأثير غير مشيئته، وأن التعلق بالسبب دونه كالتعلق ببيت العنكبوت، مع كونه سببًا.

وهذا باب عظيم نافع فى التوحيد، وإثبات الحكم. يوجب للعبد -إذا تبصر فيه- الصعود من الأسباب إلى مسببها. والتعلق به دونها، وأنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، وأنه إذا شاء جعل نافعها ضارًا وضارها نافعًا، ودواءها داء وداءها دواء. فالالتفات إليها بالكلية شرك مناف للتوحيد. وإنكار أن تكون أسبابا بالكلية قدح فى الشرع والحكمة. والإعراض عنها -مع العلم بكونها أسبابًا- نقصان فى العقل. وتنزيلها منازلها، ومدافعة بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، وشهود الجمع فى تفرقها، والقيام بها: هو محض العبودية والمعرفة، وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة. والله أعلم.

* *

غلط السالكين

وأما غلط من غلط من أرباب السلوك والإرادة فى هذا الباب: فحيث ظنوا أن شهود الحقيقة الكونية، والفناء فى توحيد الربوبية، من مقامات العارفين. بل أجل مقاماتهم. فساروا شائمين لبرق هذا الشهود. سالكين لأودية الفناء فيه. وحثهم على هذا السير، ورغبهم فيه: ما شهدوه من حال أرباب الفرق الطبعى فأنفوا من صحبتهم فى الطريق. ورأوا مفارقتهم فرض عين لابد منه. فلما عرض لهم الفرق الشرعى فى طريقهم. ورد عليهم منه أعظم وارد فرق جمعيتهم. وقسم وحدة عزيمتهم. وحال بينهم وبين عين الجمع، الذى هو نهاية منازل سيرهم. فافترقت طرقهم فى هذا الوارد العظيم.

فمنهم من اقتحمه ولم يلتفت إليه. وقال: الاشتغال بالأوراد عن عين المورود انقطاع عن الغاية. والقصد من الأوراد: الجمعية على الآمر. فما الاشتغال عن المقصود بالوسيلة بعد الوصول إليه، والرجوع من حضرته إلى منازل السفر إليه؟ وربما أنشد بعضهم:

يُطَالَبُ بالأوراد مَنْ كان غافلاً فكيف بقلب كُـلُّ أوقاته وِرْدُ

فإذا اضطر أحدهم إلى التفرقة بوارد الأمر، قال: ينبغى أن يكون الفرق على اللسان موجودًا، والجمع فى القلب مشهودًا.

ثم من هؤلاء: من يسقط الأوامر والنواهى جملة. ويرى القيام بها من باب ضبط ناموس الشرع، ومصلحة العموم، ومبادئ السير، فهى التى تحث أهل الغفلة على التشمير للسير. فإذا جد فى المسير استغنى بقربه وجمعيته عنها.

ومنهم: من لا يرى سقوطها إلا عمن شهد الحقيقة الكونية، ووصل إلى مقام الفناء فيها، فمن كان هذا مشهده: سقط عنه الأمر والنهى عندهم.

وقد يقولون: شهود الإرادة يسقط الأمر. وفى هذا المشهد يقولون: العارف لا يستقبح قبيحة. ولا يستحسن حسنة.

ويقول قائلهم: العارف لا ينكر منكرًا لاستبصاره بسر الله فى القدر.

ويقولون: القيام بالعبادة مقام التلبيس. ويحتجون بقوله تعالى: ﴿ **وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** (٩) ﴾ [الأنعام: ٩].

وهذا من أقبح الجهل؛ فإن هذا داخل فى جواب لو التى ينتفى بها الملزوم -وهو المقدم- لانتفاء اللازم. وهو الجواب، وهو التالى. فانتفاء جعل الرسول ملكًا -كما

اقترحوه- لانتفاء التلبيس من الله عليهم. والكفار كانوا قد قالوا: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٨]، أى نعاينه ونراه. وإلا فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه. فهم اقترحوا نزول ملك يعاينونه. فأخبر سبحانه عن الحكمة التى لأجلها لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة. ولا أنزل مَلَكًا يرونه، فقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) ﴾ [الأنعام: ٨]، أى لوجب العذاب وفُرِغَ من الأمر، ثم لا يمهلون إن أقاموا على التكذيب.

وهذا نظير قوله فى سورة الحجْر: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) ﴾ [الحجر: ٦، ٧]، قال الله عز وجل: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) ﴾ [الحجر: ٨]، و«الحق» ههنا العذاب. ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [الحجر: ٨]، أى لو أنزلنا عليهم ملكًا لجعلناه فى صورة آدمى، إذ لا يستطيعون التلقى عن الملك فى صورته التى هو عليها. وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم. لأنهم لا يدرون: أرجل هو، أم ملك؟ ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذى طلبوه بغيره.

وقوله: «ما يلبسون» فيه قولان:

أحدهما: أنه جزاء لهم على لبسهم على ضعفائهم، والمعنى: أنهم شبهوا على ضعفائهم، ولبسوا عليهم الحق بالباطل، فَشُبِّهَ عليهم، وتلبس عليهم الملك بالرجل.

والثانى: أنا نلبس عليهم ما لبسوا على أنفسهم. وأنهم خلطوا على أنفسهم. ولم يؤمنوا بالرسول منهم، بعد معرفتهم صدقه. وطلبوا رسولا مَلَكيًا يعاينونه. وهذا تلبيس منهم على أنفسهم. فلو أجبناهم إلى ما اقترحوه لم يؤمنوا عنده، ولَلَبسنا عليهم لَبْسهم على أنفسهم.

وأى تعلق لهذا بالتلبيس الذى ذكرته هذه الطائفة من تعليق الكائنات والمثوبات والعقوبات بالأسباب، وتعليق المعارف بالوسائط، والقضايا بالحجج، والأحكام والعلل، والانتقام بالجنايات، والمثوبات بالطاعات، مما هو محض الحكمة وموجبها.

وأثر اسمه «الحكيم» فى الخلق والأمر: إنما قام بالأسباب، وكذلك الدنيا والآخرة. وكذلك الثواب والعقاب. فَجَعْلُ الأسباب منصوبةً للتلبيس من أعظم الباطل شرعًا وقدرًا.

وإن الذى أوقع هؤلاء فى هذا الغلو: هو نفرتهم من أرباب الفرق الأول، ومشاهدتهم قبح ما هم عليه.

وهم -لَعَمْرُ الله- خير منهم، مع ما هم عليه، فإنهم مقرون بالجمع والفرق، وأن الله رب كل شىء، ومليكه وخالقه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه فَرَّقَ بين المأمور

والمحظور، والمحبوب والمكروه. وإن كانوا كثيراً ما يفرقون بأهوائهم ونفوسهم. فهم فى فَرْقهم النفسى: خير من أهل هذا الجمع. إذ هم مقرون أن الله يأمر بالحسنات ويحبها. وينهى عن السيئات ويبغضها، وإذا فرقوا بحسب أهوائهم، وفرقوا بنفوسهم لم يجعلوا هذا الفرق دينا يسقط عنهم أمر الله ونهيه. بل يعترفون أنه ذنب قبيح، وأنهم مقصرون. بل مفرطون فى الفرق الشرعى. ونهاية ما معهم: صحة إيمان مع غفلة وفرق نفسانى، وأولئك معهم جمع، وشهود يصحبه فساد إيمان، وخروج عن الدين.

ومن العجب: أنهم فروا من فرق أولئك النفسى إلى جمع أسقط التفرقة الشرعية. ثم آل أمرهم إلى أن صار فرقهم كله نفسيًا. فهم فى الحقيقة راجعون إلى فرقهم، ولابد. فإن الفرق أمر ضرورى للإنسان ولابد. فمن لم يفرق بالشرع فرق بالنفس والهوى. فهم أعظم الناس اتباعًا لأهوائهم. يميلون مع الهوى حيث مال بهم ويزعمون أنه الحقيقة.

وبالجملة: فلهذا السلوك لوازم عظيمة البطلان، منافية للإيمان، جالبة للخسران: ﴿أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾ [المائدة: ٦٠].

وآخر أمر صاحبه: الفناء فى شهود الحقيقة العامة المشتركة بين الأبرار والفجار وبين الملائكة والشياطين، وبين الرسل وأعدائهم. وهى الحقيقة الكونية القدرية. ومن وقف معها ولم يصعد إلى الفرق الثانى -وهو الحقيقة الدينية النبوية- فهو زنديق كافر.

الرد على من زعم سقوط الأمر والنهى

ومنهم: من لم ير إسقاط الفرق الثانى جملة. بل إنما يسقطه عن الواصل إلى عين الجمع، الشاهد للحقيقة. وما دام سالكاً، أو محجوبًا عن شهود الحقيقة: فالفرق لازم له.

وهؤلاء أيضًا من جنس الفريق الأول، بل هم خواصهم، فإذا وصل واصلهم إلى شهود حقيقة الجمع: لم يجب عليه القيام بتفرقة الأوامر. وإن قام بها فلحفظ المرتبة، وضبط الناموس، وحفظ السالكين عن الذهاب مع الفرق الطبيعى، قبل شهودهم الحقيقة. ويسمون هذه الحال «تلبيسًا» وقد تقدم ذكره.

وسيأتى إن شاء الله تعالى كشف هذا التلبيس الذى يشيرون إليه كشفًا بينًا.

وقد تقدم أنهم يحتجون على سقوط الفرق عمن شهد الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر: ٩٩].

ويقولون: إن الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- كان فى هذا المقام، وإنما كان فى

قيامه بالأعمال تشريعًا، وقد ذكرنا أن «اليقين» الموت. وأنه من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام: أن الأوامر والنواهى لا تسقط عن العبد ما دام فى دار التكليف، إلا إذا زال عقله وصار مجنونًا.

ومنهم: من يرى القيام بالأوامر والنواهى واجبًا إذا لم تفرق جمعيته، فإذا فرقت جمعيته رأى الجمعية أوجب منها، فيزعم أنه يترك واجبًا لما هو أوجب منه، وهذا أيضًا جهل وضلال.

فإن رأى أن الأمر لم يتوجه إليه فى حال الجمعية فهو كافر. وإن علم توجهه إليه، وأقدم على تركه فله حكم أمثاله من العصاة والفساق.

ومنهم: من يرى الأمر لا يسقط عنه. ولكن إذا ورد عليه وارد الفناء والجمع غيب عقله واصطلمه. فلم يشعر بوقت الواجب ولا حضوره، حتى يفوته فيقضيه. فهذا متى استدعى ذلك الفناء وطلبه، فليس بمعذور فى اصطلامه. بل هو عاص لله فى استدعائه ما يعرضه لإضاعة حقه. وهو مفرط، أمره إلى الله. ومتى هجم عليه بغير استدعاء، وغلب عليه -مع مدافعته له- خشية إضاعة الحق. فهذا معذور. وليس بكامل فى حاله. بل الكمال وراء ذلك. وهو الانتقال عن وادى الجمع والفناء، والخروج عنه إلى أودية الفرق الثانى والبقاء. فالشأن كل الشأن فيه. وهو الذى كان ينادى عليه شيخ الطائفة على الإطلاق الجنيد بن محمد رحمه الله. ووقع بينه وبين أصحاب هذا الجمع والفناء ما وقع لأجله، فهجرهم وحذر منهم. وقال: عليكم بالفرق الثانى. فإن الفرق فرقان. الفرق الأول: وهو النفسى الطبيعى المذموم. وليس الشأن فى الخروج منه إلى الجمع والفناء فى توحيد الربوبية والحقيقة الكونية. بل الشأن فى شهود هذا الجمع واستصحابه فى الفرق الثانى، وهو الحقيقة الدينية. ومن لم يتسع قلبه لذلك فليترك جمعه وفناءه تحت قدمه، ولينبذه وراء ظهره، مشتغلاً بالفرق الثانى. والكمال أيضًا وراء ذلك، وهو شهود الجمع فى الفرق، والكثرة فى الوحدة، وتحكيم الحقيقة الدينية على الحقيقة الكونية. فهذا حال العارفين الكمل:

يسقى ويشرب، لا تلهيه سكرته　　　عن النديم، ولا يلهو عن الكاس

«إنى لأسمع بكاء الصبى- وأنا فى الصلاة- فأتجوز فيها، كراهة أن أشق على أمه»(١)

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٢/ ٧٠٧) عن أبى قتادة، ومسلم (جـ١ - صلاة/ ١٩١، ١٩٢) عن أنس بن مالك.

وكـان ﷺ فى صلاته واشتغاله بالله وإقباله عليه يشعر بعائشة إذا استفتحت الباب. فيمشى خطوات يفتح لها ثم يرجع إلى مصلاه. «وذكر فى صلاته تبرًا كان عنده، فصلى. ثم قام مسرعًا فقسمه. وعاد إلى مجلسه»(١) فلم تشغله جمعيته العظمى - التى لا يدرك لها من بعده رائحة- عن هذه الجزئيات- صلوات الله وسلامه عليه.

ومنهم: من يتمكن الإيمان والعلم من قلبه. فإذا جاء الأمر قام إليه، وبادر بجمعيته. فإن صحبته وإلا طرحها، وبادر إلى الأمر. وعلم أنه لا يسعه غير ذلك، وأن الجمعية فضل، والأمر فرض. ومن ضيع الفروض للفضول، حيل بينه وبين الوصول. لكن إذا جاءت المندوبات، التى هى محل الأرباح والمكاسب العظيمة، والمصالح الراجحة -من عيادة المريض، واتباع الجنازة، والجهاد المستحب، وطلب العلم النافع، والخلطة التى ينتفع بها وينفع غيره ولم يؤثرها على جمعيته إذا رأى جمعيته خيرًا له وأنفع منها -فهذا غير آثم ولا مفرط إلا إذا تركها رغبة عنها بالكلية، واستبدالاً بالجمعية. فهذا ناقص.

أما إذا قام بها أحيانًا وتركها أحيانًا لاشتغاله بجمعيته، فهذا غير مذموم. بل هذا حقيقة الاعتكاف المشروع. وهو جمعية العبد على ربه وخلوته به. وكان النبى ﷺ: «يحتجر بحصير فى المسجد فى اعتكافه، يخلو به مع ربه عز وجل»(٢) ولم يكن يشتغل بتعليم الصحابة وتذكيرهم فى تلك الحال. ولهذا كان المشهور من مذهب أحمد وغيره: أنه لا يستحب للمعتكف إقراء القرآن والعلم. وخلوته للذكر والعبادة أفضل له. واحتجوا بفعل النبى ﷺ.

وأكمل من هؤلاء: من إذا جاءه تفرقة الأمر، ورآها أرجح من مصلحة الجمعية، ولم يمكنه الجمع فى التفرقة: اشترى الفاضل بالمفضول، والراجح بالمرجوح. فإذا كان المندوب مفضولاً مرجوحًا، والجمع خيرًا منه: اشتغل بالجمع عنه. فهذا أعلى الأقسام. والرجل كل الرجل من يَرُدُّ من تفرقته على جمعه، ومن جمعه على تفرقته. فيقوى كل واحد منهما بالآخر. ولا يلغى الحرب بينهما. فإذا جاءت تفرقة الأمر جَدَّ فيها وقام بها لجمعيته، مقويًا لها بالأمر، فإذا جاءت حالة الجمعية تقوى بها على تفرقة الأمر والبقاء به، فيرد من هذا على هذا، ومن هذا على هذا، فإذا جاءت تفرقة الأمر قال: أتفرق لله ليجمعنى عليه.

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٢/ ٨٥١)، (جـ٣/ ١٢٢١)، والنسائى (جـ٣ ص٨٤)، وأحمد (جـ٤ ص٨) عن عقبة بن الحارث.

(٢) أخرجه البخارى (جـ٢/ ٧٣٠)، ومسلم (جـ١ - مسافرين/ ٢١٣- ٢١٥).

وإذا جاءت الجمعية قال: أجتمع لأتقوى على أمر الله ورضاه، لا لمجرد حظى ولذتى من هذه الجمعية. فما أكثر من يغيب بحظه منها، ولذتها ونعيمها وطيبها، عن مراد الله منه.

فتدبر هذا الفصل، وأحط به علمًا. فإنه من قواعد السلوك والمعرفة. وكم قد زلت فيه من أقدام، وضلت فيه من أفهام. ومن عرف ما عند الناس، ونهض من مدينة طبعه إلى السير إلى الله، عرف مقداره. فمن عرفه عرف مجامع الطرق، ومفترق الطرق، التى تفرقت بالسالكين، وأهل العلم والنظر. والله سبحانه الموفق للصواب.

الفرق بين المشيئة والمحبة والرضا

أصل ذلك كله: هو الفرق بين محبة الله ورضاه، ومشيئته وإرادته الكونية، ومنشأ الضلال فى هذا الباب: من التسوية بينهما، أو اعتقاد تلازمهما، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، وقالوا: المشيئة والمحبة سواء، أو متلازمان.

ثم اختلفوا. فقالت الجبرية: الكون كله -قضاؤه وقدره، طاعته ومعاصيه، خيره وشره- فهو محبوبه.

ثم من تَعَبَّدَ منهم، وسلك على هذا الاعتقاد: رأى أن الأفعال جميعها محبوبة للرب. إذ هى صادرة عن مشيئته، وهى عين محبته ورضاه. وفنى فى هذا الشهود الذى كان اعتقادًا. ثم صار مشهدًا. فلزم من ذلك ما تقدم، من أنه لا يستقبح سيئة، ولا يستنكر منكرًا. وتلك اللوازم الباطلة المنافية للشرائع جملة.

ولما ورد على هؤلاء قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** (٢٠٥)﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿**وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿**كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** (٣٨)﴾ [الإسراء]، واعتاص عليهم كيف يكون مكروهًا له، وقد أراد كونه؟ وكيف لا يحبه، وقد أراد وجوده؟ أوَّلُوا هذه الآيات ونحوها بأنه لا يحبها دينًا. ولا يرضاه شرعًا، ويكرهها كذلك، بمعنى أنه لا يشرعها، مع كونه يحب وجودها ويريده.

فشهدوا فى مقام الفناء كونها محبوبة الوجود. ورأوا أن المحبة تقتضى موافقة المحبوب فيما يحبه. والكون كله محبوبه. فأحبوا -بزعمهم- جميع ما فى الكون، وكذبوا وتناقضوا. فإنما أحبوا ما تهواه نفوسهم وإراداتهم. فإذا كان فى الكون مالا يلائم أحدهم ويكرهه طبعه: أبغضه، ونفر منه وكرهه، مع كونه مرادًا للمحبوب، فأين الموافقة؟ وإنما وافقوا أهواءهم وإراداتهم.

ثم بنوا على ذلك أنهم مأمورون بالرضاء بالقضاء، وهذه قضاء من قضائه، فنحن نرضى بها، فمالنا ولإنكارها ومعاداة فاعلها، ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء؟ فَتَرَكَّبَ من اعتقادهم: كونها محبوبة للرب، وكونهم مأمورين بالرضا بها، والتسوية بين الأفعال، وعدم استقباح شيء منها أو إنكاره.

وانضاف إلى ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها، وأنها ليست فعله.

فلزم من ذلك: رفع الأمر والنهى، وطى بساط الشرع، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان. وصارت لهم هذه العقائد مشاهد. وكل أحد إذا ارتاض وَصَفَا باطنه: تجلى له فيه صورة معتقده. فهو يشاهدها بقلبه فيظنها حقًا. فهذا حال هذه الطائفة.

وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصى محبوبة لله ولا مرضية له. فليست مقدرة له ولا مقضية. فهى خارجة عن مشيئته وخلقه.

قالوا: ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء، ومأمورون بسخط هذه الأفعال وبغضها وكراهتها. فليست إذًا بقضاء الله، إذ الرضا والقضاء متلازمان، كما أن محبته ومشيئته متلازمان، أو متحدان.

وهؤلاء لا يجيء من سالكيهم وعُبَّادهم ما جاء من سالكى الجبرية وعبادهم ألبتة، لمنافاة عقائدهم لمشاهد أولئك وعقائدهم. بل غايتهم: التعبد والورع. وهم فى تعظيم الذنوب والمعاصى خير من أولئك، وأولئك قد يكونون أقوى حالاً وتأثيراً منهم.

فمنشأ الغلط: التسوية بين المشيئة والمحبة، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء. ونحن نبين ما فى الفصلين إن شاء الله تعالى. فإن القوة لله جميعًا.

شهود الجبرية والقدرية

فأما المشيئة، والمحبة: فقد دل على الفرق بينهما القرآن والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتونه من القول، المتضمن البَهْتَ، ورمى البرىء، وشهادة الزور، وبراءة الجانى. فإن الآية نزلت فى قصة هذا شأنها، مع أن ذلك كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يخالف فى ذلك إلا القدرية المجوسية، الذين يقولون: يشاء مالا يكون، ويكون مالا يشاء.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه دينًا، مع محبته لوقوعه: مما ينبغي أن يصان كلام الله عنه. إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له. ولكن لا يثاب فاعله عليه. فهو محبوب بالمشيئة، غير مثاب عليه شرعًا.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدرًا وشرعًا، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه. فإنه يخلق ما يحب وما يكره. وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه. وفيها ما يبغضه ويكرهه -كإبليس وجنوده، وسائر الأعيان الخبيثة- وفيها ما يحبه ويرضاه -كأنبيائه ورسله، وملائكته وأوليائه -وهكذا الأفعال كلها خلقه. ومنها ما هو محبوب له وما هو مكروه له. خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان. وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** (٢٠٥)﴾ [البقرة: ٢٠٥]، مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره. وقال تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر: ٧]، فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره. وأحدهما محبوب له مرضي. والآخر مبغوض له مسخوط.

وكذلك قوله -عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر-: ﴿**كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** (٣٨)﴾ [الإسراء: ٣٨]، فهو مكروه له، مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال. وكثرة السؤال. وإضاعة المال**»(١) فهذه كراهة لموجود تعلقت به المشيئة.

وفي المسند: «**إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**»(٢) فهذه محبة وكراهة لأمرين موجودين. اجتمعا في المشيئة، وافترقا في المحبة والكراهة. وهذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يذكر جميعه.

تفسير أعوذ برضاك من سخطك

وقد فطر الله عباده على قولهم: هذا الفعل يحبه الله. وهذا يكرهه الله ويبغضه وفلان يفعل مالا يحبه الله. والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه، وذلك صفة قائمة به، يترتب عليها العذاب واللعنة، لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة بل هما أثر السخط

---

(١) أخرجه البخاري (جـ٣/ ١٤٧٧)، ومسلم (جـ٣- أقضية/ ١٢، ١٣) عن المغيرة بن شعبة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (جـ٢ ص١٠٨) من حديث عبد الله بن عمر بإسناد رجاله ثقات. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (جـ٣ ص١٦٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار والطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن.

والغضب وموجبهما. ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته. وجعل كل واحد غير الآخر.

وكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك. وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»**(١).

فتأمل ذكر استعاذته ﷺ بصفة «الرضا» من صفة «السخط» وبفعل «المعافاة» من فعل «العقوبة» فالأول: للصفة، والثاني: لأثرها المترتب عليها. ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده. لا إلى غيره. فما أعوذ منه: واقع بمشيئتك وإرادتك. وما أعوذ به: من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه. فإعاذتي مما أكره وأحذر، ومَنْعُه أن يَحلَّ بي: هو بمشيئتك أيضًا. فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك. فعياذي بك منكَ: عياذي بحولك وقوتك، وقدرتك ورحمتك وإحسانك، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك. فلا أستعيذ بغيرك من غيرك. ولا أستعيذ إلا بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقك، بل هو منك، ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك، بل أنت الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك، فأعوذ بك منك.

ولا يعلم ما في هذه الكلمات -من التوحيد والمعارف والعبودية- إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته، ومعرفة عبوديته.

وأشرنا إلى شيء يسير من معناها. ولو استقصينا شرحها لقام منه سفر ضخم، ولكن قد فتح لك الباب، فإن دخلت رأيت مالا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر.

والمقصود: أن انقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلى محبوب للرب مرضى له، ومسخوط مبغوض له، مكروه له: أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة، من العقل والنقل، والفطرة والاعتبار، فمن سوى بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التي فطر عليها عباده، وخالف المعقول والمنقول، وخرج عما جاءت به الرسل.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ١- صلاة/ ٢٢٢)، وأبو داود (جـ١/ ٨٧٩)، والترمذي (جـ٥/ ٣٤٩٣)، والنسائي (جـ١ ص١٠٢) من حديث عائشة، وأخرجه ابن ماجه (جـ١/ ١١٧٩) من حديث علي بن أبي طالب.

ولأى شىء نَوَّع الله سبحانه العقوبات البليغة فى الدنيا والآخرة، وأشهد عباده منها ما أشهدهم؟ لولا شدة غضبه وسخطه على الفاعلين لما اشتدت كراهته وبغضه له، فأوجبت تلك الكراهة والبغض منه: وقوع أنواع المكاره بهم، كما أن محبته لما يحبه من الأفعال ويرضاه: أوجبت وقوع أنواع المحاب لمن فعلها، وشهود ما فى العالم من إكرام أوليائه، وإتمام نعمه عليهم، ونصرهم وإعزازهم، وإهانة أعدائه وعقوبتهم، وإيقاع المكاره بهم: من أدل الدليل على حبه وبغضه وكراهته، بل نفس موالاته لمن والاه، ومعاداته لمن عاداه: هى عين محبته وبغضه. فإن الموالاة: أصلها الحب. والمعاداة: أصلها البغض. فإنكار صفة «المحبة، والكراهة» إنكار لحقيقة «الموالاة، والمعاداة».

وبالجملة: فشهود القلوب لمحبته وكراهته، كشهود العيان لكرامته وإهانته.

الرضا بالقضاء والقدر

وأما حديث «الرضا بالقضاء» فيقال:

أولاً: بأى كتاب، أم بأى سنة، أم بأى معقول: علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره؟ بل بجواز ذلك، فضلاً عن وجوبه؟ هذا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأدلة العقول ليس فى شىء منها الأمر بذلك، ولا إباحته.

بل من المقضى ما يرضى به، ومنه ما يسخطه ويمقته. فلا نرضى بكل قضاء كما لا يرضى به القاضى لأقضيته سبحانه. بل من القضاء ما يسخطه، كما أن من الأعيان المقضية: ما يغضب عليه، ويمقت عليه، ويلعن ويذم.

ويقال ثانيًا: هاهنا أمران «قضاء» وهو فعل قائم بذات الرب تعالى، و«مَقْضىٌّ» وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء خير كله، وعدل وحكمة، فيرضى به كله، والمقضى قسمان. منه ما يرضى به، ومنه مالا يرضى به.

وهذا جواب من يقول: الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضى.

وأما من يقول: إن الفعل هو عين المفعول، والقضاء هو عين المقضى، فلا يمكنه أن يجيب بهذا الجواب.

ويقال ثالثًا: القضاء له وجهان.

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى، ونسبته إليه، فمن هذا الوجه: ينقسم إلى ما يرضى به، وإلى مالا يرضى به.

مثال ذلك: قتل النفس -مثلا- له اعتباران. فمن حيث إنه قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه، وجعله أجلاً للمقتول، ونهاية لعمره: يرضى به. ومن حيث إنه صدر من القاتل، وباشره وكسبه، وأقدم عليه باختياره، وعصى الله بفعله: يسخطه ولا يرضى به.

فهذه نهاية أقدام العالم، المقرين بالنبوات فى هذه المسألة، ومفترق طرقهم. قد حَصَرْتُ لك أقوالهم ومآخذهم، وأصول تلك الأقوال، بحيث لا يشذ منها شىء. وبالله التوفيق.

ولا تنكر الإطالة فى هذا الموضع. فإنه مزلة أقدام الخلق. وما نجا من معاطبه إلا أهل البصائر والمعرفة بالله وصفاته وأمره وشرائعه.

توبة العامة ومفاسدها عند الخاصة

ثم قال صاحب المنازل: «فتوبة العامة: الاستكثار من الطاعة. وهو يدعو إلى جحود نعمة الستر والإمهال، ورؤية الحق على الله. والاستغناء -الذى هو عين الجبروت- والتوثب على الله».

العامة عندهم: من عدا باب الجمع والفناء. وإن كانوا أهل سلوك وإرادة وعلم. هذا مرادهم بالعامة. ويسمونهم «أهل الفرق» ويسميهم «غلاتهم المحجوبين».

ومراده: أن توبتهم مدخولة عند الخواص منقوصة. فإن توبتهم من استكثارهم لما يأتون به من الحسنات والطاعات. أى رؤيتهم كثرتها. وذلك يتضمن ثلاث مفاسد عند الخاصة.

إحداها: أن حسناتهم التى يأتون بها: سيئات بالنسبة إلى مقام الخاصة. فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. فهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات فلغفلتهم -باستكثارها- عن عيوبها ورؤيتها وملاحظتها: هم جاحدون نعمة الله فى سترها عليهم وإمهالهم، كستره على أهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله، لكن أهل الذنوب مقرون بستره وإمهاله. وهؤلاء جاحدون لذلك، لأنهم قد توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات. دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما، وأن الحامل لهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها، ولو تفرغوا لتفتيشها، ومحاسبة النفس عليها، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق. لَشَغَلَهُمْ ذلك عن استكثارها، ولأجل هذا كان من عدم الحضور والمراقبة والجمعية فى العمل، خَفَّ عليه واستكثر منه، فكثر فى عينه، وصار بمنزلة العادة. فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكدر، وما فى

ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب، وجمعية القلب والهم على الله بكليته: وجد له ثقلاً كالجبال، وقل في عينه؛ ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي، فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها، وفهم ما أريد بكل آية، وحظك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها، كيف تدرك الختمة -أو أكثرها، أو ما قرأت منها- بسهولة وخفة. مستكثراً من القراءة. فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد، والنظر إلى ما يخصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك، والاستشفاء به. لم تكد تجوز السورة أو الآية إلي غيرها. وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين. أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة: لم تكد أن تصلي غيرهما إلا بجهد، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب، فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها ليتوب منها توبة العامة.

المفسدة الثانية: رؤية فاعلها أن له حقًا على الله في مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان. ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن أعماله. ولو كانت أعمال الثقلين لا تستقل بدخول الجنة ولا النجاة من النار، وأنه لن ينجو أحد ألبتة من النار بعمله، إلا بعفو الله ورحمته.

الثالثة: استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه، بما يشهدون من استحقاق المغفرة، والثواب بحسناتهم وطاعاتهم. فإن ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعاتهم، واستكثارهم منها لذلك، وكثرتها في عيونهم إظهار للاستغناء عن مغفرة الله وعفوه. وذلك عين الجبروت والتوثب على الله.

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله، قد يتضمن تلك المفاسد الثلاث وغيرها، مع أنه قليل المنفعة دنيا وأخرى، كثير المؤنة. فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود، فإنه -وإن كثر- متعب غير مفيد. فهكذا العمل الخارجي القشوري بمنزلة النخالة الكثيرة المنظر القليلة الفائدة. فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها.

وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التي يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك ونحوها.

فإن انضاف إلى ذلك إحسان ظنه بها، واستكثارها، وعدم التفاته إلى عيوبها ونقائصها، والتوبة إلى الله، واستغفاره منها: جاءت تلك المفاسد التى ذكرها وما هو أكثر منها.

وقد ظن بعض الشارحين لكلامه: أن مراده: الإزراء بالاستكثار من الطاعات، وأن مجرد الفناء والشهود والاستغراق فى حضرة المراقبة خير منها وأنفع وهذا باطل وكَذِبٌ عليه وعلى الطريقة والحقيقة.

ولا ريب أن هذه طريقة المنحرفين من السالكين. وهو تعبد بمراد العبد وحظه من الله. وتقديم له على مراد الله ومحابه من العبد.

فإن للعبد حظًا، وعليه حقًا. فحق الله عليه: تنفيذ أوامره والقيام بها، والاستكثار من طاعاته بحسب الإمكان. والاشتغال بمحاربة أعدائه ومجادلتهم، ولو فَرَّقَ ذلك جمعيته وشَتَّتَ حضوره. فهذا هو العبودية التى هى مراد الله.

وأما الجمعية والمراقبة والاستغراق فى الفناء، وتعطيل الحواس والجوارح عن إرسالها فى الطاعات، والاستكثار منها: فهذا مجرد حظ العبد ومراده، وهو -بلا شك- أنعم وألذ وأطيب من تفرقة الاستكثار من الطاعات، لا سيما إذا شهدوا تفرقة المستكثرين منها، وقلة نصيبهم من الجمعية. فإنهم تشتد نفرتهم منهم. ويعيبون عليهم، ويُزْرُون بهم. وقد يسمون من رأوه كثير الصلاة «ثقاقيل الحصر» ومن رأوه كثير الطواف «حُمُر المدار»(١) ونحو ذلك.

وقد أخبرنى من رأى ابن سبعين(٢) قاعدًا فى طرف المسجد الحرام، وهو يسخر من الطائفين ويذمهم. ويقول: كأنهم الحمر حول المدار. ونحو هذا. وكان يقول: إقبالهم على الجمعية أفضل لهم.

ولا ريب أن هؤلاء مؤثرون لحظوظهم على حقوق ربهم، واقفون مع أذواقهم ومواجيدهم، فانين بها عن حق الله ومراده.

---

(١) ثقاقيل الحصر: الذى يثقلون على حصر المساجد ويلزمونها لكثرة صلاتهم.

حمر المدار: الحمير التى تدور بالرحى ونحوها.

(٢) هو عبد الحق المرسى الأندلسى كان فقيهًا ثم انتحل التصوف على حقيقته الفلسفية، وبلغ إلى لبه من وحدة الوجود وهتف بها فكان من أصرح الدعاة إليها، واشتهر عنه أنه كان يقول: لقد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله: «لا نبى بعدى» فتجرأ على التصريح بما لم يتجرأ عليه أمثاله من الصوفية الذين يدينون بهذا المذهب، فإنهم يكنون ويُعَمُّون، ولد سنة ٦١٤هـ ومات سنة ٦٦٩ (الفقى).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يحكى عن بعض العارفين أنه قال: العامة يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم.

وصدق -رحمه الله- فإن هؤلاء المستكثرين من الطاعات الذائقين لروح العبادة، الراجين ثوابها، قد رُفِعَ لهم عَلَمُ الثواب، وأنه مسبب عن الأعمال. فشمروا إليه، راجين أن تقبل منهم أعمالهم -على عيبها ونقصها- بفضل الله، خائفين أن ترد عليهم. إذ لا تصلح لله ولا تليق به، فيردها بعدله وحقه. فهم مستكثرون بجهدهم من طاعاته بين خوفه ورجائه، والإزراء على أنفسهم، والحرص على استعمال جوارحهم فى كل وجه من وجوه الطاعات رجاء مغفرته ورحمته، وطمعًا فى النجاة، فهم يقاتلون بكل سلاح لعلهم ينجون.

قالوا: وأما ما أنتم فيه من الفناء، ومشاهدة الحقيقة والقيومية، والاستغراق فى ذلك: فنحن فى شغل عنه بتنفيذ أوامر صاحب الحقيقة والقيومية، والاستكثار من طاعاته، وتصريف الجوارح فى مرضاته، كما أنكم -بفنائكم واستغراقكم فى شهود الحقيقة وحضرة الربوبية- فى شغل عما نحن فيه. فكيف كنتم أولى بالله منا، ونحن فى حقوقه ومراده منا، وأنتم فى حظوظكم ومرادكم منه؟

قالوا: وقد ضرب لنا ولكم مثل مطابق لمن تأمله: بملك ادعى محبته مملوكان من مماليكه، فاستحضرهما وسألهما عن ذلك؟ فقالا: أنت أحب شىء إلينا، ولا نؤثر عليك غيرك. فقالك إن كنتما صادقين فاذهبا إلى سائر مماليكى وعَرِّفاهم بحقوقى عليهم، وأخبراهم بما يرضينى عنهم، ويسخطنى عليهم، وابذلا قواكما فى تخليصهم من مساخطى، ونفذا فيهم أوامرى، واصبرا على أذاهم. وعودا مريضهم، وشَيِّعا ميتهم. وأعينا ضعيفَهم بقواكما، وأموالكما وجاهكما، ثم اذهبا إلى بلاد أعدائى بهذه الملطفات وخَالطوهم، وادعوهم إلى موالاتى، واشتغلا بهم، ولا تخافوهم، فعندهم من جندى وأوليائى من يكفيكما شرهم.

فأما أحد المملوكين: فقام مبادرًا إلى امتثال أمره. وبعد عن حضرته فى طلب مرضاته.

وأما الآخر، فقال له: لقد غَلَبَ على قلبى منْ مَحَبَّتكَ، والاستغراق فى مشاهدة حضرتك وجمالك: مالا أقدر معه على مفارقة حضرَتك ومشَاهدتك.

فقال له: إن رضائى فى أن تذهب مع صاحبك، فتفعل كما فعل، وإن بعدت عن مشاهدتى.

فقال: لا أوثر على مشاهدتك والاستغراق فيك شيئًا.

فأيُّ المملوكين أحب إلى هذا الملك، وأحظى عنده، وأخص به، وأقرب إليه؟ أهذا الذى آثر حظه ومراده وما فيه لذته على مراد الملك وأمره ورضاه؟ أم ذلك الذى ذهب فى تنفيذ أوامره، وفرغ لها قوله وجوارحه، وتفرق فيها فى كل وجه؟ فما أولاه أن يجمعه أستاذه عليه بعد قضاء أوامره وفراغه منها، ويجعله من خاصته وأهل قربه! وما أولى صاحبه بأن يبعده عن قربه، ويحجبه عن مشاهدته، ويفرقه عن جمعيته عليه، ويبدله بالتفرقة التى هرب منها -فى تفرقة أمره- تفرقة فى هواه ومراده بطبعه وبنفسه.

فليتأمل اللبيب هذا حق التأمل، وليفتح عين بصيرته، ويسير بقلبه، فينظر فى مقامات العبيد وأحوالهم وهممهم، ومن هو أولى بالعبودية. ومن هو البعيد منها.

ولا ريب أن من أظهر الاستغناء عن الله وطاعاته، وتوثب عليه، وأورثته الطاعات جبروتًا وحجبًا عن رؤيته عيوب نفسه وعمله، وكثرت حسناته فى عينه، فهو أبغض الخلق إلى الله تعالى، وأبعدهم عن العبودية، وأقربهم إلى الهلاك. لا من استكثر من الباقيات الصالحات، ومن مثل ما وصى به النبى ﷺ مَنْ سأله مرافقته فى الجنة. فقال: «أعنى على نفسك بكثرة السجود»(١) ومن قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، قال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبى ﷺ: «تَابعُوا بين الحج والعمرة. فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد»(٢) وقال لمن سأله أن يوصيه بشىء يتشبث به: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»(٣).

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثارًا منها.

وفى الحديث الصحيح الإلهى: «ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ١ - صلاة/ ٢٢٦)، وأبو داود (جـ٣/ ١٣٢٠)، والنسائى (جـ٢/ ٢٢٧)، وأحمد (جـ٤ ص٥٩) كلهم عن ربيعة بن كعب الأسلمى.

(٢) أخرجه الترمذى (جـ٣/ ٨١٠) عن ابن مسعود، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجة (جـ٢/ ٢٨٨٧) عن عمر، والنسائى (جـ٥ ص١١٥) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه أحمد (جـ٤ ص١٨٨)، والترمذى (جـ٥/ ٣٣٧٥)، وابن ماجه (جـ٢/ ٣٧٩٣)، والحاكم فى «المستدرك» (جـ١ ص٤٩٥) كلهم من حديث عبد الله بن بسر؛ وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه»(١) .

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته ، لا لأهل الفناء المستغرقين فى شهود الربوبية .

وقال ﷺ لآخر : «عليك بكثرة السجود . فإنك لا تَسْجُدُ لله سجدةً إلا رَفَعَكَ اللَّهُ بها درجةً، وحَطَّ عنك بها خطيئة»(٢) .

تَوَلُّدُ وحدةِ الوجودِ من تعطيلِ الجهميةِ وفناءِ الصوفيةِ

وهذه الطريقة فى الإرادة والطلب : نظير طريقة التجهم فى العلم والمعرفة ، تلك تعطيل للصفات والتوحيد . وهذه تعطيل للأمر والعبودية . وانظر إلى هذا النسب والإخاء الذي بينهما . كيف شَرَّكَ بينهما فى اللفظ ، كما شَرَّكَ بينهما فى المعنى؟ فتلك طريقة النفى ، وهذه طريقة الفناء ، تلك نفى لصفات المعبود . وهذه فناء عن عبوديته .

وأما نفى خواص العبيد وفناؤهم : فأمر وراء نفى أولئك وفنائهم . لأن نفيهم لصفات النقائص ، وما يضاد أوصاف الكمال . وفناءهم عن إرادة غيره ومحبته ، وخوفه ورجائه . ففناؤهم عن كل ما يخالف أمره ومحابه . ونفيهم لكل ما يضاد كماله وجلاله . ومن له فرقان فهو يعرف هذا وهذا . وغيره لا اعتبار به .

وصاحب المنازل -رحمه الله- كان شديد الإثبات للأسماء والصفات ، مضاداً للجهمية من كل وجه . وله كتاب «الفاروق» استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها . ولم يسبق إلى مثله ، وكتاب «ذم الكلام وأهله» طريقته فيه أحسن طريقة . وكتاب لطيف فى أصول الدين ، يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقررها . وله مع الجهمية المقامات المشهودة . وسعوا بقتله إلى السلطان مراراً عديدة . والله يعصمه منهم . ورموه بالتشبيه والتجسيم ، على عادة بَهْت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث ، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير ما دل عليه الكتابُ والسنة .

ولكنه -رحمه الله- كانت طريقته فى السلوك مضادة لطريقته فى الأسماء والصفات . فإنه لا يقدم على الفناء شيئًا ، ويراه الغاية التي يشمر إليها السالكون ، والعلم الذي يؤمه السائرون . واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع ، وعظم موقعه عنده ، واتسعت إشاراته

---

(١) أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٥٠٢) عن أبى هريرة ، وأحمد (جـ٦ ص٢٥٦) عن عائشة .

(٢) حديث صحيح : أخرجه مسلم (جـ١ - صلاة/ ٢٢٥)، والنسائى (جـ٢ ص٢٢٨) من حديث ثوبان .

إليه. وتنوعت به الطرق الموصلة إليه، علمًا وحالاً وذوقًا، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية، باديًا على صفحات كلامه، وزان تعطيل الجهمية لما اقتضته أصولهم من نفى الصفات.

ولما اجتمع التعطيلان لمن اجتمعا له -من السالكين- تولد منهما القول بوحدة الوجود، المتضمن لإنكار الصانع وصفاته، وعبوديته. وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف فى إثبات الصفات، فأشرف من عقبة الفناء على وادى الاتحاد بأرض الحلول، فلم يسلك فيها، ولوقوفه على عقبته، وإشرافه على تلك الربوع الخراب، ودعوة الخلق إلى الوقوف على تلك العقبة، أقسمت الاتحادية بالله جهد أيمانهم: إنه لمعهم، ومنهم. وحاشاه.

وتولى شرح كتابه أشدهم فى الاتحاد طريقة، وأعظمهم فيه مبالغة وعنادًا لأهل الفرق: العفيف التلمسانى (١) ونَزَّلَ الجمع الذى يشير إليه صاحب المنازل على جمع الوجود. وهو لم يرد به -حيث ذكره- إلا جمع الشهود. ولكن الألفاظ مجملة، وصادفت قلبًا مشحونًا بالاتحاد، ولسانًا فصيحًا متمكنًا من التعبير عن المراد و«من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور».

توبة الأوساط من استقلال العبد المعصية

قال: «وتوبة الأوساط: من استقلال العبد المعصية. وهو عين الجرأة والمبارزة، ومحض التزين بالحمية، والاسترسال للقطيعة».

يريد: أن استقلال المعصية ذنب. كما أن استكثار الطاعة ذنب. والعارف من صغرت حسناته فى عينه. وعظمت ذنوبه عنده. وكلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت عند الله. وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قلت وصغرت عند الله. وسيئاتك بالعكس. ومن عرف الله وحقه وما ينبغى لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده، وصغرت جداً فى عينه. وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه، وأن الذى يليق بعزته، ويصلح له من

---

(١) هو سليمان بن على من كبار شيوخ الصوفية، وأصحاب المقامات الرفيعة فيهم. نُقلَ عنه أن الحلال والحرام خاص بالمحجوبين، ولا فرق عنده بين الأجنبية والأم والبنت فى النكاح، وأن القرآن كله شرك، و كلامهم هو التوحيد كقوله:

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه عينه

(هامش الفقى).

العبودية: أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها. لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه، فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله. ولو كانت أعمال الثقلين، وإذا كثرت فى عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله، غير عارف به وبما ينبغى له، وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه. وتعظم فى عينه. لمشاهدته الحق ومستحقه. وتقصيره فى القيام به، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه.

إذا عرف هذا، فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله، وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقه، وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها. وخفت على قلبه. وذلك نوع مبارزة.

وأما قوله: «ومحض التزين بالحمية» أى بالمحاماة عن النفس، وإظهار براءة ساحتها. لا سيما إن انضاف إلى ذلك مشاهدة الحقيقة، والاحتجاج بالقدر. وقوله: وأى ذنب لى، والمحرك لى غيرى. والفاعل فىَّ سواى؟ وإنما أنا كالميت بين يدى الغاسل؟ وما حيلة من ليس له حيلة. وما قدرة من ليسَ له قدرة؟ ونحو هذا مما يتضمن الجرأة على الله ومبارزته، والمحاماة عن النفس، واستصغار ذنوبه ومعاصيه إذا أضافها إلى الحكم، فيسترسل إذًا للقطيعة وهى المقاطعة لربه والانقطاع عنه. فيصير خصمًا لله مع نفسه وشيطانه. وهذا حال المحتجين بالقدر على الذنوب. فإنهم خصماء الله عز وجل. وهم مع الشياطين والنفوس على الله، وهذا غاية البعد والطرد والانقطاع عن الله؟.

فإن قلت: فكيف كانت توبة العامة من استكثار الطاعات؟ وتوبة من هم أخص منهم. وأعلى درجة من استقلال المعصية؟ وهَلاَّ كان الأمر بالضد؟.

قلت: الأوساط لما كانوا أشد طلبًا لعيوب النفس والعمل، وأكثر تفتيشًا عليها: انكشف لهم من ذنوبهم ومعاصيهم مالم ينكشف للعامة. إذ حرص العامة على الاستكثار من الطاعات، ولذلك كثرت فى أعينهم، وحرص هؤلاء على تنقية أنفسهم من الآفات، والتفتيش على عيوب الأعمال. فاستقلال السيئات آفة هؤلاء، وقاطع طريقهم، واستكثار الحسنات وعظمها فى قلوب أولئك آفتهم، وقاطع طريقهم، فذكر ما هو الأخص الأغلب على كل واحدة من الطائفتين.

* *

توبة الخواص من تضييع الوقت

قال : «وتوبة الخواص: من تضييع الوقت. فإنه يفضى إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، ويكدر عين الصحبة».

ليس مراده بتضييع الوقت : إضاعته فى الاشتغال بمعصية أو لغو، أو الإعراض عن واجبه وفرضه. فإنهم لو أضاعوه بهذا المعنى لم يكونوا من الخواص. بل هذه توبة العامة بعينها. و«الوقت» عند القوم : أخص منه فى لغة العرب. حتى إن منهم من يقول الوقت : هو الحق ومنهم من يقول: «استغراق رسم العبد فى وجود الحق» يشيرون إلى الفناء فى حضرة الجمع. والغالب على اصطلاحهم : أنه من الإقبال على الله بالمراقبة، والحضور والفناء فى الوحدانية. ويقولون: هو صاحب وقت مع الله. فخصوا «الوقت» بهذا الاسم تخصيصًا للفظ العام ببعض أفراده. وإلا فكل من هو مشغول بأمر يُعْنَى به فَان فى شهوده وطلبه، فله وقت معه. بل أوقاته مستغرقة فيه.

فتوبة هؤلاء من إضاعة هذا الوقت الخاص الذى هو وقت وَجْد صادق، وحال صحيحة مع الله لا يكدرها الأغيار.

وربما يمر بك إشباع القول فى «الوقت» والفرق بين الصحيح منه والفاسد فيما بعد إن شاء الله.

والقصد: أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال. فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص. فإن لم يكن فى تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى أسفل. إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس فى الطبيعة، ولا فى الشريعة وقوف ألبتة. ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طى إلى الجنة أو النار، فمسرع ومبطئ. ومتقدم ومتأخر. وليس فى الطريق واقف ألبتة. وإنما يتخالفون فى جهة المسير. وفى السرعة ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٥- ٣٧]، ولم يذكر واقفًا. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت : كل مُجِدٍّ فى طلب شىء لابد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه.

قلت: لابد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجم نفسه، ويعدها للسير. فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة. فإن «**لكل عمل شرة. ولكل شرة فترة**»[1].

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخره ولابد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع. ووثب وجمز واشتد سعيًا ليلحق الركب. وإن استمر مع داعي التأخر، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركًا. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه منْ يَد عدوِّه، وتخليصه، وإلا فهو فى تأخر إلى الممات، راجع القَهْقَرَى، ناكص على عقَبيه، أو مُوَلٍّ ظهره، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عَصَمَه الله.

وقوله: «ويطفئ نور المراقبة».

يعنى: أن المراقبة تعطى نورًا كاشفًا لحقائق المعرفة والعبودية، وإضاعة الوقت تغطى ذلك النور، وتكدر عين الصحبة مع الله، فإن صاحب الوقت مع صحبة الله، وله مع الله معية خاصة، بحسب حفظه وقته مع الله. فإن كان مع الله كان الله معه. فإذا أضاع وقته كَدَّرَ عَيْنَ هذه المعية الخاصة. وتعرض لقطع هذه الصحبة. فلا شيء أضر على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله. ويُخْشَى عليه إن لم يتداركه بالرجوع: أن تستمر الإضاعة إلى يوم القيامة. فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته. وحجابه عن الله أشد من حجاب من سواه. ويكون حاله شبيهًا بحال قوم يؤمر بهم إلى الجنة، حتى إذا عاينوها وشاهدوا ما فيها، صرفت وجوههم عنها إلى النار، فإذن توبة الخواص تكون من تضييع أوقاتهم مع الله التى تدعو إلى هذه الأمور.

وفوق هذا مقام آخر من التوبة، أرفع منه وأخص. لا يعرفه إلا الخواص المحبون، الذين يستقلون فى حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم. فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها، ويرون شأن محبوبهم أعظم، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له، فهم أشد شيء احتقارًا لها، وإزراءً عليها، وإذا غفلوا عن مراد

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٤٥٣) عن أبى هريرة، وأحمد (جـ٢ ص١٥٨) عن عبد الله بن عمرو، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح، وهو كما قال، وإسناده عن عبد الله بن عمرو أيضًا صحيح معروف مشهور.

محبوبهم منهم، ولم يوفوه حقه، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها. فالتوبة لا تفارقهم أبداً، وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف: ٧٦]، وكلما ازدادوا حبًا له ازدادوا معرفة بحقه، وشهوداً لتقصيرهم. فعظمت لذلك توبتهم. ولذلك كان خوفهم أشد. وإزراؤهم على أنفسهم أعظم. وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم.

وبالجملة: فتوبة المحبين الصادقين العارفين بربهم وبحقه: هى التوبة. وسواهم محجوب عنها. وفوق هذه توبة أخرى. الأولى بنا الإضراب عنها صفحًا.

التوبة من الغفلة

قال صاحب المنازل: «ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق. ثم رؤية علة التوبة. ثم التوبة من رؤية تلك العلة».

التوبة مما دون الله: أن يخرج العبد بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى. فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته. فيكون كله له وبه.

وهذا أمر لا يصح إلا لمن استولى عليه سلطان المحبة، فامتلأ قلبه من الله محبة له وإجلالاً وتعظيمًا، وذلاً وخضوعًا وانكساراً بين يديه، وافتقاراً إليه.

فإذا صح له ذلك بقيت عليه عندهم بقية أخرى، هى علة فى توبته، وهى شعوره بها، ورؤيته لها، وعدم فنائه عنها. وذلك بالنسبة إلى مقامه وحاله ذنب، فيتوب من هذه الرؤية.

فههنا ثلاثة أمور: توبته مما سوى الله. ورؤيته هذه التوبة، وهى علتها. وتوبته من رؤية تلك الرؤية، وهذا عند القوم الغاية التى لا شىء بعدها. والنهاية التى لا تكون إلا لخاصة الخاصة. ولعمر الله إن رؤية العبد فعله، واحتجابه به عن ربه، ومشاهدته له: علة فى طريقه موجبة للتوبة.

وأما رؤيته له واقعًا بمنة الله وفضله، وحوله وقوته وإعانته: فهذا أكمل من غيبته عنه. وهو أكمل من المقام الذى يشيرون إليه، وأتم عبودية، وأدعى للمحبة وشهود المنة. إذ يستحيل شهود المنة على شىء لا شعور للشاهد به ألبتة.

والذى ساقهم إلى ذلك: سلوك وادى الفناء فى الشهود؛ فلا يشهد مع الحق سببًا، ولا وسيلة ولا رسمًا ألبتة.

ونحن لا ننكر ذوق هذا المقام، وأن السالك ينتهى إليه، ويجد له حلاوة ووجداً ولذة

لا يجدها لغيره ألبتة. وإنما يطالب أربابه والمشمرون إليه بأمر وراءه. وهو أن هذا هو الكمال. وهو أكمل من حال من شهد أفعاله ورآها، ورأى تفاصيلها مشاهداً لها، صادرة عنه بمشيئة الله وإرادته ومعونته. فشهد عبوديته مع شهود معبوده، ولم يغب فى شهود العبودية عن المعبود، ولا بشهود المعبود عن العبودية، فكلاهما نقص. والكمال: أن تشهد العبودية حاصلة بمنة المعبود وفضله ومشيئته، فيجتمع لك الشهودان، فإن غبت بأحدهما عن الآخر فالمقام مقام توبة. وهل فى الغيبة عن العبودية إلا هضم لها ؟.

والـواجـب: أن يقع التحاكم فى ذلك إلى الله ورسوله، وإلى حقائق الإيمان دون الذوق. فإننا لا ننكر ذوق هذه الحال. وإنما ننكر كونها أكمل من غيرها. فأين الإشارة فى القرآن، أو فى السنة، أو فى كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم إلى هذا الفناء، وأنه هو الكمال. وأن رؤية العبد لفعله بالله وحوله وفضله وشهوده له كذلك: علة تجب التوبة منها؟.

وهذا القدر مما يصعب إنكاره على القوم جداً. ويرمون مُنْكِرَهُ بأنه محجوب من أهل الفرق، وأنه لم يصل إلى هذا المقام. ولو وصل إليه لما أنكره. وليس فى شىء من ذلك حجة لتصحيح قولهم، ولا جواب المطالبة، فقد سألك هذا المحجوب عن مسألة شرعية، وما ذكرتموه ليس بجواب لها.

ولعمر الله إنه يراكم محجوبين عن حال أعظم من هذه الحال، ومقام أرفع منه. وليس فى مجرد الفناء والاستغراق فى شهود القَيومية، وإسقاط الأسباب والعلل والحكم والوسائط كثير علم، ولا معرفة ولا عبودية. وهل المعرفة كل المعرفة، والعبودية: إلا شهود الأشياء على ما هى عليه؟ والقرآن كله مملوء من دعاء العباد إلى التفكر فى الآيات، والنظر فى أحوال المخلوقات. ونظر الإنسان فى نفسه وتفاصيل أحواله. وأخص من ذلك: نظره فيما قدم لغده، ومطالعته لنعم الله عليه بالإيمان والتوفيق والهداية، وتذكر ذلك والتفكر فيه، وحمد الله وشكره عليه. وهذا لا يحصل مع الفناء حتى عن رؤية الرؤية. وشهود الشهود.

ثم إن هذا غير ممكن ألبتة. فإنكم إذا جعلتم رؤيته لتوبته علة يتوب منها. فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضًا علة توجب عليه توبة. وهلم جرا. فلا ينتهى الأمر إلا بسقوط التمييز جملة، والسُّكْر والطمس المنافى للعبودية. فضلاً عن أن يكون غاية للعبودية.

فتأمل الآن تفاصيل عبودية الصلاة. كيف لا تتم إلا بشهود فعلك الذى متى غبت عنه كان ذلك نقصًا فى العبودية.

فإذا قال المصلى: «وجهت وجهى الذى فطر السموات والأرض حنيفًا» فعبودية هذا القول: أن يشهد وجهه وهو قصده وإرادته، وأن يشهد حقيقته. وهى إقباله على الله.

ثم إذا قال: «إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين» فعبودية هذا القول: أن يشهد الصلاة والنسك المضافين إليه لله، ولو غاب عنهما كان قد أضاف إلى الله بلسانه ما هو غائب عن استحضاره بقلبه. فكيف يكون هذا أكمل وأعلى من حال من استحضر فعله وعبوديته، وأضافهما إلى الله، وشهد مع ذلك كونهما به؟ فأين هذا من حال المستغرق الفانى المصطلم الذى قد غاب بمعبوده عن حقه، وقد أخذ منه وغيب عنه؟.

نعم غاية هذا: أن يكون معذوراً. أما أن يكون مقامه أعلى مقام وأجله: فكَلاَّ.

وكذلك إذا قال فى قراءته: «إياك نعبد وإياك نستعين» فعبودية هذا القول: فهم معنى العبادة والاستعانة. واستحضارهما، وتخصيصهما بالله، ونفيهما عن غيره. فهذا أكمل من قول ذلك بمجرد اللسان.

وكذلك إذا قال فى ركوعه: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى، وما استقلّت به قدمى» فكيف يؤدى عبودية هذه الكلمات غائبٌ عن فعله، مستغرق فى فنائه؟ وهل يبقى غير أصوات جارية على لسانه؟ ولولا العذر لم تكن هذه عبودية.

نعم. رؤية هذه الأفعال والوقوف عندها، والاحتجاب بها عن المنعم بها الموفق لها، المان بها: من أعظم العلل القواطع. قال تعالى: ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (١٧) ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالعارف غائب بمنة الله عليه فى طاعته، مع شهودها ورؤيتها. والجاهل غائب بها عن رؤية منة الله. والفانى غائب باستغراقه فى الفناء وشهود القيومية عن شهودها. وهو ناقص. وقد جعل الله لكل شىء قدراً.

تأخير التوبة ذنب تجب التوبة منه

ونذكر نبذًا تتعلق بأحكام التوبة، تشتد الحاجة إليها. ولا يليق بالعبد جهلها.

منهـا: أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور. ولا يجوز تأخيرها. فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى، وهى توبته من تأخير التوبة. وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شىء

آخر. وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة. ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم. فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه. ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم. فإنه عاص بترك العلم والعمل. فالمعصية فى حقه أشد. وفى صحيح ابن حبان : أن النبى ﷺ قال: « **الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل** ». فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال : «**أن تقول: اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم. وأستغفرك لما لا أعلم**» (١).

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد.

فى الصحيح عنه ﷺ : «**أنه كان يدعو فى صلاته: اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لى جدِّى وهَزْلِى، وخطئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى، اللهم اغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ، وما أسررتَ وما أعلنت، وما أَنت أعلم به منى، أنت إلهى لا إله إلا أنت**»(٢).

وفى الحديث الآخر : «**اللهم اغفر لى ذنبى كله، دِقَّهُ وجِلَّهُ. خطأه وعمده. سره وعلانيته، أوله وآخره**»(٣).

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتى التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

التوبة من ذنب دون آخر

وهل تصح التوبة من ذنب، مع الإصرار على غيره؟

فيه قولان لأهل العلم. وهما روايتان عن الإمام أحمد . ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها. كالنووى وغيره.

والمسألة مشكلة، ولها غَوْرٌ، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم. والذين صححوها احتجوا بأنه لماَ صح الإسلام -وهو توبة من الكفر- مع البقاء على معصية لم يتب منها. فهكذا تصح التوبة من ذنب، مع بقائه على آخر.

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره. لقوته ونفاذه، وحصوله -تبعًا بإسلام الأبوين أو أحدهما- للطفل. وكذلك بانقطاع نسب الطفل من أبيه، أو بموت

---

(١) أخرجه أحمد (جـ٤ ص٤٠٣) عن أبى موسى الأشعرى، وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (جـ١٠ ص٢٢٤) وقال: رواه أحمد والطبرانى فى «الأوسط» ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبى على. ووثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٣٩٨، ٦٣٩٩)، ومسلم (جـ٤- ذكر/ ٧٠) عن أبى موسى الأشعرى.

(٣) حديث صحيح :أخرجه مسلم (جـ١- صلاة/ ٢١٦)، وأبو داود (جـ١/ ٨٧٨) كلاهما من حديث أبى هريرة.

أحد أبويه فى أحد القولين. وكذلك يكون بكون سابيه ومالكه مسلمًا، فى أحد القولين أيضًا. وذلك لقوته، وتَشَوُّفُ الشرع إليه، حتى حصل بغير القصد بل بالتبعية.

واحتج الآخرون بأن التوبة: هى الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته، وأى رجوع لمن تاب من ذنب واحد، وأصر على ألف ذنب؟.

قالوا: والله سبحانه إنما لم يؤاخذ التائب، لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته، وتاب توبة نصوحًا. والمُصرُّ على مثل ما تاب منه-أو أعظم-لم يراجع الطاعة ولم يتب توبة نصوحًا.

قالوا: ولأن التائب إذا تاب إلى الله، فقد زال عنه اسم «العاصى» كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم الكافر وأما إذا أصر على غير الذنب الذى تاب منه فاسم «المعصية» لا يفارقه. فلا تصح توبته.

وسر المسألة، أن التوبة: هل تَتَبَعَّضُ كالمعصية، فيكون تائبًا من وجه دون وجه، كالإيمان والإسلام؟

والراجح: تبعضها. فإنها كما تتفاضل فى كيفيتها كذلك تَتَفاضل فى كميتها. ولو أتى العبد بفرض وترك فرضًا آخر، لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر، لأن التوبة فرض من الذنبين، فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر، فلا يكون ما ترك مُوجِبًا لبطلان ما فعل، كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد. معناه الإقلاع عما يكرهه الله، والندم عليه، والرجوع إلى طاعته. فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة. إذ هى عبادة واحدة. فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها. فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض.

وأصحاب القول الآخر يقولون: كل ذنب له توبة تخصه. وهى فرض منه، لا تتعلق بالتوبة من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر.

والذى عندى فى هذه المسألة: أن التوبة لا تصح من ذنب، مع الإصرار على آخر من نوعه. وأما التوبة من ذنب، مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه: فتصح. كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً. فإن توبته من الربا صحيحة. وأما إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة

وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس: فهذا لا تصح توبته. وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها. أو تاب من شرب عصير العنب المسكر. وهو مُصرٌّ على شرب غيره من الأشربة المسكرة. فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدلَ عن نوع منه إلى نوع آخر. بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس. إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع إليها. وقهر سلطان شهوتها له. وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة. لا يحتاج إلى استدعائها، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها. وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه، فلا يدعونه يتوب منها. وله بينهم حظوة بها وجاه. فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة، كما قال أبو نواس لأبي العتاهية- وقد لامه على تهتكه في المعاصي-:

أتراني يا عتاهي تاركًا تلك الملاهي؟
أتراني مُفْسدًا بالنُّسْك عند القومِ جاهي؟

فمثل هذا إذا تاب من قتل النَفس، وسرقة أموال المعصومين، وأكل أموال اليتامى. ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة: صحت توبته مما تاب منه، ولم يؤاخذ به، وبقي مؤاخذاً بما هو مُصِرٌّ عليه. والله أعلم.

أحكام التوبة

ومن أحكام «التوبة» أنه: هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبدًا، أم ليس ذلك بشرط؟

فشرط بعض الناس: عدم معاودة الذنب. وقال: متى عاد إليه تَبَيَّنَّا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط. وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

فإن كانت في حق آدمي: فهل يشترط تحلله؟ فيه تفصيل -سنذكره إن شاء الله- فإذا عاوده، مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده. صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة.

والمسألة مبنية على أصل. وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، إن مات مُصِرًا؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية، فلا يعود إليه إثمه، وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفى هذا الأصل قولان :

فقالت طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول ، لفساد التوبة ، وبطلانها بالمعاودة .

فقالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر ، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه . فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة . كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : **«من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر»** (١) فهذا حال من أسلم وأساء فى إسلامه . ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة فى الإسلام ، فإذا أخذَ بعدها بما كان منه فى حال كفره ، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما ، فهكذا التوبة المَتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تمنع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافاة عليها ، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط . كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه .

قالوا : والتوبة واجبة وجوبًا مضيقًا مدى العمر ، فوقتها مدة العمر ، إذ يجب عليه استصحاب حكمها فى مدة عمره ، فهى بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات فى صوم اليوم . فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ما تقدم من صيامه ، ولم يعتد به ، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح . وهو قوله ﷺ : **«إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»** (٢) وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثانى كفرًا موجبًا للخلود ، أو معصية موجبة للدخول . فإنه لم يقل : «فيرتد فيفارق الإسلام» وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار . وفى بعض السنن : **«إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة. فإذا كان عند الموت جار فى وصيته فدخل النار»** (٣) فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو معصية . والأعمال بالخواتيم .

---

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (جـ١٢ / ٦٩٢١) ، وأخرجه ابن ماجه (جـ٢/ ٤٢٤٢) كلاهما عن ابن مسعود .

(٢) حديث متفق على صحته: أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٥٩٤) ، و مسلم (جـ٤ - قدر/ ١) .

(٣) أخرجه أبو داود فى «سننه» (جـ٣/ ٢٨٦٧) ، والترمذى (جـ٤/ ٢١١٧) ، وابن ماجه (جـ٢/ ٢٧٠٤) من حديث أبى هريرة وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قلت : بل إسناده ضعيف فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف .

فإن قيل: فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات، وهذا قول المعتزلة. والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هى التى تحبط السيئات لا العكس، كما قال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبى ﷺ لمعاذ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(١).

قيل: والقرآن والسنة، قد دلاً على الموازنة. وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يُضْرَبُ كتابُ الله بعضه ببعض، ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه - فعلَ أهل الهوى والتعصب- بل نقبل الحق ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة: فمذكورة فى سورة الأعراف والأنبياء المؤمنون القارعة، والحاقة

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]، وتفسير الإبطال هاهنا بالردة، لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المُبْطلَ ينحصر فيها، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فأبطلاها، شبه سبحانه بطلانها - بالمن والأذى- بحال المتصدق رياءً فى بطلان صدقة كل واحد منهما. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]، وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»(٢) وقالت عائشة- رضى الله عنها- لأم ولد زيد بن أرقم- وقد باع بَيْع العينة- «أخبرى زيداً: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إلا أن يتوب» وقد نص أحمد على هذا فى رواية، فقال: ينبغى للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه. فيستدين ويتزوج، لا يقع فى محظور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة - أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص- جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة. فتصير التوبة كأنها لم تكن. فيلتقى العملان ولا حاجز بينهما. فيكون التأثير لهما جميعًا.

قالوا: وقد دل القرآن، والسنة، وإجماع السلف على الموازنة. وفائدتها: اعتبار

---

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذى (جـ٤/ ١٩٨٧)، وأحمد (جـ٥ ص١٥٣)، والحاكم والبيهقى عن أبى ذر. وفى الباب عن معاذ وأنس.

(٢) أخرجه البخارى(جـ٢ / ٥٥٣)، والنسائى (جـ١ ص٢٣٦)، وأحمد (جـ٥ ص٣٥٠) عن بريدة.

الراجح، فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح. قال ابن مسعود: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة. ثم قرأ: ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٨) **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم** ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح» قال: «ومن استوت حسناته وسيئاته، كان من أصحاب الأعراف».

وعلى هذا: فهل يحبط الراجح المرجوح، حتى يجعله كأن لم يكن، أو يحبط ما قابله بالموازنة، ويبقى التأثير للقدر الزائد؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة.

ينبني عليهما: أنه إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلاً، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة؟ فيثاب على الحسنات كلها، أو يسقط من الحسنات ما قابل السيئات، فلا يثاب عليه، ولا يعاقب على تلك السيئات فيبقى القدر الزائد لا مقابل له فيثاب عليه وحده؟

وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة.

وكذلك إذا رَجَحَتْ السيئاتُ بواحدة، هل يدخل النار بتلك الواحدة التى سلمت عن مقابل، أو بكل السيئات التى رجحت؟ على القولين، هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحكم.

وأما على أصول الجبرية، نفاة التعليل والحكم والأسباب، واقتضائها للثواب والعقاب: فالأمر مردود عندهم إلى محض المشيئة، من غير اعتبار شىء من ذلك، ولا يُدْرَىَ عندهم ما يفعل الله. بل يجوز عندهم أن يعاقب صاحب الحسنات الراجحة، ويثيب صاحب السيئات الراجحة، وأن يدخل الرجلين النار مع استوائهما فى العمل. وأحدهما فى الدرك تحت الآخر، ويغفر لزيد ويعاقب عمراً، مع استوائهما من جميع الوجوه، ويُنَعِّم مَنْ لم يطعه قط. ويعذب من لم يعصه قط، فليس عندهم سبب ولا حكمة، ولا علة، ولا موازنة، ولا إحباط، ولا تدافع بين الحسنات والسيئات، والخوف على المحسن والمسىء واحد. إذ من الجائز تعذيبهما، وكل مقدور له فجائز عليه، لا يعلم امتناعه إلا بإخبار الرسول: أنه لا يكون، فيمتنع وقوعه لمطابقة خبره لعلم الله عز وجل بعد وقوعه.

* *

هل يعود الذنب إذا رجع إليه بعد التوبة منه

واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه بنقض التوبة- بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة ما لم يعمله، وكأنه لم يكن، فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضى.

قالوا: ولا يشترط فى صحة التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: محى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذى يحبط الأعمال، فإن الكفر له شأن آخر، ولهذا يحبط جميع الحسنات، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات. فلو أبطلتها معاودة الذنب: لأبطلت غيرها من الحسنات. وهذا باطل قطعًا، وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب، والمعتزلة المخلدين فى النار بالكبيرة، التى تقدمها الألوف من الحسنات، فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر فى النار، ولكن الخوارج كفروهم، والمعتزلة فسقوهم. وكلا المذهبين باطل فى دين الإسلام، مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** (٤٠)﴾ [النساء: ٤٠].

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده مرفوعًا إلى النبى ﷺ: «**إن الله يحب العبد المُفَتَّن التواب**»(١).

قلت: وهو الذى كلما فتن بالذنب تاب منه، فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوبًا للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة. فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٣٥)﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به. فهذا الذى يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط فى صحة كمالها ونفعها. لا شرط فى صحة ما مضى منها. وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة. فإن تلك عبادة واحدة. لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة: فهى عبادات

---

(١) أخرجه أحمد(جـ١ ص٨٠) عن محمد ابن الحنفية من حديث أبيه على بن أبى طالب. بإسناد ضعيف جدًا فيه من لا يعرف. وانظر «مجمع الزوائد» (جـ١٠ ص٢٠٠).

متعددة بتعدد الذنوب، فكل ذنب له توبة تخصه، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن ما ترك موجبًا لبطلان ما فعل، كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر، فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر ما صامه منه ؟.

بل نظير من صلى ولم يصم، أو زكّى ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة. فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر؛ فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين. ويكون محبوبًا لله مبغوضًا له من وجهين أيضًا. بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر. فيكون من أهله. كما قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف: ١٠٦]، أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفى، وشرك جلى. فالخفى قد يغفر، وأما الجلى فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولا يظلم مثقال ذرة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت: ٤٦].

* *

توبة العاجز عن الذنب

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها . ثم تاب منها توبة نصوحًا خالصة : عادت إليه حسناته ، ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها . بل يقال له : تبت على ما أسلفت من خير ؛ فالحسنات التى فعلتها فى الإسلام أعظم من الحسنات التى يفعلها الكافر فى كفره : من عتاقة ، وصدقة ، وصلة ، وقد قال حكيم بن حزام : يا رسول الله ، أرأيت عتاقة أعتقتها فى الجاهلية ، وصدقة تصدقت بها ، وصلة وصلت بها رحمى ؛ فهل لى فيها من أجر؟ فقال : «**أسلمت على ما أسلفت من خير**»[1] وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة . وصارت كأنها لم تكن ، فتلاقت الطاعتان واجتمعتا . والله أعلم .

التوبة وخطر الإصرار والتسويف

ومن أحكامها : أن العاصى إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية ، وعجز عنها ، بحيث يتعذر وقوعها منه ، هل تصح توبته ؟ وهذا كالكاذب والقاذف ، وشاهد الزور إذا قطع لسانه ، والزانى إذا جُبَّ ، والسارق إذا أتىَ على أطرافه الأربعة ، والمزور إذا قطعت يده ، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلىَ معصية كان يرتكبها .

ففى هذا قولان للناس .

فقالت طائفة : لا تصح توبته ؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك ، فالتوبة من الممكن ، لا من المستحيل ، ولهذا لا تُصَوَّرُ التوبة من نقل الجبال عن أماكنها ، وتنشيف البحار ، والطيران إلى السماء ، ونحوه .

قالوا : ولأن التوبة مخالفة داعى النفس ، وإجابة داعى الحق ، ولا داعى للنفس هنا . إذ يُعْلَم استحالة الفعل منها .

قالوا : ولأن هذا كالمكره على الترك ، المحمول عليه قهرا . ومثل هذا لا تصح توبته .

قالوا : ومن المستقر فى فطر الناس وعقولهم : أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح : توبة غير معتبرة ، ولا يحمدون عليها . بل يسمونها توبة إفلاس ، وتوبة جائحة . قال الشاعر :

ورحت عن توبة سائلاً ... وجدتها توبة إفلاس

---

(١) متفق على صحته : رواه البخارى (جـ١٠ / ٥٩٩٢)، ومسلم (جـ١ - إيمان/ ١٩٤) عن حكيم بن حزام .

قالوا: ويدل على هذا أيضًا: أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع. لأنها توبة ضرورة لا اختيار. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)**﴾ [النساء: ١٧، ١٨]، و«الجهالة» ههنا: جهالة العلم، وإن كان عالمًا بالتحريم. قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصِيَ الله به فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل».

وأما التوبة من قريب: فجمهور المفسرين: على أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت. وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال السُّدِّي والكَلْبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته. وفي المسند وغيره عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١) وفي نسخة دراج - أبي الهيثم - عن أبي سعيد مرفوعًا: «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب عز وجل: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»(٢).

فهذا شأن التائب من قريب. وأما إذا وقع في السياق فقال: إني تبت الآن، لم تقبل توبته. وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله.

قالوا: ولأن حقيقة التوبة: هي كف النفس عن الفعل الذي هو متعلق النهي. والكف إنما يكون عن أمر مقدور، وأما المحال: فلا يعقل كف النفس عنه، ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع.

قالوا: ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم، يقترن به فعله المقدور. والتوبة منه: عزم جازم على ترك المقدور، يقترن به الترك، والعزم على غير المقدور محال، والترك في

---

(١) أخرجه الترمذي (ج٥/ ٣٥٣٧)، وأحمد (جـ ص١٣٢) عن ابن عمر، وابن ماجه (جـ٢/ ٤٢٥٣) عن ابن عمرو وفي إسناد ابن ماجه تدليس الوليد بن مسلم وقد عنعنه وحديث الترمذي حديث حسن، والحديث في «صحيح» ابن حبان وفي «مستدرك» الحاكم أيضًا.

(٢) أخرجه أحمد (جـ٣ ص٧٦) بإسناد ضعيف لكنه حديث حسن بمجموع طرقه انظر «جامع الأحاديث القدسية» (٤٧٨).

حق هذا ضرورى، لا عزم غير مقدور، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء، ونقل الجبال وغير ذلك.

والقول الثاني -وهو الصواب- أن توبته صحيحة ممكنة. بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. وفى المسند مرفوعًا: «**الندم توبة**»[١] فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه، فهذه توبة، وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا والفعل مقدوراً له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نَزَّلَ العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. كقوله فى الحديث الصحيح: «**إذا مرض العبد أو سافر كُتبَ له ما كان يعمل صحيحًا مقيما**»[٢] وفى الصحيح أيضًا عنه: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة. حبسهم العذر**»[٣] وله نظائر فى الحديث. فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً -مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه- منزلة التارك المختار أولى.

يوضحه: أن مفسدة الذنب التى يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة، ومنشأ المفسدة معدوم فى حق هذا العاجز فعلاً وعزمًا، والعقوبة تابعة للمفسدة.

وأيضًا فإن هذا تعذر منه الفعل ما تَعَذَّر منه التمنى والوداد. فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب، ومن نيته: أنه لو كان سليمًا لباشره، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمنى، والحزن على فوته. فإن الإصرار متصور فى حقه قطعًا، فيتصور فى حقه ضده، وهو التوبة. بل هى أولى بالإمكان والتصور من الإصرار، وهذا واضح.

والفرق بين هذا وبين المعاين، ومن ورد القيامة: أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة، والتوبة إنما تكون فى زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف. فالأوامر والنواهى لازمة له، والكف متصور منه عن التمنى والوداد، والأسف على فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله. والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه وبيان تصحيح الحاكم له.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٦/ ٢٩٩٦)، وأحمد (جـ٤ ص٤١٠) عن أبى موسى الأشعرى.

(٣) أخرجه البخارى (جـ٦/ ٢٨٣٩)، وأبو داود (جـ٣/ ٢٥٠٨)، وابن ماجه (جـ٢/ ٢٧٦٤)، وأحمد (جـ٣ ص١٠٣) عن أنس.

التوبة والنية

ومن أحكامـها: أن من توغل فى ذنب، وعزم على التوبة منه، ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضـه، كـمن أولج فى فرج حـرام، ثم عزم على التوبة قبل النزع الذى هو جزء الوطء، وكمن توسط أرضًا مغصوبة، ثم عزم على التوبة. ولا يمكنه إلا بالخروج، الذى هو مَشْىٌ فيها وتصرف، فكيف يتوب من الحرام بحرام مثله؟ وهل تعقل التوبة من الحرام بحرام؟.

فهذا مما أشكل على بعض الناس، حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه فى هذا الفعل الذى يتخلص به من الحرام.

قال: لأنه لا يمكن أن يكون مأمورًا به وهو حرام. وقد تعين فى حقه طريقًا للخلاص من الحرام، لا يمكنه التخلص بدونه، فلا حكم فى هذا الفعل ألبتة. وهو بمنزلة العفو الذى لا يدخل تحت التكليف.

وقالت طائفة: بل هو حرام واجب. فهو ذو وجهين، مأمور به من أحدهما، منهى عنه من الآخر، فيؤمر به من حيث تعينه طريقًا للخلاص من الحرام، وهو من هذا الوجه واجب، وينهى عنه من جهة كونه مباشرة للحرام، وهو من هذا الوجه محرم، فيستحق عليه الثواب والعقاب.

قالوا: ولا يمتنع كون الفعل فى الشرع ذا وجهين مختلفين، كالاشتغال عن الحرام بمباح. فإن المباح إذا نظرنا إلى ذاته -مع قطع النظر عن ترك الحرام- قضينا بإباحته، وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركًا للحرام كان واجبًا.

نعم، غايته: أنه لا يتعين مباح دون مباح، فيكون واجبًا مُخَيَّرًا.

قالوا: وكذلك الصلاة فى الدار المغصوبة، هى حرام، وهى واجبة، وستر العورة بثوب الحرير كذلك: حرام واجب، من وجهين مختلفين.

والصـواب: أن هذا النزع والخروج من الأرض: توبة ليس بحرام. إذ هو مأمور به. ومحال أن يؤمر بالحرام، وإنما كان النزع -الذى هو جزء الوطء- حرامًا بقصد التلـذذ به. وتكميل الوطء، وأما النزع الذى يقصد به مفارقة الحرام، وقطع لذة المعصية، فلا دليل على تحريمه، لا من نص ولا إجماع، ولا قياس صحيح يستوى فيه الأصل والفرع فى علة الحكم.

ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها. وحكمه فيها: **الأمر بالنزع قطعًا. وإلا كانت الاستدامة مباحة، وذلك عين المحال، وكذلك الخروج من الأرض المغصوبة: مأمور به، وإنما تكون الحركة والتصرف فى ملك الغير حرامًا إذا كان على وجه الانتفاع بها، المتضمن لإضرار مالكها، أما إذا كان القصد ترك الانتفاع، وإزالة الضرر عن المالك. فلم يحرم الله ولا رسوله ذلك، ولا دل على تحريمه نظر صحيح، ولا قياس صحيح.**

وقياسه على مشى مستديم الغصب، **وقياس نزع التائب على نزع المستديم: من أفسد القياس وأبينه بطلانًا، ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له وجهان، ولكن إذا تحقق النهى عنه والأمر به: أمكن اعتبار وجهيه، فإن الشارع أمر بستر العورة، ونهى عن لُبْسِ الحرير، فهذا الساتر لها بالحرير قد ارتكب الأمرين، فصار فعله ذا وجهين.**

وأما محل النزاع: **فلم يتحقق فيه النهى عن النزع، والخروج عن الأرض المغصوبة من الشارع ألبتة، لا بقوله ولا بمعقول قوله، إلا باعتبار هذا الفرد بفرد آخر، بينهما أشد تباين، وأعظم فرق فى الحس والعقل والفطرة والشرع.**

وأما إلحاق هذا الفرد بالعفو: **فإن أريد به أنه: مَعْفُوٌّ له عن المؤاخذة به فصحيح. وإن أريد أنه لا حكم لله فيه، بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم، والناسى والمجنون: فباطل. إذ هؤلاء غير مخاطبين، وهذا مخاطب بالنزع والخروج، فظهر الفرق. والله الموفق للصواب.**

فإن قيل: **هذا يتأتى لكم فيما إذا لم يكن فى المفارقة بنزع أو خروج مفسدة. فما تصنعون فيما إذا تضمن مفسدة؟ مثل مفسدة الإقامة، كمن توسط جماعة جرحى لسَلْبهم. فطرح نفسه على واحد، إن أقام عليه قتله بثقله، وإن انتقل عنه لم يجد بدًا من انتقالَه إلى مثله يقتله بثقله، وقد عزم على التوبة، فكيف تكون توبته؟.**

قيل: **توبة مثل هذا: بالتزام أخف المفسدتين، من الإقامة على الذنب المعين أو الانتقال عنه، فإن تساوت مفسدة الإقامة على الذنب ومفسدة الانتقال عنه من كل وجه. فهذا يؤمر من التوبة بالمقدور له منها، وهو الندم، والعزم الجازم على ترك المعاودة، وأما الإقلاع: فقد تعذر فى حقه إلا بالتزام مفسدة أخرى مثل مفسدته.**

فقيل: **إنه لا حكم لله فى هذه الحادثة، لاستحالة ثبوت شىء من الأحكام الخمسة فيها. إذ إقامته على الجريح تتضمن مفسدة قتله، فلا يؤمر بها، ولا هو مأذون له فيها. وانتقاله عنه يتضمن مفسدة قتل الآخر، فلا يؤمر بالانتقال، ولا يؤذن له فيه، فيتعذر الحكم فى هذه الحادثة على هذا، فتتعذر التوبة منها.**

والصــواب: أن التوبة غير متعذرة. فإنه لا واقعة إلا ولله فيها حكم، عَلِمَهُ من عَلِمَهُ وجهله من جهله.

فيقال: حكم الله في هذه الواقعة: كحكمه في الملجأ، فإنه قد ألجئ قدراً إلى إتلاف أحد النفسين ولابد، والمُلْجَأ ليس له فعل يضاف إليه، بل هو آلة. فإذا صار هذا كالملجأ، فحكمه: أن لا يكون منه حركة ولا فعل ولا اختيار، فلا يَعْدلُ من واحد إلى واحد، بل يتخلى عن الحركة والاختيار، ويستسلم استسلام من هو عليه من الجرحى. إذ لا قدرة له على حركة مأذون له فيها ألبتة، فحكمه الفناء عن الحركة والاختيار، وشهود نفسه كالحجر الملقى على هذا الجريح، ولا سيما إن كان قد أُلْقِىَ عليه بغير اختياره، فليس له أن يلقى نفسه على جاره لينجيه بقتله، والقدر ألقاه على الأول، فهو معذور به، فإذا انتقل إلى الثانى انتقل بالاختيار والإرادة، فهكذا إذا ألقى نفسه عليه باختياره ثم تاب وندم، لا نأمره بإلقاء نفسه على جاره، ليتخلص من الذنب بذنب مثله سواء.

وتوبة مثل هذا إنما تتصور بالندم والعزم فقط، لا بالإقلاع، والإقلاع فى حقه مستحيل، فهو كمن أولج فى فرج حرام، ثم شد وربط فى حال إيلاجه بحيث لا يمكنه النزع ألبتة، فتوبته بالندم والعزم والتجافى بقلبه عن السكون إلى الاستدامة، وكذلك توبة الأول بذلك، وبالتجافى عن الإرادة والاختيار. والله أعلم.

التوبة وأداء الحقوق

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمى: أن يخرج التائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به، وإن كان حقًا ماليًا أو جناية على بدنه أو بدن موروثه. كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات**»(١).

وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف: فهل يشترط فى توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفى فى توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه وإعتابه؟

على ثلاثة أقوال. وعن أحمد روايتان منصوصتان فى حد القذف، هل يشترط فى توبة القاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أم لا؟ ويُخَرَّجُ عليهما توبة المغتاب والشاتم.

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٥/ ٢٤٤٩)، وأحمد فى «المسند» (جـ٢ ص٤٣٥) عن أبى هريرة.

والمعروف فى مذهب الشافعى ، وأبى حنيفة ، ومالك : اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا ذكره أصحابهم فى كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمى : فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه ، لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفًا بقدره ، فلابد من إعلام مستحقه به ، لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور. وهو قوله ﷺ : **«من كان لأخيه عنده مظلمة -من مال أو عرض- فليتحلله اليوم»**.

قالوا : ولأن فى هذه الجناية حَقَّيْن : حقًا لله ، وحقًا للآدمى ، فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه ، إن شاء اقتص وإن شاء عفا. وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر : أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه ، بل يكفى توبته بينه وبين الله ، وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته وإحصانه. ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وهذا اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية - قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة ، لا تتضمن مصلحة. فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقًا وغمًا ، وقد كان مستريحًا قبل سماعه ، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثته ضررًا فى نفسه أو بدنه ، كما قال الشاعر :

فإن الذى يؤذيك منه سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه ، فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا : وربما كان إعلامه به سببًا للعداوة والحرب بينه وبين القائل ، فلا يصفو له أبدًا. ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف ، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب ، والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا : والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين :

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه، فلا يجوز إخفاؤها عنه، فإنه محض حقه. فيجب عليه أداؤه إليه، بخلاف الغيبة والقذف، فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط. فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه، ولم تهج منه غضباً ولا عداوة. بل ربما سره ذلك وفرح به، بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً، من أنواع القذف والغيبة والهجو، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد، وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت. والله أعلم.

هل يرجع العبد إلى الدرجة التي كان عليها قبل الذنب؟

ومن أحكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟ اختلف في ذلك.

فقالت طائفة: يرجع إلى درجته؛ لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن. والمقتضى لدرجته: ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه قد حَطَّهُ عن درجته، فحسنته بالتوبة رَقَّتْهُ إليها، وهذا كمن سقط في بئر. وله صاحب شفيق، أدلى إليه حبلاً تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه، فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح، والأخ الشقيق.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله. لأنه لم يكن في وقوف، وإنما كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقي.

قالوا: ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيراً واحداً، ثم عرض لأحدهما ما رده على عقبه أو أوقفه، وصاحبه سائر، فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته، وسار بإثر صاحبه: لم يلحقه أبداً، لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى.

قالوا: والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد سيراً ازدادت قوته، وذلك الواقف الذي رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يحكي هذا الخلاف. ثم قال: والصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه، وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله. وإن كان دونه لم يعد إلى درجته، وكان مُنْحَطًّا عنها، وهذا الذى ذكره هو فصل النزاع فى هذه المسألة.

ويتبين هذا بمثلين مضروبين:

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن. فهو يعدو مرة ويمشى أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى، فبينا هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل، وماء بارد ومقيل، وروضة مزهرة. فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها، فوثب عليه منها عدو، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه عن السير، فعاين الهلاك، وظن أنه منقطع به، وأنه رزقُ الوحوش والسباع، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذى يؤمه، فبينا هو على ذلك تتقاذفَه الظنون، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر، فَحَلَّ كتَافه وقيوده، وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو، فإنه على منازل الطريق لك بالمَرصاد، واعلم أنك ما دمت حاذراً منه، متيقظًا له لا يقدر عليك، فإذا غفلت وثب عليك، وأنا متقدمك إلى المنزل، وفرط لك فاتبعنى على الأثر.

فإن كان هذا السائر كيسًا فطنًا لبيبًا، حاضر الذهن والعقل، استقبل سيره استقبالاً آخر، أقوى من الأول وأتم، واشتد حذره، وتأهب لهذا العدو، وأعد له عدته؛ فكان سيره الثانى أقوى من الأول، وخيراً منه، ووصوله إلى المنزل أسرع، وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول، من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان، وهو معرض لما عرض له أولاً.

وإن أورثه ذلك توانيًا فى سيره وفتوراً، وتذكراً لطيب مَقيله، وحُسْن ذلك الروض وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكونًا بقلبه إليه: لم يعد إلى مثل سَيْرَه ونقص عَما كان.

المثل الثانى: عبد فى صحة وعافية جسم، عرض له مرض أوجب له حمية وشرب دواء وتحفظًا من التخليط، ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لكمال قوته وصحته، فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لَعَلَّ عتبك محمودٌ عُواقبُهُ ... وربما صَحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفًا فى القوة، وتداركه بمثل ما نقص من قوته، عاد إلى مثل ما كان.

وإن تداركه بدون ما نقص من قوته، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة.

وفى هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة فى الصف الأول، لا يَلْوِى على شىء فى طريقه، فعرض له رجل من خلفه جبذ ثوبه وأوقفه قليلاً يريد تعويقه عن الصلاة. فله معه حالان.

أحدهما: أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة، فهذه حال غير التائب.

الثانى: أن يجاذبه على نفسه، ويتفلت منه، لئلا تفوته الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يكون سيره جمزاً ووثبًا، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة، فربما استدركه وزاد عليه.

الثانى: أن يعود إلى مثل سيره.

الثالث: أن تورثه تلك الوقفة فتوراً وتهاونًا، فيفوته فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت. فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

تفضيل الطائع على التائب توبة نصوحا

ويتبين هذا بمسألة شريفة، وهى أنه: هل المطيع الذى لم يعص خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحًا، أو هذا التائب أفضل منه؟

اختلف فى ذلك.

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحًا، واحتجوا بوجوه:

أحدها: أن أكمل الخلق وأفضلهم: أطوعهم لله، وهذا الذى لم يعص أطوعُ، فيكون أفضلَ.

الثانى: أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق. فتكون درجته أعلى من درجته. وغايته: أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه، وذاك فى سير آخر، فأنى له بلحاقه؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين فى الكسب، كلما كسب أحدهما شيئًا كسب الآخر مثله. فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه، وأمسك عن الكسب المستأنف. والآخر مجد فى الكسب، فإذا أدركته حمية المنافسة، وعاد إلى الكسب: وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئًا كثيراً، فلا يكسب شيئًا إلا كسب صاحبه نظيره، فأنى له بمساواته؟

الثالث: أن غاية التوبة: أن تمحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها، فيكون سعيه فى مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح ؟.

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره. ففى مدة اشتغال هذا بالذنوب: كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا، فالله لم يزل عنه راضيًا، ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضيًا عنه ثم مقته، ثم رضى عنه، فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم؛ والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هى الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه، وربما أدّيا به إلى التلف أو المرض أبدًا.

السادس: أن العاصى على خطر شديد، فإنه دائر بين ثلاثة أشياء. أحدها: العطب والهلاك بشرب السم. الثاني: النقصان من القوة وضعفها، إن سلم من الهلاك. الثالث: عَوْدُ قُوَّته إليه كما كانت أو خيرًا منها بعيد.

والأكثر إنما هو القسمان الأولان، ولعل الثالث نادر جدًا، فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطًا حصينًا. لا يجد الأعداء إليه سبيلاً. فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته فى زيادة ونمو أبدًا. والعاصى قد فتح فيه ثغرًا، وثلم فيه ثلمةً. ومكن منه السراق والأعداء، فدخلوا فعاثوا فيه يمينًا وشمالاً: أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه، وقطعوا ثمراته، وأحرقوا فى نواحيه. وقطعوا ماءه. ونقصوا سقيه. فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول ؟ فإذا تداركه قَيِّمُهُ ولَمَّ شَعَثَهُ، وأصلح ما فسد منه، وفتح طرق مائه، وعَمَّرَ ما خرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أو خيرًا. ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذى لم يزل على نضارته وحسنه. بل فى زيادة ونمو، وتضاعف ثمرة، وكثرة غرس.

والثامن: أن طمع العدو فى هذا العاصى إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته. ولذلك يسمى جاهلاً، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصِىَ الله به فهو جهالة. وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه: ١١٥]، وقال فى حق غيره: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوى إيمانه: لم يطمع فيه عدوه؛ وكان أفضل.

التاسع: أن المعصية لابد أن تؤثر أثرًا سيئًا ولابد: إما هلاكًا كليًا. وإما خسرانًا وعقابًا، يعقبه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان، وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير، وعمل المطيع فى الزيادة، ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة. فإنه يعمل فى زيادة الدرجات، وغيره يعمل فى تكفير السيئات، وأين هذا من هذا ؟.

العاشر: أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله، وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم، وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله. فسافر ثانيًا برأس ماله الأول وكَسْبه، فكسب عشرة أضعافه أيضًا، فسافر ثالثًا أيضًا بهذا المال كله، وكان ربحه كذلك، وهَلُم جرا. فإذا فتر عن السفر فى آخر أمره، مرة واحدة، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه. وهذا معنى قول الجنيد رحمه الله: «لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله» وهو صحيح بهذا المعنى. فإنه قد فاته فى مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها، وهو أزيد من الربح المتقدم، فإذا كان هذا حال من أعرض، فكيف من عصى وأذنب ؟ وفى هذا الوجه كفاية.

وجوه ترجيح التائب المحسن على من لم يعص

وطائفة رجحت التائب- وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه- واحتجت بوجوه:

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه، فإنه سبحانه يحب التوابين، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة، وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة، يوضح ذلك:

الوجه الثانى: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة، بعد ما فقدها، وأيس من أسباب الحياة- ولم يجئ هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة- ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا فى حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية، فيصير حبيبًا لله، فإن الله يحب التوابين، ويحب العبد المفتن التواب. ويوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله،

والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها. يوضحه:

الوجــه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره. فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذل الفقر، والعبودية، والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية. والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه، كما فى الأثر الإسرائيلى: «يا رب أين أجدك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلى»[١] ولأجل هذا كان: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»**[٢] لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه.

وتأمل قول النبى ﷺ -فيما يروى عن ربه - عز وجل-: **«أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمنى. قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. ابن آدم، استسقيتك فلم تسقنى. قال: يا رب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين ؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى. ابن آدم، مرضتُ فلم تعدنى. قال: يا رب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدى فلانًا مرض فلم تعده، أما لو عُدتَّهُ لوجدتنى عنده»**[٣] فقال فى عيادة المريض «لوجدتنى عنده» وقال فى الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندى» ففرق بينهما. فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلابد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمنًا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا -والله أعلم- هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التى فى قلب كل واحد منهم، فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد فى نفسه. وكذلك الصوم، فإنه يكسر سَوْرَةَ النفس السبعية الحيوانية، ويذلها.

والقصـــد: أن شمعة الجبر والفضل والعطايا، إنما تنزل فى شمعدان الانكسار. وللعاصى التائب من ذلك أوفر نصيب؛ يوضحه:

الوجــه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من

---

(١) هو من الآثار الإسرائيلية: ذكره الغزال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سهل الحافظ المقرئ أحد شيوخ أبى نعيم الحافظ والأثر فى «الإتحافات السنية» (١٦٥). وفى «جامع الأحاديث القدسية» (٨٧٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (جـ٤ ص٤٢١)، و مسلم فى «صحيحه» (جـ١ - صلاة/ ٢١٥)، و النسائى (جـ٢ ص٢٢٦) عن أبى هريرة.

(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ٤ - بر/ ٤٣) وغيره.

الطاعات. وهذا معنى قول بعض السلف: «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه، فيحدث له انكسارًا، وتوبة، واستغفارًا، وندمًا، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة. فلا تزال نصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجبًا وكبرًا ومنةً، فتكون سبب هلاكه، فيكون الذنب موجبًا لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه مُنَكِّسًا رأسَهُ خَجلاً، باكيًا نادمًا، مستقيلاً ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولَةَ، وكبرًا، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المان بها، وبحاله على الله عز وجل وعباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيد على ما فى قلبه، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه، ويخضعوا له، ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك. ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامنًا. ولهذا تراه عاتبًا على من لم يعظمه ويعرف له حقه متطلبًا لعيبه فى قالب حمية لله، وغضب له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا، فتح له باب المعاذير والرجاء. وأغمض عنه عينه وسمعه، وكف لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود. وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكَفَّرُ بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه».

فإذا أراد الله بهذا العبد خيرًا ألقاه فى ذنب يكسره به. ويُعَرِّفُهُ قدْرَه. ويكفى به عباده شره، وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العُجْب والكبْر والمنة عليه وعلى عباده. فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمَنزلةَ شَرَب الدواء ليستخرج به الداء العضال، كما قيل بلسان الحال فى قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه:

يا آدم، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك، فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به، وألبست بها حلة العبودية.

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

يا آدم، إنما ابتليتك بالذنب لأنى أحب أن أظهر فضلى، وجُودى وكرمى، على من عصانى: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»[1].

---

(١) سبق تخريجه؛ وهو حديث صحيح.

يا آدم، كنت تدخل عَلَيَّ دخول الملوك على الملوك، واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك.

يا آدم، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب، فعلى من أجود بحلمي؟ وعلى من أجود بعفوى ومغفرتى، وتوبتى، وأنا التواب الرحيم؟.

يا آدم، لا تجزع من قولى لك: «اخرج منها» فلك خلقتها، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة، وابذر بذر التقوى، وأمطر عليه سحائب الجفون، فإذا اشتد الحب واستغلظ، واستوى على سوقه، فتعال فاحصده.

يا آدم، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إلىَّ فى الصعود، وما أخرجتك منها نفيًا لك عنها، ما أخرجتك منها إلا لتعود.

إن جرى بيننا وبينك عَتْبٌ وتناءت منا ومنك الديارُ
فالوداد الذى عَهِدتَ مقيمٌ والعثارُ الذى أصَبْتَ جُبَارُ

يا آدم، ذنب تَذلُّ به لدينا، أحب إلينا من طاعة تُدلُّ بها علينا.

يا آدم، أنين المذنبين، أحب إلينا من تسبيح المُدلِّين.

«يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتنى غفرت لك.

يا ابن آدم، لو لقيتنى بِقُرَابِ الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا. أتيتك بقرابها مغفرة»(١).

يذكر عن بعض العُبَّاد: أنه كان يسأل ربه فى طوافه بالبيت، أن يعصمه ثم غلبته عيناه، فنام. فسمع قائلاً يقول: أنت تسألنى العصمة، وكل عبادى يسألوننى العصمة. فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتى وعفوى؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمى وعفوى ومغفرتى وفضلى؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، إذا آمنت بى ولم تشرك بى شيئًا، أقمت حملة عرشى ومن حوله يسبحون بحمدى ويستغفرون لك وأنت على فراشك، وفى الحديث العظيم الإلهى حديث أبى ذر: **«يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فمن علم أنى ذو قدرة**

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (٣٥٤٠) عن أنس، وأحمد (جـ٥ ص١٦٧) عن أبى ذر.

على المغفرة غفرت له ولا أبالى»(١) ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

«يا عبدى! لا تعجز، فمنك الدعاء وعلَيَّ الإجابة، ومنك الاستغفار وعلى المغفرة. ومنك التوبة وعلى تبديل سيئاتك حسنات» يوضحه:

الوجه السادس: وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس- رضى الله عنهما-: «ما رأيت النبى ﷺ فرح بشىء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت؛ وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]».

واختلفوا فى صفة هذا التبديل، وهل هو فى الدنيا، أو فى الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنا عفة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بُدِّلُوا عوضَهَا صفات جميلةً، وأعمالاً صالحةً، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى فى جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ:(٢) «إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغارَ ذنوبه. ويُخَبَّأ عنه كبَارُها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشَفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لى ذنوبًا ما أراها ههنا. قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح. ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد

(١) أخرجه مسلم فى «صحيحه» (جـ٤- بر/ ٥٥).

(٢) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٥٩٥ عن ابن مسعود، (جـ٤/ ٢٥٩٦) عن أبى ذر، وأخرجه أحمد أيضًا (جـ٥ ص١٧٠) من حديث أبى ذر.

عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب، والكلام إنما هو فى تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين فى هذا الحديث ما يدل على ذلك ؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به فى تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهى أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه، فلابد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقى عليه شىء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهى أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار، فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزالة النار بدل منها. وهى الأصل. فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

الوجه التاسع: وهو أن التائب قد بُدِّلَ كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التى حلت محله وهى حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها، وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

الوجه العاشر: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر،

وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتنى لم أوقعه فيما أوْقَعْتُهُ فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه فى الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠]، ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما فى الحديث: فإن الذى عذب على ذنوبه لم يبدلها فى الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات، فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبى ﷺ عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن فى الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: «أخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع فى تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر، وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثانى: ضحك النبى ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يُفْعَلُ به من الإحسان، وما يُقرُّ به على نفسه من الذنوب، من غير أن يُقَرَّرَ عليها ولا يُسْأَلَ عنها. وإنما عرضت عليه الصَغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

* *

التوبة فى القرآن الكريم

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه فى الحال، وبالندم عليه فى الماضى. وإن كان فى حق آدمى: فلابد من أمر رابع، وهو التحلل منه.

وهذا الذى ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة فى كلام الله ورسوله- كما تتضمن ذلك- تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة. وهى اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين. وهى كلفظة «التقوى» التى تقتضى عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه. وتقتضى عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره. فهى رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها. والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٣١﴾﴾[النور: ٣١]، فكل تائب مفلح. ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴿١١﴾﴾[الحجرات: ١١]، وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب وظالم. ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿**الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**﴾[التوبة: ١١٢]، فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هى مجموع هذه الأمور، وإنما سمى تائبًا: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذًا «التوبة» هى حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل فى مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذًا «التوبة» هى الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل فى مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته. كما تقدم، وهى الغاية التى وجد لأجلها الخلق، والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علمًا وعملاً وحالاً، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

التوبة والاستغفار

وأما «الاستغفار» فهو نوعان. مفرد، ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١٠، ١١]، وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: ٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]، والمقرون كقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، وقول هود لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠]، فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله. وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر. فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المِغْفَرُ، لما يقى الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى مغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلابد في لفظ المغفر من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]، فإن الله لا يعذب مستغفراً. وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله.

فههنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التى فيها نجاته، والتى توصله إلى مقصوده. وفيها فلاحه.

فههنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء. والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣]، فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم.

حقيقة التوبة النصوح

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها. قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [التحريم: ٨]، فجعل وقاية شر السيئات -وهو تكفيرها- بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات- وهو حصول ما يحب العبد- منوطًا بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق فى الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص، فالنصح فى التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها- ومرجعها إلى شيء واحد- فقال عمر بن الخطاب، وأبى بن كعب- رضى الله عنهما-: التوبة النصوح: «أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع» وقال الحسن البصرى: «هى أن يكون العبد نادمًا

على ما مضى، مجمعًا على أن لا يعود فيه». وقال الكلبى: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن، وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحًا تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أى قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْهَا بغش، فهى إما بمعنى منصوح فيها، كَرَكُوبَةٍ وحَلَوبَةٍ، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أى ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظى: «يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سَيِّئِ الإخوان».

قلت: النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثانى: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى صحتها وخلوصها لله- عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهى أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

فى الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب. وقد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كُلاً منهما منفرداً عن الآخر، فالمقترنان كقوله تعالى حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾[آل عمران: ١٩٣]، والمنفرد كقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن

ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴿٢﴾﴾ [محمد: ٢]، وقوله فى المغفرة: ﴿ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ [محمد: ١٥]، وكقوله: ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا﴾ [آل عمران:١٤٧]، ونظائره.

فههنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات: الصغائر، وهى ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه. ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة، ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين، فلا تعمل فى قتل العمد، ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة.

والدليل على أن السيئات هى الصغائر، والتكفير لها: قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

ولفظ «المغفرة» أكمل من لفظ «التكفير» ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر. فإن لفظ «المغفرة» يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ «التكفير» يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما فى الآخر، كما تقدم. فقوله تعالى: ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ [محمد:٢]، يتناول صغائرها وكبائرها، ومحوها ووقاية شرها، بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال. كما قال تعالى ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا.

وإذا فهم هذا فهم السر فى الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة. كقوله فى الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى- حتى الشوكة يشاكها- إلا كفر الله بها من خطاياه**»(٢) فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب. ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب. فهى كالبحر لا يتغير بالجيف، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها فى الدنيا، فإن لم تف بطهرهم طُهِّروا فى

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ١- طهارة/ ١٦)، وأحمد (جـ٢ ص٣٥١) عن أبى هريرة.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (جـ١٠ / ٥٦٤١، ٥٦٤٢)، وأحمد (جـ٢ ص٣٠٣) عن أبى سعيد وأبى هريرة.

نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانيًا، قبولاً وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء. فيهتدى بهدايته. فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، فهداهم أولا فاهتدوا، فزادهم هدًى ثانيًا، وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول»، و«الآخر» فهو المُعِدُّ. وهو الممد، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرفُ الخلق به: «وأعوذ بك منك» والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

و«التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلاً إلى رضوانه. وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)

صراطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥٢، ٥٣] ، وبقوله: ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** (٢٤) ﴾[الحج: ٢٤] .

ونهايتها: الرجوع إليه فى المعاد، وسلوك صراطه الذى نصبه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة: رجع إليه فى المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** (٧١) ﴾[الفرقان: ٧١] ، قال البغوى وغيره: «يتوب إلى الله متابًا: يعود إليه بعد الموت، متابًا حسنًا يفضل على غيره» فالتوبة الأولى -وهى قوله: «ومن تاب»- رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثانى: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر، والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصًا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه. ورجع إليه. والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا -على أحد التأويلين- قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾[المائدة: ٦٧] ، أى اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوى العزم وصار جازمًا: وجد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزمًا، فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً. وهذا نظير قوله ﷺ : «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١) .

* *

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ١/ ١)، و مسلم (جـ٣- إمارة/ ١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب.

الذنوب

و«الذنوب» تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار. قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان - مكفرات لِمَا بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»**(١).

وأما ما يحكى عن أبى إسحاق الاسفرائينى أنه قال: «الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر». فليس مراده: أنها مستوية فى الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم، كإثم الوطء فى الحرام. وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عصى بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر فى ذلك لفظى لا يرجع إلى معنى.

والذى جاء فى لفظ الشارع، تسمية ذلك «لممًا» و«مُحَقَّرات» كما فى الحديث: **«إياكم ومحقرات الذنوب»** وقد قيل: إن اللمم المذكور فى الآية من الكبائر. حكاه البغوى وغيره.

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يُلمَّ بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهى عنها، لا يتخذها دأبه، وعلى هذا يَكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لممًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، وهو منقطع. أى لكن يقع منهم اللمم.

وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب -والغالب خلافه- أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ فى الإيجاب هنا معنى النفى صريحًا. فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش. فَحَسُنَ استثناء اللمم.

ولعل هذا الذى شجع أبا إسحاق على أن قال: «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل فى الاستثناء الاتصال، ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ثم اختلفوا فى فصلين. أحدهما: فى «اللمم» ما هو؟ والثانى: فى «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها، أو حد يحدها؟ فلنذكر شيئًا يتعلق بالفصلين.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا، وهو حديث صحيح مروى فى مسلم.

آراء السلف فى اللَّمَمِ

فأما «اللمم» فقد روى عن جماعة من السلف : أنه الإلمام بالذنب مرة ، ثم لا يعود إليه ، وإن كان كبيراً. قال البغوى : «هذا قول أبى هريرة ، ومجاهد ، والحسن ، ورواية عطاء عن ابن عباس» . قال : «وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم ما دون الشرك» قال السدى : قال أبو صالح : سئلت عن قول الله عز وجل إلا اللمم؟ فقلت : هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس فقال : «لقد أعانك عليها ملك كريم» .

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر. وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ، كما فى صحيح البخارى من حديث طاووس عنه قال: «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النظر، وزنا اللسان: النطق. والنفس تَمَنَّى وتشتهى، والفَرْجُ يصدق ذلك أو يكذبه**» رواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة ، وفيه والعينان زناهما : النظر . والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان : زناه الكلام ، واليد : زناها البطش . والرجل : زناها الخُطَى» .

وقال الكلبى : «اللمم» على وجهين . كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً فى الدنيا ، ولا عذابًا فى الآخرة ، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر : هو الذنب العظيم ، يلم به المسلم المرة بعد المرة . فيتوب منه .

قال سعيد بن المسيب : هو ما ألم بالقلب ، أى ما خطر عليه .

قال الحسين بن الفضل : اللمم النظر من غير تعمد . فهو مغفور . فإن أعاد النظر . فليس بلمم ، وهو ذنب . وقد روى عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ:

«**إن تغفر اللهم تغفر جمًا * وأى عبد لك لا أَلَمَّا**»

وذهبت طائفة ثالثة : إلى أن «اللمم» ما فعلوه فى الجاهلية قبل إسلامهم . فالله لا يؤاخذهم به . وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا» . فأنزل الله هذه الآية وهذا قول زيد بن ثابت ، وزيد بن أسلم .

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب ، كالنظرة ، والغمزة ، والقبلة ، ونحو ذلك ، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وهو قول أبى هريرة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس ، ومسروق ، والشعبى . ولا ينافى هذا قول أبى هريرة ، وابن عباس فى الرواية الأخرى : «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن اللمم إما أنه يتناول هذا وهذا ،

ويكون على وجهين، كما قال الكلبى ، أو أن أبا هريرة ، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة -ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة فى عمره- باللمم. ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم فى حق من تكررت منه مراراً عديدة، وهذا من فقه الصحابة- رضى الله عنهم- وغَوْرِ علومهم. ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما يخاف العنت علىَ من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مراراً كثيرة. وفى ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا. ويذكر عن على- رضى الله عنه-: «أنه دفع إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت. فلما قطعت يده قال: اصدقنى. كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم، فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبى هريرة ، وابن عباس ، متفقان غير مختلفين. والله أعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينًا بعد حين، فإنه يقال: ألم بكذا. إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمزة لممًا، لأنها تلم بما بعدها، ويقال: فلان لا يزورنا إلا لمامًا، أى حينًا بعد حين، فمعنى اللفظة ثابت فى الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية، وليس معنى الآية: «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم، فإنهم لا يجتنبونه» فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال، وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه، فإن سياق الكلام فى تقسيم الناس إلى محسن ومسىء، وأن الله يجزى هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ومضمون هذا: أنه لا يكون محسنًا مجزيًا بإحسانه، ناجيًا من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فحسن حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل فى الكبائر، فإنه داخل فى جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول فى جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل فى نفسه. ولم يتناوله لفظه كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، فإن السلام داخل فى الكلام الذى هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، فإن الحميم والغساق داخل فى جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل فى الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفى الثانى: لا يذوقون فيها شيئًا إلا حميمًا وغسّاقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذى يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله

تعالى: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ [النساء: ١٥٧]، فإن الظن داخل فى الشعور الذى هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يُفْهِمُهُ الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ [النساء: ٢٢]، إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو، وكذلك: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ [النساء: ٢٣]، وإن كان المراد به: ما كان فى شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال إلا ما قد سلف.

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

وأما قوله: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [الدخان: ٥٦]، فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفى الأول العام بمنزلة النص الذى لا يتطرق إليه استثناء ألبتة، إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع، فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم، وهذا جار فى كل منقطع، فتأمله فإنه من أسرار العربية.

فقوله: «وما بالرَّبْعِ من أحد الأوارى» يفهم منه لو وجدت فيها أحدًا لاستثنيته ولم أعدل إلى الأوارى التى ليست بأحد.

وقريب من هذا لفظة «أو» فى قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧]، هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهى كالحجارة فى القسوة لا دونها، وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها، فَذِكْر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

* *

آراء السلف فى الكبائر

وأمــا الكبــائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفى الصحيحين من حديث الشعبى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»(١).

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه عن النبى ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ -ثلاثـا**» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**الإشراك بالله، وعقـوق الوالدين -وجلس وكان متكئًا- فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت**»(٢).

وفى الصحيح من حديث أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: «يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك. قال قلت: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال قلت: ثم أى؟ قال: أن تزانى بحليلة جارك(٣). فأنزل الله تعالى تصديق قول النبى ﷺ: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾ [الفرقان: ٦٨]».

وفى الصحـيحين من حديث أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قـال: «**اجتنـبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مـال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقـذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٤).

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله ابن عمرو- رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قـال: «**من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه. قالوا: وكـيف يسب الرجل والديه؟ قـال: يسب أبا الرجل، فيـسب أباه، ويسب أمه، فـيسب أمه**»(٥).

---

(١) أخرجه البـخارى (جـ١١/ ٦٦٧٥)، والنسائى (جـ٧ ص٨٩)، والترمذى فى «التفسير» ولم أجده فى مسلم من حديث الشعبى عامر بن شراحيل عن عبد الله بن عمرو وعزاه المزى فى أطرافه إليه.

(٢) أخرجه البخارى (جـ١٠ / ٥٩٧٦)، ومسلم (جـ١ - إيمان/ ١٤٣) عن أبى بكرة.

(٣) أخرجه البخارى (جـ١٠ / ٦٠٠١)، ومسلم (جـ١ - إيمان/ ١٤١) عن عبد الله.

(٤) أخرجه البخارى (جـ٥/ ٢٧٦٦)، ومسلم (جـ١ - إيمان/ ١٤٥) عن أبى هريرة.

(٥) أخرجه البخارى (جـ١٠ / ٥٩٧٣)، ومسلم (جـ١ - إيمان/ ١٤٦) عن عبد الله بن عمرو.

وفى حديث أبى هريرة - رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر: استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم بغير حق**»(١) .

وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه- : «أكبر الكبائر : الشرك بالله . والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» .

قال سعيد بن جبير : سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبع هن ؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال: «كل شىء عصى الله به فهو كبيرة، من عمل شيئًا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد فى النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذبًا بالقدر» .

وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه- : «ما نهى الله عنه فى سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾[النساء: ٣١] ، فهو كبيرة» وقال على بن أبى طلحة : «هى كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب» .

وقال الضحاك : هى ما أوعد الله عليه حداً فى الدنيا، أو عذابًا فى الآخرة .

وقال الحسين بن الفضل : ما سماه الله فى القرآن كبيراً، أو عظيمًا . نحو قوله: ﴿**إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)**﴾[النساء: ٢] ، ﴿**إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)**﴾[الإسراء: ٣١] ، ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾[لقمان: ١٣] ، ﴿**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)**﴾[يوسف: ٢٨] ، ﴿**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)**﴾[النور:١٦] ، ﴿**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)**﴾[الأحزاب: ٥٣] .

قال سفيان الثورى : الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد . والصغائر : ما كان بينك وبين الله . لأن الله كريم يعفو . واحتج بحديث يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «**ينادى مناد من قبل بطنان العرش يوم القيامة: يا أمة محمد، إن الله عز وجل قد عفا عنكم جميعكم، المؤمنين والمؤمنات. فتواهبوا المظالم بينكم، وادخلوا الجنة برحمتى**»(٢) .

قلت: مراد سفيان : أن الذنوب التى بين العبد وبين الله أسهل أمرًا من مظالم العباد . فإنها تزول بالاستغفار، والعفو والشفاعة وغيرها . وأما مظالم العباد : فلابد من استيفائها .

---

١) أخرجه أبو داود (جـ٤/ ٤٨٧٧) عن أبى هريرة، وأحمد (جـ١ ص١٩٠) عن سعيد بن زيد .

٢) حديث أنس ذكره الغزالى فى «الإحياء» فى فضيلة العفو والإحسان. وقال العراقى : أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرى فى كتاب «التبصرة والتذكرة» وإسناده ضعيف.

وفى المعجم للطبرانى «الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا وهو الشرك بالله، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾[النساء: ٤٨]، وديوان لا يترك الله منه شيئًا وهو مظالم العباد بعضهم بعضًا، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين الله».

ومعلوم أن هذا الديوان مشتمل على الكبائر والصغائر، لكن مستحقه أكرم الأكرمين. وما يعفو عنه من حقه ويهبه أضعاف أضعاف ما يستوفيه، فأمره أسهل من الديوان الذى لا يترك منه شيئًا لعدله، وإيصال كل حق إلى صاحبه.

وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة.

قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة. فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع، وهذا معنى قول بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها.

وقيل: الكبائر ذنوب العمد. والسيئات: الخطأ والنسيان، وما أكره عليه، وحديث النفس، المرفوعة عن هذه الأمة.

قلت: هذا من أضعف الأقوال طردًا وعكسًا، فإن الخطأ والنسيان والإكراه لا يدخل تحت جنس المعاصى، حتى يكون أحد قسميها.

والعمد نوعان: نوع كبائر، ونوع صغائر، ولعل صاحب هذا القول يرى: أن الذنوب كلها كبائر، وأن الصغائر ما عفا الله لهذه الأمة عنه، ولم يدخل تحت التكليف، وهذا غير صحيح؛ فإن الكبائر والصغائر نوعان تحت جنس المعصية، ويستحيل وجود النوع بدون جنسه.

وقيل: الكبائر ذنوب المستحلين، مثل ذنب إبليس، والصغائر: ذنوب المستغفرين. مثل ذنب آدم.

قلت: أما المستحل: فذنبه دائر بين الكفر والتأويل، فإنه إن كان عالمًا بالتحريم فكافر. وإن لم يكن عالمًا به فمتأول أو مقلد، وأما المستغفر: فإن استغفاره الكامل يمحو كبائره وصغائره، فلا كبيرة مع الاستغفار.

فهذا الفرق ضعيف أيضًا، إلا أن يكون مراد صاحبه: أن ما يفعله المستحل من الذنب أعظم عقوبة مما يفعله المعترف بالتحريم، النادم على الذنب، المستغفر منه. وهذا صحيح.

وقال السدى : الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبار، والسيئات مقدماتها. وتوابعها مما يجتمع فيه الصالح والفاسق، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها، واحتج بقول النبى ﷺ : «**العينان تزنيان. والرجلان تزنيان. ويصدق ذلك كله الفرج أو يكذبه**»(١).

وقيل : الكبائر ما يستصغره العباد، والصغائر : ما يستعظمونه، فيخافون مواقعته. واحتج أرباب هذه المقالة بما روى البخارى فى صحيحه عن أنس- رضى الله عنه- قال : «إنكم لتعملون أعمالاً، هى أدق فى أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»(٢).

قلت: أما قول السدى : « الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبار» فبيان للشىء بنفسه. فإن الذنوب الكبار : هى الكبائر، وإنما مراده : أن المنهى عنه قسمان. أحدهما : ما هو مشتمل على المفسدة بنفسه، ونفس فعله منشأ المفسدة، فهذا كبيرة، كقتل النفس والسرقة، والقذف والزنا.

الثانى: ما كان من مقدمات ذلك ومباديه، كالنظر واللمس، والحديث والقبلة، الذى هو مقدمة الزنا، فهو من الصغائر، فالصغائر : من جنس المقدمات، والكبائر : من جنس المقاصد والغايات.

وأما من قال : «ما يستصغره العباد فهو كبائر، وما يستكبرونه فهو صغائر» فإن أراد : أن الفرق راجع إلى استكبارهم واستصغارهم، فهو باطل. فإن العبد يستصغر النظرة، ويستكبر الفاحشة.

وإن أراد : أن استصغارهم للذنب يكبره عند الله، واستعظامهم له يصغره عند الله. فهذا صحيح. فإن العبد كلما صغرت ذنوبه عنده كبرت عند الله، وكلما كبرت عنده صغرت عند الله. والحديث إنما يدل على هذا المعنى، فإن الصحابة -لعلو مرتبتهم عند الله وكمالهم- كانوا يعدون تلك الأعمال موبقات. ومَنْ بَعْدَهُمْ -لنقصان مرتبتهم عنهم. وتفاوت ما بينهم- صارت تلك الأعمال فى أعينهم أدق من الشعر.

وإذا أردت فهم هذا فانظر : هل كان فى الصحابة من إذا سمع نص رسول الله ﷺ عارضه بقياسه، أو ذوقه، أو وجده، أو عقله، أو سياسته ؟ وهل كان قط أحد منهم يُقَدِّمُ على نص رسول الله ﷺ عقلاً أو قياسًا، أو ذوقًا، أو سياسة، أو تقليد مقلد؟ فلقد أكرم الله

---

(١) أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٣٤٣، ٦٦١٢)، ومسلم (جـ٤- قَدَر/ ٢٠، ٢١) من حديث أبى هريرة.

(٢) أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٤٩٢)، أحمد (جـ٣ ص١٥٧) عن أنس.

أعينهم وصانها أن تنظر إلى وجه من هذا حاله، أو يكون فى زمانهم، ولقد حكم عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- على من قدم حكمه على نص الرسول بالسيف. وقال: «هذا حكمى فيه» فيالله! كيف لو رأى ما رأينا، وشاهد ما بلينا به من تقديم رأى كل فلا ن وفلان على قول المعصوم، ﷺ. ومعاداة من اطرح آراءهم، وقدم عليها قول المعصوم؟ فالله المستعان، وهو الموعد، وإليه المرجع.

وقيل: الكبائر: الشرك وما يؤدى إليه، والصغائر: ما عدا الشرك من ذنوب أهل التوحيد.

واحتج أرباب هذه المقالة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

واحتجوا بقوله ﷺ-فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى-: «ابن آدم، لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا: أتيتك بقرابها مغفرة»(١).

واحتجوا أيضًا بالحديث الذى روى مرفوعًا وموقوفًا: «**الظلم ثلاثة دواوين، ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك؛ وديوان لا يترك الله منه شيئًا. وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا. وديوان لا يعبأ به الله شيئًا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه**»(٢).

فهذا جملة ما احتج به أرباب هذه المقالة، ولا حجة لهم فى شىء منه.

أما الآية: فإن غايتها التفريق بين الشرك وغيره. لأن الشرك لا يغفر إلا بالتوبة منه. وأما ما دون الشرك: فهو موكول إلى مشيئة الله، وهذا يدل على أن المعاصى دون الشرك. وهذا حق، فإن أراد أرباب هذا القول هذا: فلا نزاع فيه، وإن أرادوا أن كل ما دون الشرك: فهو صغيرة فى نفسه فباطل.

فإن قيل: فإذا كان الشرك وغيره مما تأتى عليه التوبة. فما وجه الفرق بين الشرك وما دونه؟ وهل هما فى حق التائب، أم غير التائب؟ أم أحدهما فى حق التائب والآخر فى حق غير التائب؟ وما الفرق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) حديث صحيح: سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (جـ٦ ص٢٤٠) من حديث عائشة وهو حديث حسن بشاهد له من حديث أنس أخرجه الطيالسى والبزار.

فالجواب: أن كل واحدة من الآيتين لطائفة، فآية النساء: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾[النساء: ٤٨]، هى لغير التائبين فى القسمين.

والدليل عليه: أنه فرق بين الشرك وغيره فى المغفرة، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام: أن الشرك يُغْفَرُ بالتوبة، وإلا لم يصح إسلام كافر أبدًا.

وأيضًا فإنه خصص مغفرة ما دون الشرك بمن يشاء، ومغفرة الذنوب للتائبين عامة لا تخصيص فيها، فخصص وقيد. وهذا يدل على أنه حكم غير التائب.

وأما آية الزمر: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾[الزمر: ٥٣]، فهى فى حق التائب. لأنه أطلق وعمم. فلم يخصها بأحد، ولم يقيدها بذنب، ومن المعلوم بالضرورة: أن الكفر لا يغفره. وكثير من الذنوب لا يغفرها، فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم فى حق التائب، فكل من تاب من أى ذنب كان: غفر له.

وأما الحديث الآخر: «**لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا، أتيتك بقرابها مغفرة**»(١) فلا يدل على أن ما عدا الشرك كله صغائر، بل يدل على أن من لم يشرك بالله شيئًا فذنوبه مغفورة كائنة ما كانت، ولكن ينبغى أن يعلم ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح، وتعلقها بها، وإلا لم يفهم مراد الرسول ﷺ، ويقع الخلط والتخبيط.

التوحيد

فاعلم أن هذا النفى العام للشرك -أن لا يشرك بالله شيئًا ألبتة- لا يصدر من مُصرٍّ على معصية أبدًا، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد، حتى لا يشرك بالله شيئًا. هذا من أعظم المحال. ولا يلتفت إلى جدَلىٍّ لا حَظَّ له من أعمال القلوب. بل قلبه كالحجر أو أقسى، يقول: وما المانع؟ وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقعًا لم يلزم منه محال لذاته!

فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وذله لغير الله، وتوكله على غير الله: ما يصير به منغمسًا فى بحار الشرك. والحاكم فى هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه، إن كان له عقل، فإن ذل المعصية لابد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفًا من غير الله- وذلك شرك- ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره فى الأسباب التى توصله إلى غرضه. فيكون عمله لا بالله ولا لله، وهذا حقيقة الشرك.

---

(١) سبق تخريجه.

نعم قد يكون معه توحيد أبى جهل، وعُبَّاد الأصنام- وهو توحيد الربوبية- وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله، ولو أنجى هذا التوَحيد وحده، لأنجى عباد الأصنام. والشأن فى توحيد الإلهية، الذى هو الفارق بين المشركين والموحدين.

والمقصود: أن من لم يشرك بالله شيئًا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا، مُصراً عليها، غير تائب منها، مع كمال توحيده الذى هو غاية الحب والخضوع، والذل والخَوف والرجاء للرب تعالى.

وأما حديث الدواوين: فإنما فيه أن حق الرب تعالى لا يؤوده أن يهبه ويسقطه، ولا يحتفل به ويعتنى به كحقوق عباده، وليس معناه: أنه لا يؤاخذ به ألبتة، أو أنه كله صغائر. وإنما معناه: أنه يقع فيه من المسامحة والمساهلة والإسقاط والهبة، مالا يقع مثله فى حقوق الآدميين.

فظهر أنه لا حجة لهم فى شىء مما احتجوا به. والله أعلم.

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدين، والكبائر: ما تعلق بها أحد الحدين.

ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا والآخرة. فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة فى الدنيا، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة والقذف. أو عليه وعيد فى الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب فى آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته أمانته، ونحو ذلك. فهو من الكبائر. وصدق ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: «هى إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع».

آراء فى الكبيرة

وههنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها -من الحياء والخوف، والاستعظام لها- ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة -من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها- ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها فى أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضًا فإنه يُعْفَى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، مالا يعفى لغيره، ويُسَامَحُ بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: انظر إلى موسى -صلوات

الله وسلامه عليه- رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها، وجر بلحية نبى مثله، وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد ﷺ ورَفْعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه ويدلله(١). لأنه قام لله تلك المقامَات العظيمة فى مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمَّتَىْ القِبْطِ وبنى إسرائيل أشد المعالجة. فكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر.

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى، غاضب ربه مرة. فأخذه وسجنه فى بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى. وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع. كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله. وتذكر به إذا وقع فى الشدائد. قال تعالى عن ذى النون: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قال له جبريل: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

وفى المسند عنه ﷺ أنه قال: «**إن ما تذكرون من جلال الله -من التسبيح، والتكبير، والتحميد- يتعاطفن حول العرش، لهن دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحل. يُذَكِّرْنَ بصاحبهن. أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به؟**»(٢) ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. ويسامحه مالا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لا يشرك به شيئًا ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت، ولم يُعَذَّبْ بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد. بل كثير منهم يدخل بذنوبه. ويعذب على مقدار جرمه. ثم يخرج منها، ولا تنافى بين الأمرين لمن أحاط علمًا بما قدمناه.

ونزيد ههنا إيضاحًا لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

---

(١) قال الشيخ الفقى: «هذه كلمة سبق بها اللسان والقلم، ولكل جواد كبوة، وكان الأولى «يتجاوز» أو نحوها. وهذا عجيب ممن لقى أشد ألوان الأذى فى الدفاع عن أسماء الله.

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» (جـ٤ ص٢٦٨) عن النعمان بن بشير وإسناده لا بأس به.

اعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها فى ذلك النور -قوةً، وضعفًا- لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة فى قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى.

ومنهم: من نورها فى قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضىء، وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما فى قلوبهم من نور هذه الكلمة، علمًا وعملاً، ومعرفة وحالاً.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد: أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنبًا، إلا أحرقه، وهذا حال الصادق فى توحيده، الذى لم يشرك بالله شيئًا، فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته. فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرِقَ منه استنقذه من سارقه، أو حَصَّلَ أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس. ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شىء ومليكه. كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن -من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض-: ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصى، والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبى ﷺ: **«إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله»**(١) وقوله: **«لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله»** وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهى، واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار. وأوَّلَ بعضهم الدخول بالخلود. وقال: المعنى لا يدخلها خالدًا، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة.

والشارع -صلوات الله وسلامه عليه- لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان

---

(١) انظر البخارى (جـ١١/ ٦٤٢٣).

فقط. فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام. فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم. وهم تحت الجاحدين لها فى الدرك الأسفل من النار. فلابد من قول القلب، وقول اللسان. وقول القلب: يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته -من النفى والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله والمختصة به، التى يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب: علمًا ومعرفة ويقينًا، وحالاً-: ما يوجب تحريم قائلها على النار. وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام. كقوله ﷺ: «**من قال فى يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة، حُطَّتْ عنه خطاياه -أو غفرت ذنوبه- ولو كانت مثل زبد البحر**» وليس هذا مرتبًا على مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه، غافلاً عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانه. ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابها؛ حطت من خطاياه بحسب ما فى قلبه. فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب، فتكون صورة العملين واحدة. وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض. والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب.

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة. وكثير منهم يدخل النار بذنوبه. ولكن السر الذى ثَقَّلَ بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات: لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة.

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك غافل ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعى قلبه إلى محبة غيرك، وإيثاره عليك. هل يكون ذكرهما واحدًا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك، عندك سواء؟

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية. وحملته -وهو فى تلك الحال- على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخر، ولا جرم أن أُلحِقَ بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البَغِيِّ التى رأت ذلك الكلب -وقد اشتد به العطش يأكل الثرى- فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عَدم الآلة، وعدم المُعِينِ وعدم من ترائيه بعملها- ما

حملها على أن غررت بنفسها فى نزول البئر، وملء الماء فى خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحَمْلها خُفَّها بفيهَا، وهو ملآن، حتى أمكنها الرقى من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذىَ جرت عَادَة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب. من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فَغُفِرَ لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله. والغافل فى غفلة من هذا الإكسير الكيماوى، الذى إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبًا. والله المستعان.

المحبة والتسامح

فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يُسَامَحُ بما لا يسامح به غيره. ويعفى للولى عما لا يعفى لسواه. وكذلك العالم أيضًا، يغفر له مالا يغفر للجاهل. كما روى الطبرانى بإسناد جيد- مرفوعًا إلى النبى ﷺ- : **«إن الله -سبحانه- إذا جمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد، قال للعلماء: إنى كنت أعبد بفتواكم. وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإنى لم أضع علمى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم»**(١) هذا معنى الحديث. وقد روى مسنداً ومرسلاً.

فهذا الذى ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التى ورد التهديد بها فى حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)**﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]، أى لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشىء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)**﴾ [الحاقة]، أى لو أتى بشىء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومن التقول عليه سبحانه. وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

---

(١) إسناده ضعيف جداً: وانظر «جامع الأحاديث القدسية» (١٠٣٢).

وما ذكرتم فى قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبة، وسجن لأجلها فى بطن الحوت. ويكفى حال أبى البَشَرِ حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضًا حق، ولا تنافى بين الأمرين. فإن من كملت عليه نعمة الله. واختصه منها بما لم يختص به غيره: فى إعطائه منها ما حرمه غيره. فَحُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخص بمزيد التقريب، وجعل فى منزلة الولى الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم، ونعمه عليه أكمل، والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل وأخَلَّ بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد البرانى، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضًا. فيجتمع فى حقه الأمران.

وإذا أردت معرفة اجتماعهما، وعدم تناقضهما، فالواقع شاهد به. فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس فى منزلتهم، ويأخذهم. ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم، وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا، ولا تناقض بين الأمرين.

وأنت إذا كان لك عبدان، أو ولدان، أو زوجتان. أحدهما: أحب إليك من الآخر، وأقرب إلى قلبك، وأعز عليك: عاملته بهذين الأمرين. واجتمع فى حقه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبك له، وعزته عليك. فإذا نظرت إلى كمال إحسانك إليه، وإتمام نعمتك عليه: اقتضت معاملته بما لا تعامل به من دونه، من التنبيه وعدم الإهمال. وإذا نظرت إلى إحسانه ومحبته لك، وطاعته وخدمته، وكمال عبوديته ونصحه: وهبت له وسامحته، وعفوت عنه، بما لا تفعله مع غيره. فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى فى الشرع، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا: الرجم، وحَدُّ من لم يعطه هذه النعمة الجَلْدُ. وكذلك ضاعف الحد على الحر الذى قد ملكه نفسه، وأتم عليه نعمته، ولم يجعله مملوكًا لغيره، وجعل حد العبد المنقوص بالرق، الذى لم يحصل له هذه النعمة: نصف ذلك.

فسبحان من بهرت حكمته فى خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

لله سر تحت كل لطيفة فأخو البصائر غائص يتملق

فى أجناس ما يتاب منه
ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص منها

وهى اثنا عشر جنسًا مذكورة فى كتاب الله عز وجل. هى أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغى، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وقد يكون فى الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها. وقد يعلم ذلك. وقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هى بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها. وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت. لتتبين حدودها وحقائقها، والله الموفق لما وراء ذلك، كما وفق له، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب. والعبد أحوج شىء إليه.

فأما «الكفر» فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود فى النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما فى قوله - تعالى - وكان مما يتلى فنسخ لفظه -: **«لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم»** [(١)] وقوله ﷺ فى الحديث: **«اثنتان فى أمتى، هما بهم كفر: الطعن فى النسب، والنياحة»** [(٢)] وقوله فى السنن: **«من أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد»** [(٣)] وفى الحديث الآخر: **«من أتى كاهنًا أو عرافًا، فصدقه بما يقول. فقد كفر بما أنزل الله على محمد»** [(٤)] وقوله: **«لا ترجعوا بعدى كفارًا**

---

(١) أخرجه البخارى (جـ/ ١٢ ٦٧٦٨)، ومسلم (جـ١ - إيمان/ ١١٣) عن أبى هريرة.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ١ - إيمان/ ١٢١) عن أبى هريرة.

(٣) حديث حسن: برواياته وطرقه، انظر الترمذى (جـ١/ ١٣٥)، و«المسند» (جـ١ ص٨٦)، وسنن ابن ماجه (جـ١/١٩٢٣).

(٤) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (جـ٤/ ٣٩٠٤)، وابن ماجه (جـ١/ ٦٣٩)، وأحمد (جـ٢ ص٤٠٨) عن أبى هريرة.

يضرب بعضكم رقاب بعض»(١) وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة فى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس. وقال عطاء: «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح. فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل فى ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكنانى. وهو أيضاً بعيد. إذ الوعيد على نفى الحكم بالمنزل. وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمداً من غير جهل به ولا خطأ فى التأويل. حكاه البغوى عن العلماء عموماً.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة. فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه. مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطئ، له حكم المخطئين.

والقصد: أن المعاصى كلها من نوع الكفر الأصغر. فإنها ضد الشكر، الذى هو العمل بالطاعة، فالسعى: إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث. لا من هذا ولا من هذا. والله أعلم.

الكفر الأكبر

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق. وكفر إعراض. وكفر شك. وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل فى الكفار. فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (جـ١/ ١٢١)، ومسلم (جـ١- إيمان/ ١١٨- ١٢٠).

المعذرة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام: ٣٣]

وإن سمى هذا كفر تكذيب أيضًا فصحيح. إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول. وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباءًا واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)﴾ [المؤمنون:٤٧]، وقول الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١)﴾ [الشمس: ١١]، وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وهو كفر أبى طالب أيضا. فإنه صدقه ولم يشك فى صدقه، ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فأن يُعْرِضَ بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه. ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغى إلىَ ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبى ﷺ: **«والله لا أقول لك كلمة. إن كنت صادقًا، فأنت أجل فى عينى من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبًا، فأنت أحقر من أن أكلمك»**(١).

وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك فى أمره. وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول ﷺ جملة. فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها: فإنه لا يبقى معه شك، لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها، فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يُظْهِرَ بلسانه الإيمانَ، وينطوى بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر. وسيأتى بيان أقسامهَ إن شاء الله تعالى.

* *

(١) هذا جدل عبثى ليس من ورائه طائل أشبه بالجدل السوفسطائى اليونانى وما إعراض هذا الكافر عن استبانة الحق إلا إغراق فى الجناية على نفسه، وعلى نفسها تجنى براقش!!.

كفر الجحود

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملةً ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفةً وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلاً، أو تأويلاً يُعْذَرُ فيه صاحبه: فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذى جحد قدرة الله عليه، وأمر أهله أن يحرقوه ويُذَرُّوه فى الريح، ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله. إذ كان ذلك الذى فعله مبلغ علمه. ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادًا أو تكذيبًا.

الشرك

وأما الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله ندًا، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذى تَضَمَّنَ تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم فى النار: ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)** ﴾[الشعراء: ٩٧، ٩٨]، مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شىء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيى ولا تميت. وإنما كانت هذه التسوية فى المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركى العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. وكثير منهم -بل أكثرهم- يحبون آلهتم أعظم من محبة الله. ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم -من المشايخ- أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين. وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حرد، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا عنه، ولم تتنكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنًا له إن قام وإن قعد، وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فَذِكْرُ إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه- وهو لا ينكر ذلك- ويزعم أنه بَاب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، ووسيلته إليه.

وهكذا كان عباد الأصنام سواء . وهذا القدر هو الذى قام بقلوبهم ، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم . فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذوها من البشر . قال الله تعالى ، حاكيا عن أسلاف هؤلاء المشركين : ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [الزمر: ٣] ، ثم شهد عليهم بالكفر والكذب . وأخبر : أنه لا يهديهم فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ③ ﴾ [الزمر: ٣]

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليّاً ، يزعم أنه يقربه إلى الله . وما أعز من يخلص من هذا ؟ بل ما أعز من لا يعادى من أنكره ! .

والذى فى قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم : أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . وهذا عين الشرك . وقد أنكر الله عليهم ذلك فى كتابه وأبطله . وأخبر أن الشفاعة كلها له ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه . ورضى قوله وعمله . وهم أهل التوحيد ، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء . فإنه سبحانه يأذن لمن شاء فى الشفاعة لهم ، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه . فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له : صاحب التوحيد الذى لم يتخذ شفيعًا من دون الله ربه ومولاه .

و«الشفاعة» التى أثبتها الله ورسوله : هى الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَحَّدَهُ . والتى نفاها الله : هى الشفاعة الشركية ، التى فى قلوب المشركين ، المتخذين من دون الله شفعاء ، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم ، ويفوز بها الموحدون .

وتأمل قول النبى ﷺ لأبى هريرة –وقد سأله : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟– قال : «**أسعد الناس بشفاعتى: من قال لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه**»(١) كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال بها شفاعته : تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين : أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء ، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله . فقلب النبى ﷺ ما فى زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة : هو تجريد التوحيد . فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع .

❊❊

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (جـ١/ ٩٩) ، وأحمد (جـ٢ ص٣٧٣) عن أبى هريرة .

المشرك

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعًا: أنه يشفع له، وينفعه عند الله. كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله. كما قال تعالى فى الفصل الأول: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة ٢٥٥]، وفى الفصل الثانى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وبقى فصل ثالث، وهو أن لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول، وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟»

فهذه ثلاثة أصول. تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فالله تعالى: لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: ١]، وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره فى العبادة والموالاة والمحبة، كما فى الآية الأخرى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، وكما فى آية البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله. ثم يغضب لهم ولحرماتهم -إذا انتهكت- أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به. سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده، فإنك ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وجردت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج ورماك بنقص الإلهية التى له، وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عيانًا، ورمونا بعداوتهم. وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم فى الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله، وهكذا قال النصارى للنبى ﷺ، لما قال لهم: «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وعبته، وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذى أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به: ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** (١٧) ﴾ [الكهف: ١٧].

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التى تعلق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله وليًا، أو شفيعًا. فهو: ﴿ **كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ** ﴾ [العنكبوت: ٤١] فقال تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** (٢٢) **وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عباده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التى يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهى الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا، وبرهانًا ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه فى نوع وفى قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب- رضى الله عنه-: «إنما تُنْقَضُ عُرى الإسلام عُرْوَةً عروةً، إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذَمَّه وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصَوَّبَهُ وحَسَّنَهُ. وهو لا يعرف: أنه هو الذى كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شر منه، أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه. ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حى يرى ذلك عيانًا، والله المستعان.

الشرك الأصغر

وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبيﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» وقول الرجل للرجل: «ما شاء الله وشئت» و« هذا من الله ومنك »و «أنا بالله وبك» و« مالى إلا الله وأنت» و« أنا متوكل على الله وعليك» و «لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركًا أكبر، بحسب قائله ومقصده. وصح عن النبيﷺ أنه قال لرجل: قال له: «ما شاء الله وما شئت»: «**أجعلتنى الله ندًا ؟ قل: ما شاء الله وحده**»(١) وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواع الشرك: سجود المريد للشيخ. فإنه شرك من الساجد والمسجود له. والعجب: أنهم يقولون: ليس هذا بسجود، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احترامًا وتواضعًا. فيقال لهؤلاء: ولو سميتموه ما سميتموه. فحقيقة السجود: وضع الرأس لمن يسجد له. وكذلك السجود للصنم، وللشمس، وللنجم، وللحجر، كله وضع الرأس قدامه.

ومن أنواعه: ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة. وهذا سجود فى اللغة. وبه فسر قوله تعالى: ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾[البقرة: ٥٨]، أى منحنين، وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض، ومنه قول العرب: سجدت الأشجار، إذا أمالتها الريح.

ومن أنواعه: حلق الرأس للشيخ، فإنه تعبد لغير الله، ولا يتعبد بحلق الرأس إلا فى النسك لله خاصة.

ومن أنواعه: التوبة للشيخ، فإنها شرك عظيم؛ فإن التوبة لا تكون إلا لله كالصلاة، والصيام، والحج، والنسك. فهى خالص حق الله.

وفى المسند: أن رسول اللهﷺ : أتى بأسير. فقال: اللهم إنى أتوب إليك. ولا أتوب إلى محمد. فقال رسول اللهﷺ: «**عرف الحق لأهله**»(٢).

فالتوبة عبادة لا تنبغى إلا لله. كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله. فإنه شرك، وهو أعظم من الحلف بغير الله، فإذا كان «من حلف بغير الله فقد أشرك» فكيف بمن نذر لغير الله ؟ مع أن فى السنن من حديث عقبة ابن عامر عنهﷺ : «**النذر حلفة**».

---

(١) أخرجه أحمد (جـ١ ص٢١٤) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» (جـ٣ ص٤٣٥) عن الأسود بن سريع بإسناد ضعيف.

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى. والغُنْية بذلك عن حمده سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه، ولم يَجْرِ به القَدَرُ، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن يكون فى الكون مالا يشاؤه.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستعانة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله. وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلاً عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، كما تقدم، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه. والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان فى حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك. والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبى ﷺ، إذا زرنا قبور المسلمين «أن نترحم عليهم. ونسأل لهم العافية والمغفرة» فعكس المشركون هذا. وزاروهم زيارة العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تُعْبَد، وسموا قصدها حجًا، واتخذوا عندها الوقفة وحلق الرأس، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات. وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه -الموحدين له، الذين لم يشركوا به شيئًا- بذمهم وعيبهم ومعاداتهم. وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص. إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا. وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد فى كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم! ولله خليله إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم].

وما نجا من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جَرَّدَ توحيده لله، وعادى المشركين فى الله. وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله. وأخلص قصده لله، متبعًا لأمره، متطلبًا لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله، فهو لله، وبالله، ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة؛ لا يحصيها إلا الله.

ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع، ولعل الله أن يساعد بوضع كتاب فيه، وفى أقسامه، وأسبابه ومباديه، ومضرته، وما يندفع به.

فإن العبد إذا نجا منه ومن التعطيل -وهما الداءان اللذان هلكت بهما الأمم- فما بعدهما أيسر منهما، وإن هلك بهما فبسبيل من هلك، ولا آسى على الهالكين.

النفاق

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذى يكون الرجل ممتلئًا منه، وهو لا يشعر، فإنه أمر خفى على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود فى النار فى دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو فى الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به. لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم فى القرآن، وجلَّى لعباده أمورهم. ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة فى أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر فى المؤمنين أربع آيات، وفى الكفار آيتين. وفى المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه فى الحقيقة، يخرجون عداوته فى كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه ؟! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه ؟! وكم من علَم له قد طمسوه ؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه ؟! وكم ضربوا بمعاول الشُبَه فى أصول غراسه ليقلعوها ؟! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟!.

فلا يزال الإسلام وأهله منهم فى محنة وبلية. ولا يزال يطرقه من شُبَههم سَرِيَّةٌ بعد سَرِيَّة. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١٢]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف: ٨].

اتفقوا على مفارقة الوحى. فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك: ﴿ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠].

درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفَلَتْ كواكبُه النَّيِّرَةُ من قلوبهم فليسوا يحيونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظُلَم آرائهم وأفكارهم فَليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدى الله الذى أرسل به رسوله. ولم يرفعوا به رأسًا. ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا. خلعوا نصوص الوحى عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة. فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام. فقابلوها بغير ما ينبغى لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع فى الصدور منها والأعجاز. وقالوا: مالك عندنا من عبور -وإن كان لابد- فعلى سبيل الاجتياز. أعَدُّوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا -لما حلت بساحتهم-: مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين، وعوامُّهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتميهد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور وترك المحظور، فطريقة المتأخرين: أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين: أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة فى هذا الزمان، اسمه على السكة وفى الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. فالظواهر ظواهر الأنصار. والبواطن قد تحيزت إلى الكفار. فألسنتهم ألسنة المسالمين. وقلوبهم قلوب المحاربين. ويقولون: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾ [البقر: ٨]

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والخَتْر، وعندهم العقل المعيشى: أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ [البقرة: ٩].

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾ [البقرة: ١٠]

من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه فى عذاب الحريق، ومن دخلت شبهات تلبيسهم فى مسامعه حال بين قلبه وبين

التصديق، ففسادهم فى الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ [البقرة].

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول. والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفاراً، فهمه فى حمل المنقول. وبضاعة تاجر الوحى لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء فهم فى خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة: ١٣].

لكل منهم وجهان. وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين. وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ﴾ [البقرة:١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاءً بأهلهما واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحًا بما عندهم من العلم الذى لا ينفع الاستكثار منه أشرًا واستكباراً، فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريح الوحى يستهزئون: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾

[البقرة: ١٥]

خرجوا فى طلب التجارة البائرة فى بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشُّبَه والشكوك تجرى بهم فى موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا فى ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفئ ذلك النور، وبقيت ناراً تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفى تلك الظلمات يعمهون: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧) ﴾ [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر، فهى لا تسمع منادى الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى، فهى لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾ [البقرة: ١٨].

صابَ عليهم صَيِّبُ الوحى، وفيه حياة القلوب والأرواح، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التى وُظِّفتْ عليهم فى المساء والصباح، فجعلوا أصابعهم فى

آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وجدوا فى الهرب والطلب فى آثارهم والصياح، فنودى عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفَتْ حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرينَ، والمقلدين. فقيل: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ [البقرة].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما فى الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقى رعود وعوده وأوامره ونواهيه، فقاموا عند ذلك حيارى فى أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع، ولا يهتدى ببصره البصير. ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]

لهم علامات يُعْرَفُونَ بها مبينة فى السنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم -والله- الرياء، وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن؛ فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)﴾ [النساء: ١٤٢].

أحدهم: كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلاً: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين، فلا تحتاج بعده دليلاً: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾ [النساء: ١٤١].

يُعْجِبُ السامعَ قَوْلُ أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما فى قلبه من كذبه ومينه. فتراه عندَ الحق نائمًا، وفى البَاطل على الأقدام، فخذ وصفهم من قول القدوس السلام:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾ [البقرة: ٢٠٤]

أوامرهم التى يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان فى الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة: ٢٠٥] .

فهم جنس بعضه يشبه بعضًا. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه. وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه. ويبخلون بالمال فى سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذَكَّرَهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) ﴾ [التوبة: ٦٧] .

إن حاكمتهم إلى صريح الوحى وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقه لرأيت بينها وبين الهدى أمدًا بعيدًا، ورأيتها معرضة عن الوحى إعراضًا شديدًا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) ﴾ [النساء: ٦١] .

فكيف لهم بالفلاح والهدى! بعد ما أصيبوا فى عقولهم وأديانهم؟ وأنَّى لهم التخلص من الضلال والردى! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقًا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) ﴾ [النساء: ٦٢] .

نشب زقوم الشبه والشكوك فى قلوبهم، فلا يجدون له مسيغًا: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) ﴾ [النساء: ٦٣] .

تبًا لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان. فالقوم فى شأن وأتباع الرسول فى شأن. لقد أقسم الله جل جلاله فى كتابه بنفسه المقدسة قسمًا عظيمًا، يعرف مضمونه أولو البصائر. فقلوبهم منه على حذر إجلالاً له وتعظيمًا. فقال تعالى تحذيرًا لأوليائه وتنبيهًا على حال هؤلاء وتفهيمًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: ٦٥] .

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يُعْتَرَضَ عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه. فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه، وكذلك أهل الريبة يكذبون. ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ٢].

تبًا لهم! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وبعد الشُّقَّة نكصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام فى ديارهم. فما مُتِّعُوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا. فما هو إلا أن صاح بهم الصائح فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ما شبعوا. فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا. وعملوا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣]

أحسن الناس أجسامًا، وأخلبهم لسانًا. وألطفهم بيانًا، وأخبثهم قلوبًا، وأضعفهم جَنَانًا. فهم كالخُشُب المُسَنَّدَة التى لا ثمر لها. قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرَق الموتى[1] فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب. وينقرونها نقر الغراب، إذ هى صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب. ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففى البيت أو الدكان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، هذه معاملتهم للخلق، وتلك معاملتهم للخالق. فخذ وصفهم من أول المطففين، وآخر ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ [الطارق: ١]، فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]، فما أكثرهم! وهم الأقلون. وما أجبرهم! وهم الأذلون. وما أجهلهم! وهم المتعالمون. وما أغرهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦].

---

(١) شرق الموتى: أراد به آخر النهار. يقال: شرقت الشمس شرقًا إذا ضعف ضوؤها ودنت للغروب فشبه ما بقى من وقتها حتى تغيب بما بقى من نَفَسِ المُحْتَضَرِ إذا شرق بريقه. انظر «النهاية والقاموس»

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم. وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوى من موروثه الرسول ومن موروثهم المنافقون: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [التوبة: ٥٠، ٥١]، وقال تعالى فى شأن السلفين المختلفين، والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾[آل عمران: ١٢٠].

كره الله طاعاتهم، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم، فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه، فطردهم عنه وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم فى الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾[التوبة: ٤٦]، ثم ذكر حكمته فى تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال، وهو أحكم الحاكمين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)﴾[التوبة: ٤٧].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها. وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها. وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها. وقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم، وأعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر، وبينها لهم، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾ [محمد: ٩].

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص، فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه، فهى فى وجهه كالبنيان المرصوص، فباعها بمحصل من الكلام الباطل، واستبدل منها بالفصوص[١]

---

(١) هو كتاب «الفصوص» فصوص الحكم بل فصوص الضلالة لابن عربى زعيم مذهب الاتحادية.

فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)** ﴾ [محمد].

أسروا سرائر النفاق. فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان. ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)** ﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق، وتجلى الله -جل جلاله- للعباد وقد كشف عن ساق؟ وَدُعُوا إلى السجود فلا يستطيعون: ﴿ **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)** ﴾ [القلم: ٤٣].

أم كيف بهم إذا حشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشعرة، وأحد من الحسام. وهو دحض مزلة، مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام. فَقُسِّمَتْ بين الناس الأنوار. وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب. وأعطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام. كما كانوا بينهم في هذا الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام. فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق. فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح. فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور. فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه -الذي يلي المؤمنين- فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح عن بعد كالنجوم. تبدو لناظر الإنسان: ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ [الحديد: ١٣]، لنتمكن في هذا المضيق من العبور، فقد طفئت أنوارنا، ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور (قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا) حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوى اليوم أحد على أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار. كما يذكر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار (ألم نكن معكم؟) نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلون، ونقرأ كما تقرؤون، ونتصدق كما تصدقون، ونحج كما تحجون؟ فما الذي فَرَّقَ بيننا اليوم، حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ (قالوا: بلى) ولكنكم

كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد، وكل ظلوم كفور: ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)** ﴾ [الحديد: ١٤، ١٥].

لا تستطل أوصاف القوم. فالمتروك -والله- أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله فى شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفى أجواف القبور. فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون فى الطرقات. وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع فى الفلوات. سمع حذيفة- رضى الله عنه- رجلاً يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال: «يا ابن أخى، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى طرقاتكم من قلة السالك».

خوف المؤمنين الصادقين

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين. لعلمهم بدقه وجله وتفاصيله وجمله. ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطاب لحذيفة- رضى الله عنهما-: «يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سمانى لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا. ولا أزكى بعدك أحدًا» وقال ابن أبى مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخارى. وذكر عن الحسن البصرى: «ما أمنَهُ إلا منافق. وما خافه إلا مؤمن» ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول فى دعائه: «اَللهم إنى أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع».

تالله لقد ملئت قلوب القوم إيمانًا ويقينًا، وخوفهم من النفاق شديد. وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زَرْعُ النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة. فإذا تمت هذه الأركان الأربع: استحكم نبات النفاق وبنيانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرُف هَار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر، وكشف المستور، وبعثر ما فى القبورَ، وحُصِّلَ ما فى الصدور تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق: أن حواصله التى حصّلها كانت كالسراب: ﴿ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)** ﴾ [النور: ٣٩].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة فى فجاجهم فاشية. وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية

فهذه -والله- أمارات النفاق. فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دعوا إلى الطاعة وقفوا. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدفوا. وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان. والخزى والخسران. فلا تثق بعهودهم. ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون. وهم لما سواها مخالفون: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧].

الفسوق

وأما الفسوق: فهو فى كتاب الله نوعان: مفرد مطلق. ومَقْرُون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمَقْرُونُ كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) ﴾ [الحجرات: ٧].

والمفرد - الذى هو فسوق كفر- كقوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٦، ٢٧]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) ﴾ [البقرة: ٩٩]، وقوله: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [السجدة: ٢٠] فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذى لا يخرج عن الإسلام: كقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ الآية [الحجرات: ٦]، فإن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط[1] لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق بعد الوقعة مُصَدِّقًا- وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية- فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه، تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ. فحدثه الشيطان: أنهم يريدون قتله، فهابهم

(١) انظر قصة الوليد بن عقبة بن أبى معيط فى «مسند أحمد» بن حنبل (جـ٤ ص٢٧٩).

فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ. فقال: إن بنى المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلى، فغضب رسول الله ﷺ. وَهَمَّ أن يغزوهم. فبلغ القوم رجوعُه فأتوا رسول الله ﷺ. فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدى إليه ما قبلْنَا من حق الله، فبدا له فى الرجوع، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضَب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله؛ فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية فى عسكر. وأمره أن يخفى عليهم قدومه. وقال له: انظر. فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل فى الكفار، ففعل ذلك خالد، ووافاهم. فسمع منهم أذان صلاتى المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم. ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر. فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ الآية [الحجرات: ٦]».

و «النبأ»: هو الخبر الغائب عن المُخْبَر إذا كان له شأن. و«التَّبَيُّنُ» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علمًا.

وهــهنا فائدة لطيفة. وهى أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين. فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق. ولو أخبر به مَنْ أخبر. فهكذا ينبغى الاعتماد فى رواية الفاسق وشهادته وكثير من الفاسقين يصدقون فى أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحرى وفسْقُه من جهات أخر. فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته. ولو ردت شهادة مثل هذا وروايتَه لتعطلت أكثر الحقوق. وبطل كثير من الأخبار الصحيحة. ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأى. وهو مُتَحَرٍّ للصدق. فهذا لا يُرَدُّ خَبَرُهُ ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته. وإن ندر منه مرة ومرتين. ففى رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء. وهما روايتان عن الإمام أحمد -رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذى لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة.

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه. وهو قسمان: فسق من جهة العمل. وفسق من جهة الاعتقاد.

ففسق العمل نوعان: مَقْرون بالعصيان، ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، وقال موسى لأخيه هارون- عليهما السلام-: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾ [طه: ٩٢، ٩٣]، وقال الشاعر:

أمـرتك أمرًا جـازمًا، فعصيتنى فأصبحت مسلوب الإمارة نادمًا

فالفسق أخص بارتكاب النهى، ولهذا يطلق عليه كثيراً. كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على صاحبه. كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فسمى مخالفته للأمر فسقًا. وقال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه: ١٢١]، فسمى ارتكابه للنهى معصية، فهذا عند الإفراد. فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهى.

و«التقوى» اتقاء مجموع الأمرين. وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله، على نور من الله. يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله. ويوجبون ما أوجب الله. ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً، وتقليداً للشيوخ. ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة فى التجهم.

وأما غالية الجهمية: فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين فى الإسلام نصيب.

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة.

وليس مقصودنا الكلام فى أحكام هؤلاء، وإنما المقصود: تحقيق التوبة من هذه الأجناس العشرة.

فالتوبة من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسولُه، من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، وتلقى النفى والإثبات من مشكاة الوحى، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التى هى منشأ البدعة والضلالة.

شروط توبة الفاسق

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة: بمحض اتباع السنة. ولا يُكْتَفَى منهم بذلك أيضًا حتى يُبَيِّنُوا فسادَ ما كانوا عليه من البدعة. إذ التوبة من ذنب هى بفعل ضده. ولهذا شرط الله تعالى فى توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان. لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]، وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم. لأن ذاك كتم الحق. وهذا كتمه ودعا إلا خلافه. فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس.

وَشَرَطَ فى توبة المنافق: الإخلاص: لأن ذنبه بالرياء. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) ﴾ [النساء]، ولذلك كان الصحيح من القولين: أن توبة القاذف: إكذابه نفسه. لأنه ضد الذنب الذى ارتكبه، وهتك به عرض المسلم المحصن. فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه، لينتفى عن المقذوف العار الذى ألحقه به بالقذف. وهو مقصود التوبة.

وأما من قال: إن توبته أن يقول: «أستغفر الله» من القذف. ويعترف بتحريمه. فقول ضعيف لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف. ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به. فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب. فإن فيه حقين: حقًا لله، وهو تحريم القذف. فتوبته منه: باستغفاره، واعترافه بتحريم القذف، وندمه عليه، وعزمه على أن لا يعود. وحقًا للعبد، وهو إلحاق العار به، فتوبته منه: بتكذيبه نفسه. فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين.

فإن قيل: إذا كان صادقًا قد عاين الزنا، فأخبر به، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالكذب، ويكون ذلك من تمام توبته ؟.

قيل: هذا هو الإشكال الذى قال صاحب هذا القول لأجله ما قال: إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه، وهو موضع يحتاج فيه إلى بيان الكذب الذى حكم الله به على القاذف. وأخبر أنه كاذب عنده، ولو كان خبره مطابقًا للواقع. فنقول:

الكذب يراد به أمران. أحدهما: الخبر غير المطابق لمخبره؛ وهو نوعان: كذب عمد،

وكذب خطأ، فكذب العمد معروف، وكذب الخطأ ككذب أبى السنابل بن بعكك فى فتواه للمتوفى عنها إذا وضعت حملها «أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرا» فقال النبى ﷺ: «كذب أبو السنابل»(١) ومنه قوله ﷺ: «كذب من قالها»(٢) لمن قال: «حبط عمل عامر، حيث قتل نفسه خطأ» ومنه قول عبادة بن الصامت: «كذب أبو محمد»(٣) حيث قال: «الوتر واجب» فهذا كله من كذب الخطأ. ومعناه «أخطأ» قائل ذلك.

والثانى من أقسام الكذب: الخبر الذى لا يجوز الإخبار به. وإن كان خبره مطابقًا لمخبره، كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا. والإخبار به. فإنه كاذب فى حكم الله. وإن كان خبره مطابقًا لمخبره. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)﴾ [النور: ١٣]، فحكم الله فى مثل هذا: أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب- وإن كان خبره مطابقًا. وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه. فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبًا، فأى توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذى حكم به عليه؟

توبة السارق

واخْتُلِفَ فى توبة السارق إذا قطعت يده، هل من شرطها: ضمان العين المسروقة لربها؟

وأجمعوا على أن من شرط صحة توبته: أداؤها إليه، إذا كانت موجودة بعينها، وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة. فقال الشافعي وأحمد: من تمام توبته: ضمانها لمالكها، ويلزمه ذلك، موسرًا كان أو معسرًا. وقال أبو حنيفة: إذا قطعت يده -وقد استهلكت العين- لم يلزمه ضمانها. ولا تتوقف صحة توبته على الضمان. لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء. والتضمين عقوبة زائدة عليه لا تشرع.

قال: وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة. فإن صاحبها قد وجد عين ماله فلم يكن أخذها عقوبة ثانية، بخلاف التضمين، فإنه غرامة، وقد قطع طرفه، فلا نجمع عليه غرامة الطرف وغرامة المال.

---

(١) القصة فى «مسند أحمد» (جـ١ ص٤٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود بإسناد صحيح.

(٢) القصة فى «صحيح مسلم» (جهاد/ ١٣٢).

(٣) انظر «سنن أبى داود» (جـ٢/ ١٤٢٠).

قالوا :ولهذا لم يذكر الله فى عقوبة السارق والمحارب غير إقامة الحد عليهما . ولو كان الضمان لما أتلفوه واجبًا لذكره مع الحد . ولما جعل مجموع جزاء المحاربين ما ذكره من العقوبة بأداة «إنما» التى هى عندكم للحصر . فقال : ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا**﴾ الآية [المائدة: ٣٣]، ومدلول هذا الكلام -عند من يجعل أداة «إنما» للحصر- أنه لا جزاء لهم غير ذلك .

قالوا : وقد روى النسائى فى سننه عن عبد الرحمن بن عوف- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ : «**أنه قضى فى السارق إذا أقيم عليه الحد: أنه لا غُرْمَ عليه**»(١).

قالوا : وهذا هو المستقر فى فطر الناس ، وعليه عملهم : أنهم يقطعون السراق ، ولا يغرمونهم ما أتلفوه من أموال الناس ، وما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن .

قالوا : ولأنها لو ثبتت فى ذمته -بعد القطع- لكان قد ملكها ، إذ لا يجتمع لربها البدل والمبدل . وثبوت بدلها فى ذمته يستلزم تقدير ملكها ، وهو شبهة فى إسقاط القطع .

وأصحاب القول الأول يقولون : هذه العين تعلق بها حقان ، حق الله ، وحق لمالكها . وهما حقان متغايران لمستحقين متباينين ، فلا يبطل أحدهما الآخر بل يستوفيان معًا . لأن القطع حق الله ، والضمان حق للمالك ، ولهذا لا يسقط القطع بإسقاطه بعد الرفع إلى الإمام . ولو أسقط الضمان سقط .

وهذا كما إذا أكره أمة غيره على الزنا لزمه الحد لحق الله ، والمهر لحق السيد . وكذلك إذا أكره الحرة على الزنا أيضًا . بل لو زنا بأمة ثم قتلها . لزمه حد الزنا وقيمتها لمالكها . وهو نظير ما إذا سرقها ، ثم قتلها ، قطعت يده لسرقتها وضمنها لمالكها .

قالوا : وكذلك إذا قتل فى الإحرام صيدًا مملوكًا لمالكه . فعليه الجزاء لحق الله وقيمة الصيد لمالكه . وكذلك إذا غصب خمر ذمى وشربها لزمه الحد حقًّا لله . ولزمه عندكم ضمانها للذمى . ولم يلزمه ضمان عند الجمهور . لأنها ليست بمال . فلا تضمن بالإتلاف كالميتة .

قالوا : وأما قولكم : «إن قطع اليد مجموع الجزاء» . إن أردتم: أنه مجموع العقوبة فصحيح . فإنه لم يبق عليه عقوبة ثانية . ولكن الضمان ليس بعقوبة للسرقة . ولهذا يجب فى حق غير الجانى . كمن أتلف مال غيره خطأ أو إكراهًا ، أو فى حال نومه . أو أتلفه إتلافًا

(١) هو فى «سنن النسائى» (جـ٨ ص٩٣) مرسلاً لا يثبت .

مأذونًا له فيه، كالمضطر إلى أكله، أو المضطر إلى إلقائه فى البحر لإنجاء السفينة، ونحو ذلك. فليس الضمان من العقوبة فى شيء.

وأما قولكم: «إن الله لم يذكر فى القرآن تضمين السارق والمحارب» فهو لم ينفه أيضًا، وإنما سكت عنه. فحكمه مأخوذ من قواعد الشرع ونصوصه كقوله: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٤]، وهذا قد اعتدى بالإتلاف. فيعتدى عليه بالتضمين. ولهذا أوجبنا رد العين إذا كانت قائمة، ولم يذكر فى القرآن. وليس هذا من باب الزيادة على النص. بل من باب إعمال النصوص كلها. لا يعطل بعضها ويعمل بعضها، وكذلك الجواب عن قوله تعالى فى المحاربين: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [المائدة: ٣٣]، أى عقوبتهم.

قالوا: وأما حديث عبد الرحمن بن عوف: فمنقطع لا يثبت، يرويه سعد بن إبراهيم عن منصور. وقد طعن فى الحديث ابن المنذر. فقال: سعد بن إبراهيم مجهول، وقال ابن عبد البر: الحديث ليس بالقوى.

وأما استقرار ذلك فى فطر الناس: فمن قال: إنه مستقر فى فطرهم: أن الغنى الواجد إذا سرق مال فقير محتاج، أو يتيم وأتلفه. وقطعت يده: أنه لا يضمن مال هذا الفقير واليتيم، مع تمكنه من الضمان، وقدرته عليه، وضرورة صاحبه وضعفه؟ وهل المستقر فى فطر الناس إلا عكس هذا؟.

وأما قولكم: «لو ثبت فى ذمته بعد القطع، لكان قد ملكها» فضعيف جدًا. لأنها بالإتلاف قد استقرت فى ذمته. ولهذا له المطالبة ببذلها اتفاقًا. وهذا الاستقرار فى ذمته لا يمنع القطع. فإنه يقطع بعد إتلافها، واستقرارها فى ذمته، فكيف يزيل القطع ما ثبت فى ذمته. ويكون مبرئًا له منه؟.

وتوسط فقهاء المدينة -مالك، وغيره- بين القولين. فقالوا: إن كان له مال ضمنها بعد القطع، وإن لم يكن له مال فلا ضمان عليه.

وهذا استحسان حسن جدًا. وما أَقْرَبَهُ من محاسن الشرع، وأولاه بالقبول!! والله سبحانه وتعالى أعلم.

* *

الإثم والعدوان

وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان. قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر. فكل إثم عدوان. إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم. فإنه يأثم به صاحبه. ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

فـ «الإثم»: ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك. و«العدوان» ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء فى أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه أو عرضه. فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلف عليه شيئًا أتلف عليه أضعافه. وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها. فهذا كله عدوان وتَعدٍّ للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان فى حق الله، وعدوان فى حق العبد. فالعدوان فى حق الله: كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال فى الأزواج والمملوكات إلى ما حرَّم عليه من سواهما. كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون]، وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حُرِّمَ عليه منها، كوطئها فى حيضها أو نفاسها، أو فى غير موضع الحرث، أو فى إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين، فتعداه إلى أكثر منه. فهو من العدوان، كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر، فتناول الكأسَ كلها. أو أبيح له نظرة الخطبة، والسوم، والشهادة، والمعاملة، والمداواة، فأطلق عنان طرفه فى ميادين محاسن المنظور، وأسام طرف ناظره فى تلك الرياض والزهور.

فتعدى المباح إلى القدر المحظور. وحام حول الحمى المحوط المحجور. فصار ذا بصر حائر، وقلب عن مكانه طائر. أرسل طرفه رائدًا يأتيه بالخبر فخامر عليه. وأقام فى تلك الخيام. فبعث القلب فى آثاره. فلم يشعر إلا وهو أسير يحجل فى قيوده بين تلك الخيام، فما أقلعت لحظات ناظره حتى تشحط بينهن قتيلاً، وما برحت تنوشه سيوف تلك الجفون حتى جندلته تجديلاً. هذا خطر العدوان. وما أمامه أعظم وأخطر. وهذا فوت الحرمان. وما حُرِمَهُ من فوات ثواب من غض طرفه لله عز وجل أجَلّ وأكبر. سافر الطرف

فى مفاوز محاسن المنظور إليه. فلم يربح إلا أذى السفر، وغرر بنفسه فى ركوب تلك البيداء، وما عرف أن راكبها على أعظم الخطر؟! يا لها من سفرة لم يبلغ المسافر منها ما نواه، ولم يضع فيها عن عاتقه عصاه، حتى قُطِعَ عليه فيها الطريق. وقعد له فيها الرَّصَدُ على كل نقب ومضيق، لا يستطيع الرجوع إلى وطنه والإياب، ولا له سبيل إلى المرور والذهاب، يرى هجير الهاجرة من بعيد، فيظنه برد الشراب: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣٩) ﴾ [النور: ٣٩]، وتيقن أنه كان مغروراً بلامع السراب. تالله ما استوت هذه الذلة وتلك اللذة فى القيمة فيشتريها بها العارف الخبير. ولا تقاربا فى المنفعة، فيتحير بينهما البصير. ولكن على العيون غشاوة فلا تفرق بين مواطن السلامة ومواضع العثور، والقلوب تحت أغطية الغفلات، راقدة فوق فرش الغرور: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** (٤٦) ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن أمثلة العدوان: تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلى ما لم يبح منها. إما بأن يشبع. وإنما أبيح له سد الرمق، على أحد القولين فى مذهب أحمد، والشافعى، وأبى حنيفة.

وأباح مالك له الشبع والتزود إذا احتاج إليه. فإذا استغنى عنها وأكلها واقيًا لماله، وبخلاً عن شراء المذكى ونحوه، كان تناولها عدوانًا. قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٧٣) ﴾ [البقرة: ١٧٣]، قال قتادة والحسن: لا يأكلها من غير اضطرار، ولا يعدو شبعه. وقيل: «غير باغ» غير طالبها. وهو يجد غيرها «ولا عاد» أى لا يتعدى ما حُدَّ له منها، فيأكل حتى يشبع، ولكن سد الرمق. وقال مقاتل: غير مُسْتَحِلٍّ لها، ولا متزود منها.

وقيل: لا يبغى بتجاوز الحد الذى حد له منها، ولا يتعدى بتقصيره عن تناوله حتى يهلك، فيكون قد تعدى حد الله بمجاوزته أو التقصير عنه، فهذا آثم، وهذا آثم. وقال مسروق: من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار. وهذا أصح القولين فى الآية. وقال ابن عباس وأصحابه والشافعى «غير باغ» على السلطان و«لا عاد» فى سفره. فلا يكون سفر معصية. وبنوا على ذلك أن العاصى بسفره لا يترخص.

والقول الأول: أصح لعشرة أوجه. ليس هذا موضع ذكرها. إذ الآية لا تَعَرُّضَ فيها للسفر بنفى ولا إثبات، ولا للخروج على الإمام. ولا هى مختصة بذلك ولا سيقت له. وهى عامة فى حق المقيم والمسافر، والبغى والعدوان فيها يرجعان إلى الأكل المقصود

بالنهى، لا إلى أمر خارج عنه لا تعلق له بالأكل، ولأن نظير هذا قوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾[المائدة: ٣]، فهذا هو الباغى العادى. والمتجانف للإثم: المائل إلى القدر الحرام من أكلها. وهذا هو الشرط الذى لا يباح له بدونه. ولأنها إنما أبيحت للضرورة، فتقدرت الإباحة بقدرها، وأعلمهم أن الزيادة عليها بغى وعدوان وإثم، فلا تكون الإباحة للضرورة سببًا لحله. والله أعلم.

و«الإثم» و«العدوان»: هما الإثم والبغى المذكوران فى سورة الأعراف مع أن البغى غالب استعماله فى حقوق العباد والاستطالة عليهم.

وعلى هذا فإذا قرن البغى بالعدوان كان البغى ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والبهت والابتداء بالأذى. والعدوان تعدى الحق فى استيفائه إلى أكبر منه. فيكون البغى والعدوان فى حقهم كالإثم والعدوان فى حدود الله.

فههنا أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد. فالبغى والعدوان والظلم تجاوز الحدين إلى ما وراءهما، أو التقصير عنهما. فلا يصل إليهما.

الفحشاء والمنكر

وأما «الفحشاء والمنكر»: فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريدًا لقصد الصفة. وهى الفَعْلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء. وهى ما ظهر قبحُها لكل أحد، واستفحشه كل ذى عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماهما الله فاحشة لتناهى قبحهما. وكذلك القبيح من القول يسمى فُحْشًا. وهو ما ظهر قبحه جدًا من السب القبيح، والقذف ونحوه.

وأما المنكر: فصفة لموصوف محذوف أيضًا. أى الفعل المنكر. وهو الذى تستنكره العقول والفطَرُ. ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم، والمنظر القبيح إلى العين. والطَعم المستكره إلى الذوق، والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة. كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها: الذى تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة: الزنا، والمنكر: ما لم يعرف فى شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حسنه ولم يُؤْلَفْ، وبين ما استقر قبحه فى الفطر والعقول.

القول على الله بلا علم

وأما «القول على الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا. ولهذا ذكر فى المرتبة الرابعة من المحرمات التى اتفقت عليها الشرائع والأديان. ولا تباح بحال. بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذى يباح فى حال دون حال.

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريمًا عارضًا فى وقت دون وقت. قال الله تعالى فى المحرم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف:٣٣]، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال: ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾[الأعراف: ٣٣]، فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا. فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى مالا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثمًا، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها. وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض. وحذروا فتنتهم أشد التحذير. وبالغوا فى ذلك ما لم يبالغوا مثله فى إنكار الفواحش، والظلم والعدوان. إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شىء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله. فقال: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ الآية [النحل: ١١٦].

فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه ؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه؟.

قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرم الله كذا. فيقول الله: كذبت. لم أحل هذا، ولم أحرم هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأى المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله، يقربه إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضى حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم. دون العكس. إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع فى دين الله. فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبًا لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مُبَوّأً، وهو المنزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه. لأنه متضمن للقول على الله بلا علم. كصريح الكذب عليه. لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى الرسل. والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣].

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع.

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة. وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً.

فإن السنة -بالذات- تمحق البدعة. ولا تقوم لها. وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة. إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللجإ إلى الله. والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»(١) ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة. والله المستعان.

ومن أحكام التوبة

أن من تعذر عليه أداء الحق الذى فرط فيه، ولم يمكنه تداركه ثم تاب. فكيف حكم توبته؟ وهذا يتصور فى حق الله سبحانه وحقوق عباده.

---

(١) حديث صحيح: متفق عليه أخرجه البخارى (جـ١/ ١)، ومسلم (جـ٣- إمارة/ ١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب.

فأما فى حق الله : فكمن ترك الصلاة عمداً من غير عذر ، مع علمه بوجوبها وفرضها ، ثم تاب وندم ، فاختلف السلف فى هذه المسألة .

فقالت طائفة : توبته بالندم ، والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة ، وقضاء الفرائض المتروكة . وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم .

وقالت طائفة : توبته باستئناف العمل فى المستقبل . ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء . ولا يقبل منه . فلا يجب عليه ، وهذا قول أهل الظاهر ، وهو مروى عن جماعة من السلف .

وحجة الموجبين للقضاء قول النبى ﷺ: **«من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»** .

قالوا : فإذا وجب القضاء على النائم والناسى ، مع عدم تفريطهما . فوجوبه على العامد والمفرط أولى .

قالوا : ولأنه كان يجب عليه أمران : الصلاة . وإيقاعها فى وقتها . فإذا ترك أحد الأمرين بقى الآخر .

قالوا : ولأن القضاء ، إن قلنا : يجب عليه بالأمر الأول . فظاهر . وإن قلنا : يجب عليه بأمر جديد ، فأمر النائم والناسى به : تنبيه على العامد كما تقدم .

قالوا : ولأن مصلحة الفعل إن لم يمكن العبد تَدَارُكَها تَدَارَكَ منها ما أمكن . وقد فاتت مصلحة الفعل فى الوقت ، فيتدارك ما أمكن منها . وهو الفعل فى خارج الوقت .

قالوا : وقد قال النبى ﷺ: **«إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم»** وهذا قد استطاع الإتيان بالمأمور خارج الوقت وقد تعذر عليه الإتيان به فى وقته فيجب عليه الإتيان بالمستطاع .

قالوا : وكيف يظن بالشرع أنه يخفف عن هذا المتعمد المفرط العاصى لله ورسوله بترك الوجوب؟ ويوجبه على المعذور بالنوم أو النسيان؟

قالوا : ولأن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت . والعبادة إذا كان لها بدل ، وتعذر المبدّل : انتقل المكلف إلى البدل . كالتيمم مع الوضوء ، وصلاة القاعد عند تعذر القيام ، والمضطجع عند تعذر القعود ، وإطعام العاجز عن الصيام - لكِبَرٍ أو مرضٍ غير مرجو البُرْء - عن كل يوم مسكينًا ونظائر ذلك كثيرة فى الشرع .

قالوا: ولأن الصلاة حق مؤقت، فتأخيره عن وقته لا يسقط إلا بمبادرته خارج الوقت، كديون الآدميين المؤجلة.

قالوا: ولأن غايته: أنه أثم بالتأخير وهذا لا يسقط القضاء كمن أخر الزكاة عن وقت وجوبها تأخيراً أثِمَ به أو أخر الحج تأخيراً أثم به.

قالوا: ولو ترك الجمعة حتى صلاها الإمام عمداً، عصى بتأخيرها، ولزمه أن يصلى الظهر ونسبة الظهر إلى الجمعة كنسبة صلاة الصبح بعد طلوع الشمس إلى صلاتها قبل الطلوع.

قالوا: وقد أخر النبى ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلى أن صلاها بعد غروب الشمس، فدل على أن فعلها ممكن خارج الوقت فى العمد. سواء كان معذوراً به كهذا التأخير، وكتأخير من أخرها من الصحابة يوم بنى قريظة إلى بعد غروب الشمس، أو لم يكن معذوراً به، كتأخير المفرط. فتأخيرهما إنما يختلف فى الإثم وعدمه. لا فى وجوب التدارك بعد الترك.

قالوا: ولو كانت الصلاة خارج الوقت لا تصح ولا تجب، لما أمر النبى ﷺ الصحابة يوم بنى قريظة بتأخير صلاة العصر إلى أن يصلوها فيهم، فَأَخَّرَهَا بعضُهم حتى صَلاَّهَا فيهم بالليل. فلم يعنفهم ولم يعنف من صلاها فى الطريق لاجتهاد الفريقين.

قالوا: ولأن كل تائب له طريق إلى التوبة. فكيف تسد عن هذا طريق التوبة، ويُجْعَلُ إثم التضييع لازمًا له، وطائراً فى عنقه؟ فهذا لا يليق بقواعد الشرع وحكمته ورحمته، ومراعاته لمصالح العباد، فى المعاش والمعاد.

فهذا أقصى ما يُحْتَجُّ به لهذه المقالة.

قال أصحاب القول الآخر: العبادة إذا أمر بها على صفة معينة، أو فى وقت بعينه لم يكن المأمور ممتثلاً للأمر إلا إذا أوقعها على الوجه المأمور به: من وصفها ووقتها، وشرطها. فلا يتناولها الأمر بدونه.

قالوا: وإخراجها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلاً. وكالسجود على الخد بدل الجبهة، والبروك على الركبة بدل الركوع ونحوه.

قالوا: والعبادات التى جعل لها ظرف من الزمان لا تصح إلا فيه كالعبادات التى جعل لها ظرف من المكان. فلو أراد نقلها إلى أمكنة أخرى غيرها: لم تصح إلا فى أمكنتها. ولا يقوم مكان مقام مكان آخر. كأمكنة المناسك- من عرفة ومزدلفة والجمار، والسعى بين

الصفا والمروة، والطواف بالبيت- فنقل العبادة إلى أزمنة غير أزمنتها التى جعلت أوقاتًا لها شرعًا إلى غيرها كنقلها عن أمكنتها التى جعلت لها شرعًا إلى غيرها. لا فرق بينهما فى الاعتداد وعدمه. كما لا فرق بينهما فى الإثم.

قالوا: فنقل الصلاة المحدودة الوقت أولاً وآخراً عن زمنها إلى زمن آخر، كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلى مزدلفة، ونقل أشهر الحج عن زمنها إلى زمن آخر.

قالوا: فأى فرق بين من نقل صوم رمضان إلى شوال، أو صلى العصر نصف الليل، وبين من حج فى المُحَرَّم ووقف فيه؟ فكيف تصح صلاة هذا. وصيامه دون حج هذا وكلاهما مخالف لأمر الله تعالى، عاصٍ آثمٌ؟

قالوا: فحقوق الله المؤقتة لا يقبلها الله فى غير أوقاتها. فكما لا تقبل قبل دخول أوقاتها لا تقبل بعد خروج أوقاتها. فلو قال: أنا أصوم شوال عن رمضان، كان كما لو قال: أنا أصوم شعبان الذى قبله عنه.

قالوا: فإن الحق الليلى لا يقبل بالنهار، والنهارى لا يقبل بالليل. ولهذا جاء فى وصية الصديق لعمر- رضى الله عنهما- التى تلقاها بالقبول هو وسائر الصحابة «واعلم أن لله حقًا بالليل لا يقبله بالنهار وحقًا بالنهار لا يقبله بالليل».

قالوا: ولأنها إذا فات وقتها المحدود لها شرعًا لم تبق تلك العبادة بعينها. ولكن شىء آخر غيرها. فإذا فعلت العصر بعد غروب الشمس لم تكن عصراً فإن العصر صلاة هذا الوقت المحدود. وهذه ليست عصراً. فلم يفعل مصليها العصر ألبتة. وإنما أتى بأربع ركعات صورتها صورة صلاة العصر، لا أنها هى.

قالوا: وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: **«من ترك صلاة العصر حبط عمله»**[1] وفى لفظ: **«الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهْلَه ومالَه»**[2] فلو كان له سبيل إلى التدارك وفعلها صحيحة: لم يحبط عمله. ولم يُوتَرْ أهله ومالَه، مع صحتها منه وقبولها. لأن معصية التأخير عندكم لا تحقق الترك والفوات، لاستدراكه بالفعل فى الوقت الثانى.

قالوا: وهذه الصلاة مردودة بنص الشارع فلا يسوغ أن يقال بقبولها وصحتها، مع تصريحه بردها وإلغائها كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ من حديث عائشة- رضى الله عنها-

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٢/ ٥٥٣)، والنسائى (جـ١ ص٢٣٦)، وأحمد (جـ٥ ص٣٥٠) عن بريدة.

(٢) أخرجه البخارى (جـ٢/ ٥٥٢)، و مسلم (جـ١ - مساجد/ ٢٠٠، ٢٠١) عن ابن عمر.

قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**(١) وفى لفظ: **«كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»**(٢) وهذا عمل على خلاف أمره. فيكون ردًا. و«الرد» بمعنى المردود، كالخلق بمعنى المخلوق، والضرب بمعنى المضروب.

وإذا ثبت أن هذه الصلاة مردودة فليست بصحيحة ولا مقبولة.

قالوا: ولأن الوقت شرط فى سقوط الإثم، وامتثال الأمر. فكان شرطًا فى براءة الذمة والصحة، كسائر شروطها- من الطهارة، والاستقبال، وستر العورة- فالأمر تناول الشروط تناولاً واحدًا. فكيف ساغ التفريق بينها مع استوائها فى الوجوب والأمر والشرطية؟

قالوا: وليس مع المصححين لها بعد الوقت لا نص ولا إجماع ولا قياس صحيح وسنبطل جميع أقيستهم التى قاسوا عليها ونبين فسادها

قالوا: وفى مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: **«من أفطر يوما من رمضان لغير عذر. لم يقضه عنه صيام الدهر»**(٣) فكيف يقال: يقضيه عنه يوم مثله؟

قالوا: ولأن صحة العبادة: إن فسرت بموافقة الأمر. فلا ريب أن هذه العبادة غير موافقة له. فلا تكون صحيحة. وإن فسرت بسقوط القضاء فإنما يسقط القضاء ما وقع على الوجه المأمور به. وهذا لم يقع كذلك. ولا سبيل إلى وقوعه على الوجه المأمور به. فلا سبيل إلى صحته. وإن فسرت بما أبرأ الذمة. فهذه لم تبرىء الذمة من الإثم قطعًا. ولم يثبت بدليل يجب المصير إليه إبراؤها للذمة من توجه المطالبة بالمأمور.

قالوا: ولأن الصحيح من العبادات: ما اعتبره الشارع ورضيه وقَبلَهُ. وهذا لا يعلم إلا بإخباره عن صحتها، أو بموافقتها أمره. وكلاهما منتف عن هذه العبَادة فكيف يحكم لها بالصحة؟

قالوا: فالصحة والفساد حكمان شرعيان، مرجعهما إلى الشارع. فالصحيح: ما شهد له بالصحة. أو عُلمَ أنه وافق أمره، أو كان مماثلاً لما شهد له بالصحة. فيكون حكم المثل مثله. وهذه العبادةَ قد انتفى عنها كل واحد من هذه الأمور.

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٥/ ٢٦٩٧)، ومسلم (أقضية/ ١٨) بهذا المعنى من حديث عائشة.

(٢) انظر «سنن أبى داود» (جـ٤/ ٤٦٠٦)، و«سنن ابن ماجه» (جـ١/ ١٣).

(٣) علقه البخارى جـ٤- باب إذا جامع فى ر مضان) قال: ويذكر عن أبى هريرة رفعه فذكره، وأخرجه ابن ماجه بهذا المعنى (جـ١/ ١٦٧٢).

ومن أفسد الاعتبار: اعتبارها بالتأخير المعذور به أو المأذون فيه وهو اعتبار الشىء بضده وقياسه على مخالفه فى الحقيقة والشرع وهو من أفسد القياس كما سيأتى .

قالوا: وأما استدلالكم بقول النبى ﷺ: **«من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»**(١) فأوجب القضاء على المعذور. فالمفرط أولى فهذه الحجة إلى أن تكون عليكم، أقرب منها أن تكون لكم. فإن صاحب الشرع شَرَطَ فى فعلها بعد الوقت: أن يكون الترك عن نوم أو نسيان. والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه. فلم يبق معكم إلا مجرد قياس المفرط العاصى المستحق للعقوبة على مَنْ عذره الله، ولم ينسب إلى تفريط ولا معصية. كما ثبت عنه فى الصحيح: **«ليس فى النوم تفريط، إنما التفريط فى اليقظة أن يؤخر صلاة حتى يدخل وقت التى بعدها»**(٢) وأى قياس فى الدنيا أفسد من هذا القياس وأبطل.

قالوا: وأيضًا فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها بل وقتها المأمور به لمثله: حين استيقظ وذكر. كما قال النبى ﷺ : **«من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها. فإن الله يقول: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾»** [طه: ١٤]، وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية أى عند ذكرى أو فى وقت ذكرى

قالوا: والنبى ﷺ ما صلى الصبح يوم الوادى بعد طلوع الشمس إلا فى وقتها حقيقة.

قالوا: والأوقات ثلاثة أنواع: وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور. فهى خمسة. ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهى ثلاثة. فإن فى حقه: وقت الظهر والعصر واحد. ووقت المغرب والعشاء واحد، ووقت الفجر واحد.

فالأوقات فى حق هذا ثلاثة. وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها فى وقت العصر فإنما صلاها فى وقتها .

ووقت فى حق غير المكلف بنوم أو نسيان، فهو غير محدود ألبتة، بل الوقت فى حقه عند يقظته وذكره. لا وقت له إلا ذلك.

هذا الذى دلت عليه نصوص الشرع وقواعده. وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام. وهو قسم رابع فبأيها تلحقونه؟

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر، من حيض أو سفر أو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (جـ١- مساجد/ ٣١١)، وأبو داود (جـ١/ ٤٣٧)، وابن ماجه (جـ١/ ٦٩٨)، وأحمد (جـ٥ ص٢٩٨) عن أبى قتادة.

مرض. ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمداً من غير عذر، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه. ولا تقتضيه قواعده. وإنما غاية ما معكم: قياسه على المعذور مع اطّراد قواعد الشرع على التفريق بينهما، بل قد أخبر الشارع أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطرَه بلا عذر فضلاً عن يوم مثله.

قالوا: وأما قولكم: «إنه كان يجب عليه أمران: العبادة، وإيقاعها فى وقتها. فإذا ترك أحدهما بقى عليه الآخر» فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطًا بالآخر ارتباط الشرطية، كمن أمر بالحج والزكاة. فترك أحدهما: لم يسقط عنه الآخر. أما إذا كان أحدهما شرطًا فى الآخر، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذى لم يؤمر بالمشروط إلا به. فكيف يقال: إنه يؤمر بالآخر بدونه، ويصح منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أمره الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟

قالوا: وإن قلنا إنما يجب القضاء بأمر جديد. فلا أمر معكم بالقضاء فى محل النزاع. وقياسه على مواقع الإجماع: ممتنع كما بيناه. وإن قلنا: يجب بالأمر الأول. فهذا فيما إذا كان القضاء نافعًا، ومصلحته كمصلحة الأداء، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسى. أما إذا كان القضاء غير مبرىء للذمة ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته. فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمر ثان. وإنما هو القياس الذى علم افتراق الأصل والفرع فيه فى وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق.

قالوا: وأما قولكم: «إنه إذا لم يمكن تَدَارُك مصلحة الفعل تَدَارَكَ منها ما أمكن» فهذا إنما يفيد إذا لم يمكن حصول المصلحة على شرط تزول المصلحة بزواله، والتدارك بعد فوات شرطه وخروجه عن الوجه المأمور به ممتنع، إلا بأمر آخر: من التوبة، وتكثير النوافل والحسنات. وأما تدارك غير هذا الفعل فكلاَ ولما.

قالوا: وأما قوله ﷺ: **«إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم»**(١) فقد أبعد النُّجْعَةَ من احتج به. فإن هذا إنما يدل على أن المكلف إذا عجز عن جملة المأمور به أتى بما يقدر عليه منه- كمن عجز عن القيام فى الصلاة، أو عن إكمال غسل أعضاء الوضوء، أو عن إكمال الفاتحة، أو عن تمام الكفاية فى الإنفاق الواجب ونحو ذلك- أتى بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما عجز عنه. أما من ترك المأمور به حتى خرج وقته عمدًا وتفريطًا بلا عذر فلا يتناوله الحديث. ولو كان الحديث متناولاً له لما توعده بإحباط عمله، وتشبيهه بمن سلب أهله وماله وبقى بلا أهل ولا مال.

---

(١) سبق تخريجه وبيان صحته.

قالوا: وأما قولكم: «إنه لا يظن بالشرع تخفيفه عن هذا العامد المفرط بعدم إيجاب القضاء عليه، وتكليف المعذور به» فكلام بعيد عن التحقيق بيِّن البطلان. فإن هذا المعذور: إنما فعل ما أمر به في وقته كما تقدم، فهو فى فعل ما أمر به كغير المعذور الذى صلى في وقته. ونحن لم نسقط القضاء عن العامد المفرط تخفيفًا عنه. بل لأنه غير نافع له، ولا مقبول منه، ولا مأمور به فلا سبيل له إلى تحصيل مصلحة ما تركه، فأين التخفيف عنه؟

قالوا: وأما قولكم: «إن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت، وإذا تعذر المبدل انتقل إلى بدله» فهل هذا إلا مجرد دعوى؟ وهل وقع النزاع إلا فى هذا؟ فما الدليل على أن صلاة هذا المفرط العامد بدل؟ ونحن نطالبكم بالأمر بها أولاً، وبكونها مقبولة نافعة ثانيًا، وبكونها بدلاً ثالثًا، ولا سبيل لكم إلى إثبات شىء من ذلك ألبتة.

وإنما يعلم كون الشىء بدلاً بجعل الشارع له كذلك، كشرعه التيمم عند العجز عن استعمال الماء. والإطعام عند العجز عن الصيام. وبالعكس. كما فى كفارة اليمين. فأين جعل الشرع قضاء هذا المفرط المضيع بدلاً عن فعله العبادة فى الوقت؟ وهل ذلك إلا القياس الذى قد تبين فساده؟

قالوا: وأما قياسكم فعلها خارج الوقت على صحة أداء ديون الآدميين بعد وقتها. فمن هذا النمط. لأن وقت الوجوب فى حقه ليس محدود الطرفين كوقت الصلاة، فالوجوب فى حقه ليس مؤقتا محدودًا بل هو على الفور. كالزكاة والحج عند من يراه على الفور فلا يتصور فيه إخراجٌ عن وقتٍ محدودٍ هو شرط لفعله.

نعم أولى الأوقات به: الوقتُ الأول على الفور. وتأخيره عنه لا يوجب كونه قضاء.

فإن قيل: فما تصنعون بقضاء رمضان. فإنه محدود على جهة التوسعة بما بين رمضانين. ولا يجوز تأخيره مع القدرة إلى رمضان آخر؟ ومع هذا لو أخره لزمه فعله وإطعام كل يوم مسكينًا. كما أفتى به الصحابة رضى الله عنهم. وهذا دليل على أن العبادة المؤقتة لا يتعذر فعلها بعد خروج وقتها المحدود لها شرعًا؟

قيل: قد فَرَّقَ الشارع بين أيام رمضان وبين أيام القضاء. فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين، لا يجوز تقدمها ولا تأخرها. وأطلق أيام قضائه. فقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤]، فأطلق العدة ولم يُوَقِّتْهَا. وهذا يدل على أنها تجزىء فى أى أيام كانت، ولم يجىء نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على تقييدها

بأيامٍ لا تجزىء فى غيرها وليس فى الباب إلا حديث عائشة- رضى الله عنها-: «كان يكون عَلَىَّ الصوم من رمضان. فلا أقضيه إلا فى شعبان من الشغل برسول اللهﷺ»(١) ومعلوم أن هذا ليس صريحًا فى التوقيت بما بين الرمضانين. كتوقيت أيام رمضان بما بين الهلالين. فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع، وجَمْعٌ بين ما فرق الله بينهما. فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد لا تتقدم عنه ولا تتأخر. وأطلق أيام القضاء، وأكد إطلاقها بقوله: «أُخَر» وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر، جبرًا لزيادة التأخير عن المدة التى بين الرمضانين. ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء، بل هى قضاء. وإن فُعلَتْ بعد رمضان آخر. فحكمها فى القضاء قبل رمضان وبعده واحد، بخلاف أيام رمضان.

يوضح هذا: أنه لو أفطر يومًا من أيام رمضان عمدًا بغير عذر لم يتمكن أن يقيم مقامه يومًا آخر مثله ألبتة. ولو أفطر يومًا من أيام القضاء قام اليوم الذى بعده مقامه.

وسر الفرق: أن المعذور لم يتعين فى حقه أيام القضاء. بل هو مخير فيها. وأى يوم صامه قام مقام الآخر. وأما غير المعذور: فأيام الوجوب متعينة فى حقه لا يقوم غيرها مقامها.

قالوا: وأما من ترك الجمعة عمدًا: فإنما أوجبنا عليه الظهر. لأن الواجب فى هذا الوقت أحد الصلاتين ولا بد، إما الجمعة وإما الظهر. فإذا ترك الجمعة فوقت الظهر قائم. وهو مخاطب بوظيفة الوقت.

قالوا: ولا سيَّما عند من يجعل الجمعة بدلاً من الظهر. فإنه إذا فاته البدل رجع إلى الأصل. وهذا إن كان القضاء ثابتًا بالإجماع أو بالنص. وإن كان فيه خلاف أجبنا بالجواب المركب.

فنقول: إن كان ترك الجمعة مساويًا لترك الصلاة حتى يخرج وقتها، فالحكم فى الصورتين واحد. ولا فرق حينئذ، عملاً بما ذكرنا من الدليل. وإن كان بينهما فرق مؤثر بطل الإلحاق. فامتنع القياس. فعلى التقديرين بطل القياس.

قالوا: وأما تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب إلى غروب الشمس: فللناس فى هذا التأخير- هل هو منسوخ أم لا؟- قولان.

فقال الجمهور - أحمد والشافعى ومالك-: هذا كان قبل نزول صلاة الخوف ثم نُسخَ بصلاة الخوف، وكان ذلك التأخير كتأخير صلاة الجمع بين الصلاتين، فلا يجوز اعتبار

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٤/ ١٩٥٠)، والنسائى (جـ٤ ص١٩١) عن عائشة.

الترك المحرم به. ويكون الفرق بينهما كالفرق بين تأخير النائم والناسى، وتأخير المفرط: بل أولى فإن هذا التأخير حينئذ مأمور به، فهو كتأخير المغرب ليلة جمع إلى مزدلفة.

القول الثانى: أنه ليس بمنسوخ. بل هو باق. وللمقاتل تأخير الصلاة حال القتال. واشتغاله بالحرب والمسايفة، وفعلها عند تمكنه منها، وهذا قول أبى حنيفة ويُذْكَرُ روايةً عن أحمد.

وعلى التقديرين: فلا يصح إلحاق تأخير العامد المفرط به. وكذلك تأخير الصحابة العصر يوم بنى قريظة. فإنه كان تأخيراً مأموراً به عند طائفة من أهل العلم، كأهل الظاهر، أو تأخيراً سائغًا للتأويل عند بعضهم. ولهذا لم يعنف النبى ﷺ من صلاها فى الطريق فى وقتها. ولا من أخَّرَها إلى الليل حتى صَلاَّها فى بنى قريظة، لأن هؤلاء تمسكوا بظاهر الأمر، وأولئك نظروا إلى المعنى والمراد منهم وهو سرعة السير.

واختلف علماء الإسلام فى تصويب أى الطائفتين. فقالت طائفة: لو كنا مع القوم لصلينا فى الطريق مع الذين فهموا المراد. وعقلوا مقصود الأمر. فجمعوا بين إيقاع الصلاة فى وقتها وبين المبادرة إلى العدول ولم يفتهم مشهدهم. إذ المقدار الذى سبقهم به أولئك لحقوهم به، لما اشتغلوا بالصلاة وقت النزول فى بنى قريظة.

قالوا: فهؤلاء أفقه الطائفتين، جمعوا بين الامتثال والاجتهاد. والمبادرة إلى الجهاد، مع فقه النفس.

وقالت طائفة: لو كنا معهم لأخرنا الصلاة مع الذين أخروها إلى بنى قريظة. فهم الذين أصابوا حكم الله قطعًا. وكان هذا التأخير واجبًا، لأمر رسول الله ﷺ به. فهو الطاعة لله ذلك اليوم خاصة، والله يأمر بما يشاء. فأمره بالتأخير فى وجوب الطاعة: كأمره بالتقديم فهؤلاء كانوا أسعد بالنص. وهم الذين فازا بالأجرين. وإنما لم يعنف الآخرين لأجل التأويل والاجتهاد. فإنهم إنما قصدوا طاعة الله ورسوله. وهم أهل الأجر الواحد. وهم كالحاكم الذى يجتهد فيخطىء الحق.

والمقصود: أن إلحاق المفرط العاصى بالتأخير بهؤلاء فى غاية الفساد.

قالوا: وأما قولكم: «هذا تائب نادم. فكيف تسد عليه طريق التوبة ويجعل إثم التضييع لازمًا له وطائرًا فى عنقه؟» فمعاذ الله أن نسد عليه بابًا فتحه الله لعباده المذنبين كلهم، ولم يغلقه عن أحد إلى حين موته، أو إلى وقت طلوع الشمس من مغربها. وإنما الشأن فى طريق توبته وتحقيقها. هل يتعين لها القضاء أم يستأنف العمل، ويصير ما مضى لا له ولا عليه.

ويكون حكمه حكم الكافر إذا أسلم فى استئناف العمل وقبول التوبة؟ فإنَّ تَرْكَ فريضة من فرائض الإسلام، لا يزيد على ترك الإسلام بجملته وفرائضه. فإذا كانتَ توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة. لا يشترط فى صحتها إعادة ما فاته فى حال إسلامه- أصليًا كان أو مرتدًا- كما أجمع عليه الصحابة فى ترك أمر المرتدين- لما رجعوا إلى الإسلام بالقضاء- فقبول توبة تارك الصلاة وعدم توقفها على القضاء أولى. والله أعلم.

حقوق العباد

وأما في حقوق العباد: فيتصور في مسائل:

إحداها: من غصب أموالاً. ثم تاب وتعذر عليه ردها إلى أصحابها، أو إلى ورثتهم، لجهله بهم، أو لانقراضهم أو لغير ذلك، فاختلف فى توبة مثل هذا.

فقالت طائفة: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها. فإذا كان ذلك قد تعذر عليه فقد تعذرت عليه التوبة، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا.

قالوا: فإن هذا حق للآدمى لم يصل إليه. والله سبحانه لا يترك من حقوق عباده شيئًا بل يستوفيها لبعضهم من بعض، ولا يجاوزه ظلم ظالم. فلا بد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه ولو لَطْمة، ولو كَلمَة، ولو رَمْية بحجر.

قالوا: وأقرب ما لهذا فى تدارك الفارط منه: أن يكثر من الحسنات، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها. ومن أنفع ما له الصبر على ظلم غيره له وأذاه وغيبته وقذفه فلا يستوفى حقه فى الدنيا. ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته. فإنه كما يؤخذ منه ما عليه يستوفى أيضًا ماله. وقد يتساويان. وقد يزيد أحدهما على الآخر.

ثم اختلف هؤلاء فى حكم ما بيده من الأموال.

فقالت طائفة: يوقف أمرها ولا يتصرف فيها ألبتة.

وقالت طائفة: يدفعها إلى الإمام أو نائبه. لأنه وكيل أربابها، فيحفظها لهم، ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة.

وقالت طائفة أخرى: بل باب التوبة مفتوح لهذا. ولم يغلقه الله عنه، ولا عن مذنب. وتوبته: أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق، كان لهم الخيار، بين أن يجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم، وبين أن لا يجيزوا، ويأخذوا من

حسناته بقدر أموالهم، ويكون ثواب تلك الصدقة له، إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض. فيغرمه إياها. ويجعل أجرها لهم، وقد غرم من حسناته بقدرها.

وهذا مذهب جماعة من الصحابة، كما هو مروى عن ابن مسعود، ومعاوية وحجاج بن الشاعر. فقد روى أن ابن مسعود: «اشترى من رجل جارية، ودخل يزن له الثمن. فذهب رب الجارية، فانتظره حتى يئس من عوده. فتصدق بالثمن. وقال: اللهم هذا عن رب الجارية. فإن رضى فالأجر له، وإن أبى فالأجر لى. وله من حسناتى بقدره» و«غَلَّ رجُلٌ من الغنيمة ثم تاب، فجاء بما غله إلى أمير الجيش. فأبى أن يقبله منه، وقال: كيف لى بإيصاله إلى الجيش، وقد تفرقوا؟ فأتى حجاج بن الشاعر. فقال: يا هذا، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم، فادفع خُمُسَهُ إلى صاحب الخمس، وتصدق بالباقى عنهم. فإن الله يوصل ذلك إليهم- أو كما قال- ففعل. فلما أخبر معَاوية قال: «لأن أكون أفتيك بذلك أحب إلى من نصف ملكى».

قالوا: وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربها، بعد تعريفها، ولم يرد أن يتملكها، تصدق بها عنه، فإن ظهر مالكها خيره بين الأجر والضمان.

قالوا: وهذا لأن المجهول فى الشرع كالمعدوم. فإذا جُهِلَ المالك صار بمنزلة المعدوم، وهذا مال لم يعلم له مالك معين، ولا سبيل إلى تعطيل الانتفاع به، لما فيه من المفسدة والضرر بمالكه وبالفقراء، وبمن هو فى يده: أما المالك فلعدم وصول نفعه إليه وكذلك الفقراء وأما من هو فى يده فلعدم تمكنه من الخلاص من إثمه، فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به، ومثل هذا لا تبيحه شريعة فضلاً عن أن تأمر به وتوجبه، فإن الشرائع مبناها على المصالح بحسب الإمكان وتكميلها، وتعطيل المفاسد بحسب الإمكان وتقليلها. وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به مفسدة محضة؛ لا مصلحة فيها فلا يصار إليه.

قالوا: وقداستقرت قواعد الشرع على أن الإذن العرفى كاللفظى. فمن رأى بمال غيره موتًا- وهو مما يمكن استدراكه بذبحه- فذبحه إحسانًا إلى مالكه ونصحًا له، فهو مأذون له فيه عرفًا. وإن كان المالك سفيهًا، فإذا ذبحه لمصلحة مالكه لم يضمنه، لأنه محسن: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وكذلك إذا غصبه ظالم أو خاف عليه منه. فصالحه عليه ببعضه، لِيَسْلَمَ الباقى لمالكه، وهو غائب عنه، أو رآه آيلاً إلى تَلَف مَحْض فباعه وحفظ ثمنه له، ونحو ذلك، فإن هذا كله مأذون فيه عُرْفًا من المالك. وقد باع عروة بن

الجعد البارقى- وكيل النبى ﷺ- ملك النبى ﷺ- بغير إذنه لفظًا، واشترى له ببعض ثمنه مثل ما وَكَّلَهُ فى شرائه بذلك الثمن كله ثم جاءه بالثمن وبالمشترى. فقبله النبى ﷺ ودعا له.

وأشكل هذا على بعض الفقهاء وبناه على تصرف الفضولى. فأورد عليه أن الفضولى لا يَقْبِضُ ولا يُقَبِّضُ، وهذا قبض وأقبض.

وبناه آخرون على أنه كان وكيلاً مطلقًا فى كل شىء. وهذا أفسد من الأول. فإنه لا يعرف عن رسول الله ﷺ أنه وكل أحدًا وكالة مطلقة ألبتة. ولا نقل ذلك عنه مسلم.

والصواب: أنه مبنى على هذه القاعدة أن «الإذن العرفى كالإذن اللفظى» ومن رضى بالمشترى وخرج ثمنه عن ملكه، فهو بأن يرضى به ويحصل له الثمن أشد رضى.

ونظير هذا: مريض عجز أصحابه- فى السفر أو الحضر- عن استئذانه فى إخراج شىء من ماله فى علاجه، وخيف عليه، فإنهم يخرجون من ماله ما هو مضطر إليه بدون استئذانه. بناء على العرف فى ذلك، ونظائر ذلك مما مصلحته وحسنه مستقر فى فطر الخلق، ولا تأتى شريعة بتحريمه كثير.

وإذا ثبت ذلك، فمن المعلوم: أن صاحب هذا المال الذى قد حيل بينه وبينه أشد شىء رضى بوصول نفعه الأخروى إليه، وهو أكره شىء لتعطيله أو إبقائه مقطوعًا عن الانتفاع به دنيا وأخرى، وإذا وصل إليه ثواب ماله سَرَّهُ ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه فى الدنيا. فكيف يقال: مصلحة تعطيل هذا المال- عن انتفاع الميت والمساكين به ومن هو بيده- أرجح من مصلحة إنفاقه شرعًا؟ بل أى مصلحة دينية أو دنيوية فى هذا التعطيل؟ وهل هو إلا محض المفسدة؟

ولقد سئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية- قدس الله روحه- سأله شيخ، فقال: «هربت من أستاذى (١) وأنا صغير إلى الآن. لم أطَّلِعْ له على خبر، وأنا مملوك، وقد خفت من الله عز وجل، وأريد براءة ذمتى من حق أستاذى من رقبتى، وقد سألت جماعة من المفتين. فقالوا لى: اذهب فاقعد فى المستودع؛ فضحك شيخنا وقال: تصدق بقيمتك- أعلى ما كانت- عن سيدك. ولا حاجة لك بالمستودع، تقعد فيه عبثا فى غير مصلحة، وإضرارًا بك، وتعطيلاً عن مصالحك، ولا مصلحة لأستاذك فى هذا؛ ولا لك ولا للمسلمين. أو نحو هذا من الكلام. والله أعلم.

---

(١) الأستاذ: كلمة معربة تطلق على المعلم وعلى الماهر فى الصناعة يعلمها غيره.

المسألة الثانية: إذا عاوض غيره معاوضة محرمة، وقبض العوض - كالزانية، والمغني، وبائع الخمر، وشاهد الزور ونحوهم - ثم تاب والعوض بيده.

فقالت طائفة: يرده إلى مالكه إذ هو عين ماله. ولم يقبضه بإذن الشارع. ولا حصل لربه في مقابلته نفع مباح.

وقالت طائفة: بل توبته بالتصدق به، ولا يدفعه إلى من أخذه منه. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. وهو أصوب القولين. فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكه له، ورضاه ببذله. وقد استوفى عوضه المحرم. فكيف يجمع له بين العوض والمعوض؟ وكيف يرد عليه مالاً قد استعان به على معاصي الله، ورضي بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانيًا وثالثًا؟ وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع: أن يقضي للزاني بكل ما دفعه إلى من زنى بها، ويؤخذ منها ذلك طوعًا أو كرهًا، فيعطاه وقد نال عوضه؟

وَهَبْ أن هذا المال لم يملكه الآخذ، فملك صاحبه قد زال عنه بإعطائه لمن أخذه. وقد سلم له ما في قبالته من النفع، فكيف يقال: ملكه باق عليه ويجب رده إليه؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به. فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضى صاحبه وبذله له بذلك، وصاحبه قد رضي بإخراجه عن ملكه بذلك، وأن لا يعود إليه، فكان أحق الوجوه به: صرفه في المصلحة التي ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه الإثم، ولا يقوى الفاجر به ويُعَانُ ويجمع له بين الأمرين. وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام، وتعذر عليه تمييزه: أن يتصدق بقدر الحرام ويُطَيِّب باقي ماله. والله أعلم.

توبة الغاصب

إذا غصب مالاً ومات ربه، وتعذر رده عليه تعين عليه رده إلى وارثه، فإن مات الوارث رده إلى وارثه، وهلم جرًّا فإن لم يرده إلى ربه، ولا إلى أحد ورثته فهل تكون المطالبة به في الآخرة للموروث، إذ هو ربه الأصلي، وقد غصبه عليه، أو للوارث الأخير. إذ الحق قد انتقل إليه؟

فيه قولان للفقهاء، وهما وجهان في مذهب الشافعي.

ويحتمل أن يقال: المطالبة للموروث، ولكل واحد من الورثة، إذ كل منهم قد كان يستحقه، ويجب عليه الدفع إليه. فقد ظلمه بترك إعطائه ما وجب عليه دفعه إليه، فيتوجه عليه المطالبة في الآخرة له.

فإن قيل: فكيف يتخلص بالتوبة من حقوق هؤلاء؟

قيل: طريق التوبة: أن يتصدق عنهم بمال تجرى منافع ثوابه عليهم بقدر ما فات كل واحد منهم من منفعة ذلك المال لو صار إليه، مُتَحَرِّيًا للممكن من ذلك، وهكذا لو تطاولت على المال سنون، وقد كان يمكن ربه أن ينميه بالربح. فتوبته بأن يخرج المال ومقدار ما فَوَّتَهُ من ربح ماله.

فإن كان قد ربح فيه بنفسه. فقيل: الربح كله للمالك. وهو قول الشافعى وظاهر مذهب أحمد -رحمهما الله.

وقيل: كله للغاصب. وهو مذهب أبى حنيفة ومالك رحمهما الله.

وكذلك لو أودعه مالاً فاتجر به وربح، فربحه له دون مالكه عندهما وضمانه عليه. وفيها قول ثالث: أنهما شريكان فى الربح. وهو رواية عن أحمد رحمه الله واختيار شيخنا رحمه الله. وهو أصح الأقوال، فتضم حصة المالك من الربح إلى أصل المال ويتصدق بذلك.

وهكذا لو غصب ناقة أو شاة، فنتجت أولادًا فقيل: أولادها كلها للمالك. فإن ماتت- أو شىء من النتاج- رد أولادها وقيمة الأم وما مات من النتاج. هذا مذهب الشافعى وأحمد فى المشهور عند أصحابه.

وقال مالك: إذا ماتت فربها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وترك نتاجها للغاصب، وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها. وعلى القول الثالث الراجح: يكون عليه قيمتها، وله نصف النتاج. والله أعلم.

الذنوب التى لا تُقْبَلُ التوبة منها

اختلف الناس: هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أم لا؟

فقال الجمهور: التوبة تأتى على كل ذنب؛ فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل.

وقالت طائفة: لا توبة للقاتل. وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه، وإحدى الروايتين عن أحمد. وقد ناظر ابن عباس فى ذلك أصحابه، فقالوا[1]: «أليس قد قال الله تعالى فى سورة الفرقان: ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، إلى أن قال: ﴿ إِلَّا

(١) القصة فى البخارى (جـ٨/ ٤٨١٠)، ومسلم (جـ١- إيمان/ ١٩٣) عن ابن عباس.

مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)﴾ [الفرقان: ٧٠]، فقال: كانت هذه الآية فى الجاهلية وذلك أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا فأتوا رسول الله فقالوا: «إن الذى تدعو إليه لحسن لو تُخْبِرُنَا أن لما عملناه كفارة»، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآيـة [الفرقان: ٦٨]، فهذه فى أولئك وأما التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾ [النساء: ٩٣]، فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه، ثم قتل. فجزاؤه جهنم وقال زيد بن ثابت: «لما نزلت التى فى الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر. ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة» وأراد بالغليظة: هذه الآية التى فى سورة النساء، وباللينة: آية الفرقان. قال ابن عباس: «آية الفرقان مكية. وآية النساء مدنية. نزلت ولم ينسخها شىء».

قال هؤلاء: ولأن التوبة من قتل المؤمن عمدًا متعذرة. إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله، أو إعادة نفسه- التى فوتها عليه- إلى جسده. إذ التوبة من حق الآدمى لا تصح إلا بأحدهما وكلاهما متعذر على القاتل فكيف تصح توبته من حق آدمى لم يصل إليه. ولم يستحله منه؟

ولا يُرَدُّ عليهم هذا فى المال إذا مات ربه ولم يوفه إياه لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة.

قالوا: ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل، وتصح التوبة منه فإن ذلك محض حق الله. فالتوبة منه ممكنة. وأما حق الآدمى: فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله، وقد تعذر.

واحتج الجمهور بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر: ٥٣]، فهذه فى حق التائب. وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذه فى حق غير التائب. لأنه فَرَّقَ بين الشرك وما دونه. وعلق المغفرة بالمشيئة، فَخَصَّصَ وعَلَّقَ، وفى التى قبلها عَمَّمَ وأَطْلَقَ.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ [طه]، فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحًا فإن الله عز وجل غفار له.

قالوا: وقد صح عن النبى حديث الذى قتل المائة ثم تاب فنفعته توبته[١] وألحق بالقرية الصالحة التى خرج إليها. وصح عنه ﷺ- من حديث عبادة بن الصامت- رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ- قال وحوله عصابة من أصحابه-: «بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعوقب به فى الدنيا. فهو كفارة له. ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك».

قالوا: وقد قال ﷺ- فيما يروى عن ربه -تبارك وتعالى-: «**ابن آدم، لو لقيتنى بقُراب الأرض خطايا. ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لقيتك بقرابها مغفرة**» وقال: «**من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة**» وقال: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[٢] وقال: «**إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله**»[٣] وفى حديث الشفاعة أخرجوا من النار من فى قلبه مثال حبة من خردل من إيمان وفيه يقول الله تعالى: «**وعزتى وجلالى لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله**»[٤] وأضعاف هذه النصوص كثير تدل على أنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد.

قالوا: وأما هذه الآية التى فى النساء: فهى نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)**﴾ [النساء: ١٤]، وقوله: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ [الجن: ٢٣]، وقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)**﴾ [النساء]، وقوله ﷺ: «**من قتل نفسه بحديدة فحديدته يتوجأبها خالدًا مخلدًا فى نار جهنم**»[٥] ونظائره كثيرة.

وقد اختلف الناس فى هذه النصوص على طرق.

أحدها: القول بظاهرها، وتخليد أرباب هذه الجرائم فى النار. وهو قول الخوارج والمعتزلة، ثم اختلفوا.

---

(١) القصة فى صحيح البخارى (جـ٦/ ٣٤٧٠)، وفى صحيح مسلم (جـ٤ ص٢١١٩).

(٢، ٣) سبق تخريجهما.

(٤) أخرجه البخارى (جـ١٣/ ٧٥١٠) عن أنس، ومسلم (جـ١- إيمان/ ٣٢٦) عن أبى هريرة.

(٥) أخرجه البخارى (جـ١٠/ ٥٧٧٨)، ومسلم (جـ١- إيمان/ ١٧٥) عن أبى هريرة.

فقالت الخوارج: هم كفار. لأنه لا يخلد فى النار إلا كافر. وقالت المعتزلة: ليسوا بكفار. بل فُسَّاق، مخلدون فى النار. هذا كله إذا لم يتوبوا.

وقالت فرقة: بل هذا الوعيد فى حق المستحلِّ لها. لأنه كافر. وأما من فعلها معتقداً تحريمها: فلا يلحقه هذا الوعيد- وعيدالخلود- وإن لحقه وعيد الدخول.

وقد أنكر الإمام أحمد هذا القول. وقال لو استحلَّ ذلك ولم يفعله كان كافراً. والنبى ﷺ إنما قال من فعل كذا وكذا.

وقالت فرقة ثالثة: الاستدلال بهذه النصوص مبنى على ثبوت العموم. وليس فى اللغة ألفاظ عامة. ومنْ ههنا أنكر العموم مَنْ أنكره، وقَصْدُهُم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها، لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملة. بل تعطيل عامة الأخبار. فهؤلاء ردُّوا باطلاً بأبطل منه، وبدعة بأقبح منها. وكانوا كمن رام أن يبنى قصراً فَهَدَمَ مِصْرًا.

وقالت فرقة رابعة: فى الكلام إضمار.

قالوا: والإضمار فى كلامهم كثير معروف.

ثم اختلفوا فى هذا المضمر. فقالت طائفة: بإضمار الشرط. والتقدير: فجزاؤه كذا إن جازاه، أو إن شاء.

وقالت فرقة خامسة: بإضمار الاستثناء. والتقدير: فجزاؤه كذا إلا أن يعفو. وهذه دعوى لا دليل فى الكلام عليها ألبتة. ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ.

وقالت فرقة سادسة: هذا وعيد. وإخلاف الوعيد لا يذم. بل يمدح، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد. ولا يجوز عليه خُلْفُ الوعد. والفرق بينهما أن الوعيد حقه. فإخلافه عفو وهبة وإسقاط، وذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه، والوعد حق عليه، أوجبه على نفسه والله لا يخلف الميعاد.

قالوا: ولهذا مدح به كعب بن زهير رسول الله ﷺ حيث يقول:

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

وتناظر فى هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد، فقال عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو لا يخلف الله وعده وقد قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية [النساء: ٩٣]، فقال له أبو عمرو: ويحك يا عمرو من العُجْمَةِ أتيتَ. إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذمًا. بل جُودًا وكرمًا. أما سمعت قول الشاعر:

ولا يرهب ابن العم ما عِشْتُ صَوْلَتى ... ولا يختشى من سطوة المتهدد
وإنى إن أوعدته أو وعَدْتَه ... لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

وقالت فرقة سابعة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة. ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وُجُودُه. فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه. وغاية هذه النصوص: الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع. فبعضها بالإجماع. وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع. والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التى لا مدفع لها. والحسنات العظيمة الماحية مانعة. والمصائب الكبار المكفرة مانعة. وإقامة الحدود فى الدنيا مانع بالنص. ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص. فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن ههنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية. وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود. وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقا وأمراً. وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضداً يدافعه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما؛ فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه. فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له.

ومن ههنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة، ولا يدخل النار وعكسه. ومن يدخل النار، ثم يخرج منها. ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث فى سرعة الخروج وبطئه.

ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه من أمر المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده رأى عين. ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته. وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك. ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة مالا يليق به إليه. فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره. وهذا يقين الإيمان. وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب.

وصاحب هذا المقام من الإيمان: يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه

وكثرت. فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله بعدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله.

فهذه مجامع طرق الناس فى نصوص الوعيد.

واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسَلَّم نفسه. فقتل قصاصًا، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟

فقالت طائفة: لا يبقى عليه شيء؛ لأن القصاص حده، والحدود كفارة لأهلها وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم. وهم قائمون مقامه فى ذلك. فكأنه قد استوفاه بنفسه. إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله.

يوضح هذا: أنه أحد الجنايتين فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شيء كما لو جنى على طرفه فاستقاد منه فإنه لا يبقى له عليه شيء.

وقالت طائفة: المقتول قد ظلم وفاتت عليه نفسه. ولم يستدرك ظلامته. والوارث إنما أدرك ثأر نفسه، وشفاء غيظه. وأى منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأى ظُلاَمَةٍ استوفاها من القاتل؟

قالوا: فالحقوق فى القتل ثلاثة: حق لله وحق للمقتول. وحق للوارث. فحق الله: لا يزول إلا بالتوبة. وحق الوارث: قد استوفاه بالقتل. وهو مخير بين ثلاثة أشياء: بين القصاص، والعفو مجانا أو إلى مال. فلو أحلَّه، أو أخذ منه مالاً لم يسقط حق المقتول بذلك. فكذلك إذا اقتص منه. لأنه أحد الطرق الثلاثة فى استيفاء حقه. فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين؟

قالوا: ولو قال القتيل: لا تقتلوه لأطالبه بحقى يوم القيامة. فقتلوه، أكان يسقط حقه ولم يسقطه؟ فإن قلتم: يسقط. فباطل. لأنه لم يرض بإسقاطه. وإن قلتم: لا يسقط. فكيف تسقطونه إذا اقتص منه، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه؟

وهذه حجج كما ترى فى القوة، لا تندفع إلا بأقوى منها أو بأمثالها.

فالصواب-والله أعلم- أن يقال: إذا تاب القاتل من حق الله، وسلم نفسه طوعًا إلى الوارث، ليستوفى منه حق موروثه: سقط عنه الحقان. وبقى حق الموروث لا يضيعه الله. ويجعل من تمام مغفرته للقاتل: تعويض المقتول. لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله. والتوبة النصوح تهدم ما قبلها. فيعوض هذا عن مظلمته، ولا يعاقب هذا لكمال توبته، وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلمًا فى الصف. ثم أسلم وحسن إسلامه، فإن الله

سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول. ويغفر للكافر بإسلامه. ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلمًا. فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله.

وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد، فعفا عنه الولى وتاب القاتل توبة نصوحًا. فالله تعالى يقبل توبته، ويعوض المقتول.

فهذا الذى يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده. والحكم بعد ذلك لله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل: ٧٨].

فى مشاهد الخلق فى المعصية

وهى ثلاثة عشر مشهدًا:

مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة، ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة، ومشهد الجبر، ومشهد القدر، ومشهد الحكمة، ومشهد التوفيق والخذلان، ومشهد التوحيد، ومشهد الأسماء والصفات، ومشهد الإيمان وتعدد شواهده، ومشهد الرحمة، ومشهد العجز والضعف، ومشهد الذل والافتقار، ومشهد المحبة والعبودية.

فالأربعة الأول للمنحرفين. والثمانية البواقى لأهل الاستقامة، وأعلاها: المشهد العاشر.

وهذا الفصل من أجلِّ فصول الكتاب. وأنفعها لكل أحد. وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به فى كتاب سواه. إلا ما ذكرناه فى كتابنا المسمى «سفر الهجرتين فى طريق السعادتين».

فأما مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة: فمشهد الجُهَّال، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا فى اعتدال القامة ونطق اللسان. ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأى طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلاً عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر وهم فى أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التى هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية. لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب. ونبحَ كُلَّ كلب يدنو منها. فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة. ولا يسمح لكلب بشىء منها. وهَمه شبع بطنه من أى طعام اتفق: ميتة أو مذكى، خبيث أو طيب، ولا يستحى من قبيح، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك. وإن منعته هرَّكَ ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية، لم تخلق إلا للكَدِّ والعلف. كلما زيد فى علفه زيد فى كده أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا مثل الله سبحانه وتعالى به من حَمَّلَهُ كتابه. فلم يحمله معرفة ولا فقهًا ولا عملاً، ومَثَّلَ بالكلب عالم السوء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفى هذين المثلين أسرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية، همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضى طبيعة السبع لما يصدر منه.

ومنهم: من نفسه فأرية، فاسق بطبعه، مفسد لما جاوره، تسبيحه بلسان الحال: سبحان من خلقه للفساد.

ومنهم: من نفسه على نفوس ذوات السموم والحُمَات، كالحية والعقرب وغيرهما. وهذا الضرب هو الذى يؤذى بعينه. فيدخل الرجلَ القَبْرَ والجملَ القدْر. والعين وحدها لم تفعل شيئًا، وإنما النفس الخبيثة السمية تكيفت بكيفية غضبية، مع شدة حسد وإعجاب، وقابلت المَعينَ على غرَّة منه وغفلة- وهو أعزل من سلاحه- فلدغته كالحية التى تنظر إلى موضع مكشوَف من بدَن الإنسان فتنهشه. فإما عطب وإما أذى. ولهذا لا يتوقف أذى العائن على الرؤية والمشاهدة. بل إذا وصف له الشيء الغائب عنه وصل إليه أذاه. والذنب لجهل المعين وغفلته وغرته عن حمل سلاحه كل وقت، فالعائن لا يؤثر فى شاكى السلاح، كالحية إذا قابلت درعا سابغًا على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف. فحق على من أراد حفظ نفسه وحمايتها: أن لا يزال متدرعًا متحصنًا لابسًا أداة الحرب، مواظبًا على أوراد التعوذات، والتحصينات النبوية، التى فى القرآن والتى فى السنة.

وإذا عرف الرجل بالأذى بالعين: ساغ- بل وَجَبَ- حبسُه وإفراده عن الناس، ويطعم ويسقى حتى يموت، ذكر ذلك غير واحد من الفقهاء، ولا ينبغى أن يكون فى ذلك خلاف. لأن هذا من نصيحة المسلمين، ودفع الأذى عنهم، ولو قيل فيه غير ذلك لم يكن بعيداً من أصول الشرع.

فإن قيل: فهل تُقيدُون منه إذا قتل بعينه؟

قيل: إن كان ذلك بغير اختياره، بل غلب على نفسه لم يقتص منه، وعليه الدية. وإن تعمد وقدر على رده، وعلم أنه يقتل به: ساغ للولى أن يقتله بمثل ما قتل به، فيعينه إن شاء، كما عان هو المقتول. وأما قتله بالسيف قصاصًا: فلا. لأن هذا ليس مما يقتل غالبًا، ولا هو مماثل لجنايته.

وسألت شيخنا أبا العباس ابن تيمية- قدس الله روحه- عن القتل بالحال هل يوجب القصاص ؟

فقال: للولى أن يقتله بالحال(١). كما قتل به.

فإن قيل: فما الفرق بين القتل بهذا وبين القتل بالسحر حيث توجبون القصاص به بالسيف؟

قلنا: الفرق من وجهين:

أحدهما: أن السحر الذى يقتل به: هو السحر الذى يقتل مثله غالبًا. ولا ريب أن هذا كثير فى السحر. وفيه مقالات وأبواب معروفة للقتل عند أربابه.

الثانى: أنه لا يمكن أن يقتص منه بمثل ما فعل. لكونه مُحَرَّمًا لحق الله. فهو كما لو قتله باللواط وتجريع الخمر. فإنه يقتص منه بالسيف.

وليس هذا موضع ذكر هذه المسائل، وإنما ذكرت لما ذكرنا أن من النفوس البشرية ما هى على نفوس الحيوانات العادية وغيرها. وهذا هو تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]

وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا فى رؤية هذه الحيوانات فى المنام عند الإنسان وفى داره، أو أنها تحاربه. وهو كما اعتمدوه. وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك فى المنام وقائع كثيرة. فكان تأويلها مطابقا لأقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبى ﷺ فى قصة أحد «بقرًا تُنْحَرُ» فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار. فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض، وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع والذل- بكسر الذال فإنها ذلول مذللة، منقادة غير أبية. والجواميس كبارهم ورؤساؤهم. ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكًا نقره ثلاث نقرات، فكان طعن أبى لؤلؤة له. والديك رجل أعجمى شرير.

ومن الناس من طبعه طبع خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوى عليها. فإذا قام الإنسان عن رجيعه قَمَّه. وهكذا كثير من الناس. يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوىء، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه. فإذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها، فجعلها فاكهته ونُقْلَهُ.

(١) كذا بالمطبوعة ولا أدرى كيف!!

ومنهم : من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوس والتزين بالريش . وليس وراء ذلك من شيء .

ومنهم : من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان ، وأغلظه كبدًا .

ومنهم : من هو على طبيعة الدب أبكم خبيث ، وعلى طبيعة القرد .

وأحمد طبائع الحيوانات : طبائع الخيل التى هى أشرف الحيوانات نفوسًا ، وأكرمها طبعًا . وكذلك الغنم . وكل من ألف ضربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه . فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى . فإن الغاذى شبيه بالمغتذى .

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير ، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها . والله أعلم .

والمقصود:أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم . لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة .

المشهد الثانى

مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة . كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء الذين يشهدون أن ذلك من لوازم الخلقة الإنسانية ، وأن تركيب الإنسان من الطبائع الأربع وامتزاجها واختلاطها ، كما يقتضى بغى بعضها على بعض ، وخروجه عن الاعتدال- بحسب اختلاف هذه الاخلاط فكذلك تركيبه من البدن والنفس والطبيعة والأخلاط الحيوانية ، تتقاضاه آثار هذه الخلقة ورسوم تلك الطبيعة . ولا تنقهر إلا بقاهر . إما من نفسه ، وإما من خارج عنه . وأكثر النوع الإنسانى ليس له قاهر من نفسه ، فاحتياجه إلى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وإيالة ينتظم بها أمره ضرورة ، كحاجته إلى مصالحه من الطعام والشراب واللباس .

وعند هؤلاء : أن العاقل متى كان له وازع من نفسه قاهر ، لم يحتج إلى أمر غيره ونهيه وضبطه .

فمشهد هؤلاء : من حركات النفس الاختيارية الموجبة للجنايات ، كمشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية ، الموجبة للتغيرات . وليس لهم مشهد وراء ذلك .

* *

المشهد الثالث

مشهد أصحاب الجبر. وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة.

يقولون: إن أحدهم غير فاعل فى الحقيقة ولا قادر، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه. وأنه آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر. وحملوا ذنوبهم عليه. وقد يغلون فى ذلك، حتى يروا أفعالهم كلها طاعات. خيرها وشرها، لموافقتها للمشيئة والقدر.

ويقولون: كما أن موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشيئة طاعة. كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم: أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه. وهؤلاء شر من القدرية النفاة، وأشد منهم عداوة لله، ومناقضة لكتبه ورسوله ودينه. حتى إن من هؤلاء من يعتذر عن إبليس، ويتوجع له، ويقيم عذره بجهده. وينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال، ويقول: ما ذنبه، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه؟ ثم كيف يمكنه السجود، وهو الذى منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان فى ترك السجود لغير الله إلا محسنًا؟ ولكن.

إذا كان المحب قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب

وهؤلاء أعداء الله حقًا، وأولياء إبليس، وأحباؤه وإخوانه. وإذا ناح منهم نائح على إبليس، رأيت من البكاء والحنين أمرًا عجبًا. ورأيت من ظلمهم الأقدار، واتهامهم الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم، وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه، فهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى تائيته:

ويُدّعى خُصُومُ اللهِ يوم معادهم إلى النارِ طُرًا فِرْقَةُ القدريَّةِ

المشهد الرابع

مشهد القدرية النفاة. يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يُقَدِّرْ ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاء، ولا خلق أفعالهم، وأنه لا يقدر أن يهدى أحدًا ولا يضله إلا بمجرد البيان. لا أنه يلهمه الهدى والضلال، والفجور والتقوى، فيجعل ذلك فى قلبه.

ويشهدون أنه يكون فى ملك الله مالا يشاؤه، وأنه يشاء مالا يكون، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله.

فالمعاصى والذنوب خلقهم، وموجب مشيئتهم، لا أنها خلق الله. ولا تتعلق بمشيئته. وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم، وأن يثبت قلوبهم، وأن لا يزيغها، وأن يوفقهم لمرضاته، ويجنبهم معصيته. إذ هذا كله واقع بهم، وعين أفعالهم، لا يدخل تحت مشيئة الرب شيء منها.

والشيطان قد رضى منهم بهذا القدر. فلا يَؤُزُّهُم إلى المعاصى ذلك الأزّ، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج. وله فى ذلك غرضان مهمان.

أحدهما: أن يقر فى قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة. وأنكم تاركون الذنوب والكبائر التى يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الأمر مفوض إليكم، واقع بكم، وأنكم العاصمون لأنفسكم، المانعون لها من المعصية.

الغرض الثانى: أن يصطاد على أيديهم الجهال. فإذا رأوهم أهل عبادة، وزهادة، وتورع عن المعاصى، وتعظيم لها. قالوا: هؤلاء أهل الحق -والبدعة آثر عنده وأحب إليه من المعصية- فإذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على أيديهم، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها فى أعينهم وقلوبهم. ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر.

المشهد الخامس

وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة: مشهد «الحكمة» وهو مشهد حكمة الله فى تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه. وأنه لو شاء لعصمه منه، ولحال بينه وبينه. وأنه سبحانه لا يعصى قسراً. وأنه لا يكون فى العالم شيء إلا بمشيئته: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئًا عبثًا ولا سدى، وأنه له الحكمة البالغة فى كل ما قدر وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها. وتكل الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وقدره، لما يبغضه ويسخطه: اسمه الحكيم الذى بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالى لملائكته -لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، فلله سبحانه فى ظهور المعاصى والذنوب والجرائم، وترتب آثارها من الآيات

والحكم. وأنواع التعرفات إلى خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزته، وتمام ملكه، وكمال قدرته. وإحاطة علمه-: ما يشهده أولو البصائر عيانًا ببصائر قلوبهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، إن هى إلا حكمتك الباهرة، وآياتك الظاهرة.

ولله فى كل تحريكة وتسكينة أبدًا شاهد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فكم من آية فى الأرض بينة، دالة على الله، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق. كان سببها معاصى بنى آدم وذنوبهم، كآيته فى إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رءوس الجبال، حتى أغرق جميع أهل الأرض، ونجى أولياءه، وأهل معرفته وتوحيده. فكم فى ذلك من آية وعبرة، ودلالة باقية على مر الدهور؟! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود.

وكم له من آية فى فرعون وقومه من حين بعث موسى عليه السلام إليهم -بل قبل مبعثه- إلى حين إغراقهم، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب. وفى التوراة: أن الله تعالى قال لموسى: اذهب إلى فرعون فإنى سأقسى قلبه، وأمنعه عن الإيمان لأظهر آياتى وعجائبى بمصر. وكذلك فعل سبحانه. فأظهر من آياته وعجائبه بسبب ذنوب فرعون وقومه ما أظهر.

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم. وإلقائهم له فى النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من كمال الخلة.

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفى عند الله، والوجاهة عنده، بسبب صبرهم على أذى قومهم. وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بنى آدم، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصى والظلم، ومجاهدتهم فى الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات.

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التى وجدت بسبب ظهور المعاصى والجرائم. وكان من سببها: تقدير ما يبغضه الله ويسخطه. وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وآثر عنده من فوته بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا المحبوب العظيم: أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإن فواته وعدمه سواء -وإن كان محبوبًا له- لكن حصول هذا المحبوب الذى لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه. وفوات هذا المحبوب: أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط. وكمال حكمته تقتضى حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المحبوبين، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه. وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا: كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، مما تمنعه حكمة الله، وكمال قدرته وربوبيته.

ويكفى من هذا مثال واحد. وهو أنه لولا المعصية من أبى البشر -بأكله من الشجرة- لما ترتب على ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رسله. وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه وظهور عدله وفضله وعزته وانتقامه وعفوه ومغفرته، وصفحه وحلمه، وظهور من يعبده ويحبه، ويقوم بمراضيه بين أعدائه فى دار الابتلاء والامتحان.

فلو قدر أن آدم لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده: لم يكن شىء من تلك، ولا ظهر من القوة إلى الفعل ما كان كامنًا فى قلب إبليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة. ولم يتميز خبيث الخلق من طيبهم، ولم تتم المملكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل، ودار شقاوة وعدل.

وكم فى تسليط أوليائه على أعدائه، وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما فى دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض: من حكمة بالغة، ونعمة سابغة؟

وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سمواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وتعبد وخشية وافتقار إليه، وانكسار بين يديه: أن لا يجعلهم من أعدائه. إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقته لهم، وما أعد لهم من العذاب. وكل ذلك بمشيئته وإرادته، وتصرفه فى مملكته. فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون، على أشد وجل، وأعظم مخافة، وأتم انكسار.

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت: وضعت رؤوسها بين يدى الرب خضوعًا لعظمته، واستكانة لعزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذللاً لهيبته، وافتقاراً إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم: ازدادوا خضوعًا وذلاً، وافتقاراً وانكساراً، وبه استعانةً وإليه إنابةً، وعليه توكلاً، وفيه رغبة، ومنه رهبة. وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخراً.

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه. فيطلعه على عجائب من حكمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصفة.

وأما حظ العبد فى نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده وقوة بصيرته، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شِرْبٌ معلوم، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه. والله الموفق والمُعِين.

المشهد السادس: مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه. إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. فالقلوب بيده. وهو مُقَلِّبُهَا ومُصَرِّفُهَا كيف شاء وكيف أراد، وأنه هو الذى آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذى هداها وزكاها وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها: ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (١٧٨)﴾ [الأعراف: ١٧٨]، يهدى من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. هذا فضله وعطاؤه. وما فضل الكريم بممنون. وهذا عدله وقضاؤه: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** (٢٣)﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال ابن عباس- رضى الله عنهما- : «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده».

وفى هذا المشهد: يتحقق للعبد مقام ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ علمًا وحالا، فيثبت قدم العبد فى توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذى يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها: من اتخذه وحده إلهًا ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه فتتقدم محبته فى قلبه جميع

المحاب، فتنساق المحاب تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسلطان، ويتقدم خوفه فى قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعًا لخوفه. ويتقدم رجاؤه فى قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعًا لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهية فى هذا القلب، والباب الذى دخل إليه منه توحيد الربوبية، أى باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية.

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقى إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده فى كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به فى الإلهية.

وفى هذا المشهد يتحقق له مقام ﴿إياك نعبد﴾ قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، أى فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أن لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المؤمنون]، فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ الآيات [المؤمنون: ٨٦- ٨٨]، وهكذا قوله فى سورة النمل: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ إلى آخر الآيات [النمل: ٥٩- ٦٥].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده، فإن كان معه رب فَعَلَ هذا فينبغى أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين فى تقدير الآية «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقوله ضعيف لوجهين.

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى. ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أى فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئًا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، وهو كثير فى القرآن. وبه تتم الحجة كما تبين.

والمقصود: أن العبد يحصل له هذا فى المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرها إليه. وأزمَّةُ التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متَّكَلَ إلا عليه. كما قال شعيب خطيبَ الأنبياء. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود: ٨٨].

المشهد السابع: مشهد التوفيق والخذلان

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه. ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به. وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن لا يخلى بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد فى الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه وخذلانه، فإن وفقه فبفضله ورحمته؛ وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا. له أتم حمد وأكمله. ولم يمنع العبد شيئًا هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق فى كل نفس وكل لحظة وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض. وأن الممسك له: هو من يمسك

السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. فَهِجِّيرَى قلبه[١] ودأب لسانه «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، يا مصرف القلوب صَرِّف قلبى إلى طاعتك» ودعواه «يا حى يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث. أصلح لى شأنى كله. ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين. ولا إلى أحد من خلقك».

ففى هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر. ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف. ويلقى نفسه بين يديه، طريحًا ببابه مستسلمًا له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعًا ذليلاً مستكينًا، لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ونشورًا.

و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًا له، مُؤْثرًا له على غيره. ويُبَغِّضُ إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه. وهذا مجرد فعله. والعبد محل له. قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، فهو سبحانه عليم بمن يَصْلُحُ لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضعه فى مواضعه وعند أهله. لا يمنعه أهْلَهُ، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه فى قلوبكم: منكم، ولكن الله هو الذى جعله فى قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدى رسولى، ولا تقولوا حتى يقول. ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذى حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم. ولا تقدمتم به إليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولى فى كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان. فلولا أنى حببته إليكم وزينته فى قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم. ولا سمحت به أنفسكم.

---

(١) هِجِّيرى قلبه: الهِجِّيرى- بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة بالقصر- دأبه الذى يلازمه ولا يتركه.

وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل: ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولاً. وكتب معه إليهم كتابًا يُعْلمُهُمْ أن العدو مصبحهم عن قريب ومجتاحهم، ومخرب البلد، ومهلك من فيها. وأرسل إليهم أموالاً ومراكب وزادًا وعدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الآن. وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد، واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذروا من عداهم، فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني فى بلدى، فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم، فلم يتركوهم يقرون، بل حملوهم حملاً، وساقوهم سوقًا إلى الملك، فاجتاح العدو من بقى فى المدينة وقتلهم، وأسر من أسر.

فهل يعد الملك ظالمًا لهؤلاء، أم عادلاً فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم فى فضله وإكرامه، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء.

وقد فسرت القدرية الجبرية «التوفيق» بأنه خَلْقُ الطاعة، و«الخذلان» بأنه خَلْقُ المعصية.

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة، ففسروا «التوفيق» بالبيان العام، والهدى العام، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها. وتهيئة أسبابها. وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة. وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم: أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين، إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم. والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم. ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلمًا.

والتزموا لهذا الأصل لوازم. قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء. ولم يجدوا بدًا من التزامها. فظهر فساد مذهبهم، وتناقض قولهم، لمن أحاط به علمًا. وتصوره حتى تصوره. وعلم أنه أبطل مذهب فى العالم وأردأه.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، فلم يرضوا بطريق هؤلاء، ولا بطريق هؤلاء، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم. فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكائنات، وأثبتوا الأسباب

والحكم. والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل أن يكون فى ملكه مالا يشاء، أو أن يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شىء من أفعالهم واقعًا بغير اختياره وبدون مشيئته. ومن قال ذلك فلم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.

ونزهوه -مع ذلك- عن العبث وفعل القبيح، وأن يخلق شيئًا سدىً، وأن تخلو أفعاله عن حكم بالغة، لأجلها أوجدها، وأسباب بها سبَّبهَا، وغايات جُعلَت طرقًا ووسائل إليها. وأن له فى كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به. ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة فى الحقيقة.

فأهل الصراط المستقيم: بريئون من الطائفتين، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم عليه. ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى. ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل. فهم شهداء الله على الطوائف، وأمناؤه عليهم، حكام بينهم، حاكمون عليهم. ولا يحكم عليهم أحد منهم. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول ﷺوعرف الفرق بينه وبين غيره. ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعًا، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زُبُرًا، بل ممن هم على بينة من ربه وبصيرة فى إيمانه، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق.

المشهد الثامن: مشهد الأسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد. وهو أعلى مما قبله وأوسع.

والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها. وإن كان العالم -بما فيه- من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتض وفعل: إما لازم. وإما متعد. ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا فى خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكمًا ومصالح، وأسماؤه حسنى: فَفَرْضُ تعطيلها عن موجباتها مستحيل فى حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى مالا يليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قَدَّرَه حَقَّ قَدْره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى فى حق منكرى النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى فى حق منكرى المعاد والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال فى حق من جَوَّزَ عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، فأخبر أن هذا حكم سيئ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون]، عن هذا الظن والحسبان، الذى تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا فى القرآن كثيرة. ينفى فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد المجيد» يمنع ترك الإنسان سدىً مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى. ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك. وكذلك اسمه «الملك» واسمه «الحى» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حى فعال. وكونه سبحانه «خالقًا قيومًا» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعًا ومرئيًا. واسمه «الخالق» يقتضى مخلوقًا. وكذلك «الرازق» واسمه «الملك» يقتضى مملكة وتصرفًا وتدبيرًا، وإعطاء ومنعًا، وإحسانًا وعدلاً، وثوابًا وعقابًا. واسم «البر المحسن، المعطى، المنان» ونحوها تقتضى آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التواب، العفو» لا بد لهذه الأسماء من متعلقات. ولا بد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها. ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم «الخالق، الرازق، المعطى، المانع» للمخلوق والمرزوق والمُعْطَى والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة. ويفرح بتوبة عبده حين يَتُوبُ إليه أعظم فرح يخطر بالبال

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته. وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات. مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. لست كمن يغفر عجزًا. ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم فى الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم، وفى الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغاياتها أيضًا: مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله فى كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتَعَبُّدهم له بأسمائه الحسنى. إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علمًا ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطى» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، واللطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى الله. وهى طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو «عليم» يحب كل عليم «جواد» يحب كل جواد «وتر» يحب الوتر «جميل» يحب الجمال «عفو» يحب العفو وأهله «حيى» يحب الحياء وأهله «بَرٌّ» يحب الأبرار «شكور» يحب الشاكرين «صبور» يحب الصابرين «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه. وقَدَّرَ عليه ما يقتضى وقوع المكروه والمبغوض له. ليترتب عليه المحبوب له المرضى له. فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب.

فربما كان مكروهُ العبادِ إلى محبوبها سَبَبٌ مَا مثلُهُ سَبَبُ

والأسباب -مع مسبباتها- أربعة أنواع: محبوب يفضى إلى محبوب. ومكروه يفضى إلى محبوب. وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه.

والثالث: مكروه يفضى إلى مكروه. والرابع: محبوب يفضى إلى مكروه. وهذان النوعان ممتنعان فى حقه سبحانه، إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره -الذى ما خلق ما خلق، ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها- لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له. والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى محبوب له ومكروه له.

فالطاعات والتوحيد: أسباب محبوبة له، موصلة إلى الإحسان، والثواب المحبوب له أيضًا. والشرك والمعاصى: أسباب مسخوطة له، موصلة إلى العدل المحبوب له. وإن كان الفضل أحب إليه من العدل. فاجتماع العدل والفضل أحب إليه من انفراد أحدهما عن الآخر، لما فيهما من كمال الملك والحمد، وتنوع الثناء، وكمال القدرة.

فإن قيل: كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه.

قيل: هذا سؤال باطل، لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. والذى يقدر فى الذهن وجوده شىء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب. وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم. بل قد يكون مبغوضًا للرب تعالى لمنافاته حكمته. فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له كان نسبة له إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه.

فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل. فإنه مزلة أقدام، ومضلة أفهام. ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف.

وهذا المشهد أجل من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع على ما وراءها. والله الموفق المعين.

المشهد التاسع: مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره، ويقول: كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصى؟ ولا سيما ذنوب العبد ومعاصيه. وهل ذلك منقص للإيمان، فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصى منه ومن غيره وإلى ترتب آثارها عليها. وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة. وبرهان من براهين صدق الرسل، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- أَمَرُوا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم، فى معاشهم ومعادهم. ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم فى المعاش والمعاد. وأخبروهم عن الله عز وجل: أنه يحب كذا وكذا، ويثيب عليه بكذا وكذا، وأنه يبغض كيت وكيت، ويعاقب عليه بكيت وكيت. وأنه إذا أطيع بما أمر به: شكر عليه بالإمداد والزيادة، والنعم، فى القلوب والأبدان والأموال. ووجد العبد زيادته وقوته فى حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص، والفساد، والضعف، والذل والمهانة، والحقارة، وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طـه: ١٢٤]، وفسرت المعيشة الضنك: بعذاب القبر. والصحيح: أنها فى الدنيا، وفى البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذى أنزله، فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التى فى خلال ذلك -مالا يشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه فى السكر. فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم، فبادر إلى إزالته بسُكْر ثان. فهو هكذا مدة حياته. وأى عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟

فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصى: فى جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار فى نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، هذا فى دُورهم الثلاث. ليس مختصاً

بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو فى الدار الآخرة، وفى البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ [الطور: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وفى هذه الدار دون ما فى البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق فى سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسى فيطرحه عن قلبه. ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وإلامها؟

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة، لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصى آلامًا وآثاراً مكروهة، وحزازات تُرْبى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس: «إنَّ للحسنة نوراً فى القلب، وضياءً فى الوجه، وقوة فى البدن. وزيادة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً فى الوجه. وظلمة فى القلب ووَهْنًا فى البدن، ونقصًا فى الرزق. وبغضة فى قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة. ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التى تصيب العبد من الله. ولهذا قال: «ما أصابك» ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر فى الدنيا والآخرة فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس فى العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات فى القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود فى العالم. لا ينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا فى نفسه وفى غيره، وتأمله ومطالعته: مما يقوى إيمانه بما جاءت به الرسل، وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس فى هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال بعض الناس: إذا صدر منى ذنب ولم أبادره. ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيئ. فإذا أصابنى -أو فوقه أو دونه- كما حسبت. يكون هجِّيراى: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئًا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علمًا بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس تَرِينُ الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئًا من ذلك ولا يشعر به ألبتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصى تعصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفئها ولا سيما إذا انكسرت به وبقى على لوح تلعب به الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه فى واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم. وماجريات الخلق. بل انتفع بماجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [آل عمران: ١٨]، فكل ما تراه فى الوجود -من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص فى نفسك وفى غيرك- فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد فى الأرض: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ الآية [الإسراء: ٥].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سقى بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف: «المعاصى بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب فى وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه،

وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوى إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التى تفضى به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة فى قلبه بعد ضعفه ووهنه- ازداد إيمانًا مع إيمانه. فتقوى شواهد الإيمان فى قلبه وبراهينه وأدلته فى حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾[الزمر: ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متى تَبَصَّرَ فيه، وأعطاه حقه: صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله فى نفسه. ونفع به من شاء من خلقه. والله أعلم.

المشهد العاشر: مشهد الرحمة

فإن العبد إذا وقع فى الذنب خرج من قلبه تلك الغلْظَة والقسوة، والكيفية الغضبية التى كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأَهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه، غضبًا منه لله، وحرصًا على أن لا يُعْصَى. فلا يجد فى قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين. ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء. ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخُلِّى ونفسه استغاث الله والتجأ إليه. وتململ بين يديه تململ السليم، ودعاه دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة. وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولينًا- مع قيامه بحدود الله- وتبدل دعاؤه عليهم دعاءً لهم. وجعل لهم وظيفة من عمره. يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه!! والله أعلم.

فيورثه ذلك: المشهد الحادى عشر

وهو مشهد العجز والضعف، وأنه أعجز شىء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهدُ قَلْبَه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح يمينًا وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة فى البحر تهيج بها الرياح وتتلاعبُ بها الأمواج، ترفعها تارة. وتخفضها تارة أخرى. تجرى عليه أحكام القدر. وهو كالآلة طريحًا بين يدى وليه، ملقىً ببابه، واضعًا خده على ثرى أعتابه. لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله كشاة ملقاةً بين الذئاب والسباع لا يردها عنها إلا الراعى فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاءً.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه، من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكَفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلاً. وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظفر به منهم.

وفى هذا المشهد يعرف نفسه حقًا، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: «من عرف نفسه عرف ربه» وليس هذا حديثًا عن رسول الله ﷺ. إنما هو أثر إسرائيلى بغير هذا اللفظ أيضًا: «يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك» وفيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة. ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى. والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه: ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثانى: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به. فمعطى الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حيًا متكلمًا سميعًا بصيرًا مريدًا عالمًا، يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من جعل العبد متكلمًا أولى أن يكون هو متكلمًا ومن جعله حيًا عليما سميعًا بصيرًا فاعلاً قادرًا، أولى أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد. وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفى. أى كما أنك لا تعرف نفسك التى هى أقرب الأشياء إليك. فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها. فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟.

والمقصود: أن هذا المشهد يعرف العبد أنه عاجز ضعيف، فتزول عنه رعونات الدعاوى، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شىء، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

* *

فحينئذ يطلع منه على : المشهد الثانى عشر

وهو مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة: ضرورة تامة، وافتقاراً تامًا إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته، وهذه الحال التى تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها، وإنما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شىء، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذى لا شىء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يرغب فى مثله، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيمه. فحينئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً. فأى خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها -ولو ساوت طاعات الثقلين- من أقل ما ينبغى لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكسرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة. وملكته هذه الذلة. فهو ناكس الرأس بين يدى ربه. لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلاً من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة هو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله -هذه السجدة العظمى- سجدت معه جميع الجوارح. وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم. وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم. فلا يرى إلا متملقا لربه، خاضعًا له، ذليلاً مستعطفًا له. يسأله عطفه ورحمته. فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له. الذى لا غنى له عنه. ولا بد له منه. فليس له هم غير استرضائه واستعطافه، لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول: كيف أغضب من حياتى فى رضاه؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبه وذكره؟

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان فى كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية. وهو القيم بمصالحه كلها. فبعثه أبوه فى حاجة له. فخرج عليه فى طريقه عدو. فأسره وكتفه وشد وثاقه. ثم ذهب إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب. وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به. فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة. فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله. ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه. فبينا هو فى أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره فى آخر الأمر. إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه. فرأى أباه منه قريبًا. فسعى إليه. وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه. يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه. ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه فى طلبه، حتى وقف على رأسه. وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلى بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فر عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحًا ببابه. يمرغ خده فى ثرى أعتابه باكيًا بين يديه، يقول: يا رب، يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوى له سواك، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومُؤَمِّلُكَ ومُرَجِّيكَ. لا ملجأ له ولا منجى له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك ملاذه.

يا من ألوذ به فيما أؤمِّله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فإذا استبصر فى هذا المشهد، وتمكن من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقى منه إلى:

المشهد الثالث عشر

وهو الغاية التى شمر إليها السالكون. وأمها القاصدون. ولحظ إلى: إليها العاملون.

وهو مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به. فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه ويستولى ذكره على لسان محبه وقلبه. فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصى. قد امتلأ قلبه من محبته. ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب فى المحبة لا يعبر عنه.

ويُحْكَى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها. فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار. فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمى فى عتبته. فإذا هو -سبحانه- قد أخذ بيدى وأدخلنى عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية- رضى الله عنه- يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكِبْر عملٍ واجتهاد. ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة. يعنى بَعْدَ فعْلِ الفرائض.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة. فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق. وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة. لكن الذى يُفْتَحُ منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب فى الناس. وهم فى واد وهو فى واد. وهى تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السُّعَاة. فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان، وهو خير الغافرين.

وهذا الذى حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قبل الذنب، وفى حال مواقعته، وبعده، وبره به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه. فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصى، وهو يمده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويُسْبلُ عليه ستره. ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم. ويَردهم عنه. ويحول بينهم وبينه؟ وهو فى ذلك كله بعينه، يراه ويطلع عليه. فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه، والأرض تستأذنه أن تخسف به، والبحر يستأذنه أن يغرقه. كما فى مسند الإمام أحمد عن النبى ﷺ: **«ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه: أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه: أن تعاجله وتهلكه. والرب تعالى يقول: دعوا عبدى. فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض. إن كان عبدكم فشأنكم به. وإن**

كان عبدى فمنى وإلى. عبدى، وعزتى وجلالى إن أتانى ليلاً قبلته. وإن أتانى نهارًا قبلته. وإن تقرب منى شبرًا تقربت منه ذراعًا. وإن تقرب منى ذراعًا تقربت منه باعًا. وإن مشى إلىَّ هرولت إليه، وإن استغفرنى غفرت له. وإن استقالنى أقلته. وإن تاب إلى تبت عليه. مَنْ أعظم منى جودًا وكرمًا. وأنا الجواد الكريم؟ عبيدى يبيتون يبارزوننى بالعظائم، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم. وأحرسهم على فرشهم. من أقبل إلى تلقيته من بعيد. ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد. ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد. ومن أراد مرادى أردت ما يريد. أهل ذكرى أهل مجالستى. وأهل شكرى أهل زيادتى. وأهل طاعتى أهل كرامتى. وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب. لأطهرهم من المعايب»(١) .

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها، والله الموفق لمراعاة ذلك، والقيام به عملاً وحالاً، كما وفق له علمًا ومعرفة، فما خاب من توكل عليه، ولاذ به ولجأ إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

منزلة التوبة

قد علمت أن من نزل فى منزل «التوبة» وقام فى مقامها نزل فى جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها. وهى مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل. تبيينًا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه فى منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» وقد أمر الله تعالى بها فى كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ إلى أن قال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾[ق: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية [الروم: ٣١]

---

(١) لم أقف عليه فى السند بهذا السياق، وفيه عن عمر بن الخطاب (جـ١ ص٤٣) مرفوعًا: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض يستأذن الله فى أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل». وإسناده ضعيف.

«فمنيبين» منصوب على الحال من الضمير المستكن فى قوله: «فأقم وجهك» لأن هذا الخطاب له ولأمته. أى أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول فى قوله: «فطر الناس عليها» أى فطرهم منيبين إليه. فلو خُلُّوا وفطَرَهُمْ لما عدلت عن الإنابة إليه. ولكنها تحول وتتغير عما فطرت عليه. كما قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة -وفى رواية: على الملة- حتى يعرب عنه لسانه» وقال عن نبيه داود: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص: ٢٤]، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ﴾ [ق: ٣١-٣٤]، وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة. فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧].

أنواع الإنابة

و«الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته. وهى إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام فى حق كل داع أصابه ضُرٌّ. كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالى فى حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«الإنابة» الثانية إنابة أوليائه. وهى إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهى تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفى اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه.

قال صاحب المنازل: «الإنابة فى اللغة»: الرجوع، وهو ههنا الرجوع إلى الحق.

وهى ثلاثة أشياء: «الرجوع إلى الحق إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا. والرجوع إليه وفاءً، كما رجع إليه عهدًا. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة».

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح فى طاعته. كما قال: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾ [البقرة: ١٦٠]، فلا تنفع توبة وبطالة. فلا بد من توبة وعمل صالح: تَرْكٍ لما يكره، وفِعْلٍ لما يحب، تَخَلٍّ عن معصيته. وتَحَلٍّ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولا. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته، فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم. ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر. فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]، وقال: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة. وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبى ﷺ: أن من علامات النفاق الغدر بعد العهد (١).

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده، فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «والرجوع إليه حالاً. كما رجعت إليه إجابة».

أى هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولاً. فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال. قال الحسن: ابن آدم؛ لك قول وعمل. وعملك أولى بك من قولك. ولك سريرة وعلانية. وسريرتك أَمْلَكُ بك من علانيتك.

---

(١) المعنى فى البخارى (جـ١/ ٣٤)، ومسلم (جـ١- إيمان/ ١٠٦)، وأحمد (جـ٢ ص١٨٩) عن عبد الله بن عمرو وهو جزء من حديث فى علامات النفاق.

الرجوع إلى الله

قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحًا بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات، والتوجع للعثرات، واستدراك الفائتات».

والخروج من التبعات: هو بالتوبة من الذنوب التى بين العبد وبين الله. وأداء الحقوق التى عليه للخلق. والتوجع للعثرات يحتمل شيئين.

أحدهما: أن يتوجه لعثراته إذا عثر، فيتوجع قلبه وينصدع. وهذا دليل على إنابته إلى الله. بخلاف من لا يتألم قلبه، ولا ينصدع من عثرته. فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

الثانى: أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر، حتى كأنه هو الذى عثر بها ولا يشمت به. فهو دليل على رقة قلبه وإنابته.

واستدراك الفائتات: هو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها، أو خير منها ولا سيما فى بقية عمره، عند قرب رحيله إلى الله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها، يستدرك بها ما فات، ويحيى بها ما أمات.

قال: و«إنما يستقيم الرجوع إليه عهدًا: بثلاثة أشياء، بالخلاص من لذة الذنب، وبترك الاستهانة بأهل الغفلة، تخوفًا عليهم، مع الرجاء لنفسك، بالاستقصاء فى رؤية علة الخدمة».

إذا صفت له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة فى لذة الذنب، وعاد مكانها ألمًا وتوجعًا لذكره، والفكرة فيه، فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة فى قلبه، فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أى الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب فى قلبه، فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب فى قلبه وصار مكانها ألمًا وتوجعًا وطمأنينة إلى ربه، وسكونًا إليه، والتذاذًا بحبه، وتنعمًا بذكره؟.

قيل: حال هذا أكمل وأرفع. وغاية صاحب المجاهدة: أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته، ولكنه يتلوه فى المنزلة والقرب ومنوط به.

فإن قيل: فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة، وتركه محابه لله، وإيثاره رضى الله على هواه؟ وبهذا كان النوع الإنسانى أفضل من النوع الملكى عند أهل السنة وكانوا خير البرية. والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفى منها. فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافى والمبتلى.

قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والندم منه، ثم الطمأنينة

إلى ربها والإقبال بكليتها عليه. وهذه الحال أعلى أحوالها، وأرفعها وهى التى يشمر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله. فهو بمنزلة راكب القفار، والمهامه والأهوال، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفًا وقائمًا، وراكعًا وساجدًا. ليس له التفات إلى غيره. فهذا مشغول بالغاية، وذاك بالوسيلة. وكل له أجر. ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَونٌ.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه فى ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل، وقد كان فيهم من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه.

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق. ولا يلزم من مشقتها تفضيلها فى الدرجة. فأفضل الأعمال الإيمان بالله. والجهاد أشق منه وهو تاليه فى الدرجة. ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء. وفى مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ ذكر الشهداء فقال: «**إن أكثر شهداء أمتى لأصحاب الفُرُشِ. ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته**»[1].

علامات الإنابة

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارج لهم الرحمة، واخش على نفسك النقمة. فإن كنت لابد مستهينًا بهم ماقتًا لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (جـ١ ص٣٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود بإسناد ضعيف لإرساله ولضعف ابن لهيعة.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله. فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفانى -لم يجد بداً من مقتهم. ولا يمكنه غير ذلك ألبتة. ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما «الاستقصاء فى رؤية علل الخدمة»: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها -أو كلها- أن تكون حظًا لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله. كم فى النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال: أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه!! وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله. ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقا، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدواتها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفى تلك المسافة قُطّاعٌ تمنع وصول العمل إلى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد فى الدنيا ولا رغبة فى الآخرة. ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة فى أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق. ورأى الحق والباطل. وميز بين أولياء الله وأعدائه. وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قُطّاعٌ تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة. وعلل خفية لو استقصى فى طلبها لرأىّ العجب. ومن رحمة الله تعالى: سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس. فلا يُعْمِرُ قصراً ويهدم مِصْراً.

قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك، وبمعاينة اضطرارك، وشيم برق لطفه بك».

الإياس من العمل يفسر بشيئين.

أحدهما: أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق، والمحرك الأول، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل. فمشيئته أوجبت فعلك لا مشيئتك -بقى بلا فعل. فههنا تنفع مشاهدة القدر، والفناء عن رؤية الأعمال.

والثاني: أن تيأس من النجاة بعملك. وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعمله وفضله، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١) فالمعنى الأول يتعلق ببداية الفعل، والثاني بغايته ومآله.

وأما معاينة الاضطرار: فإنه إذا أيس من عمله بداية، وأيس من النجاة به نهاية، شهد به في كل ذرة منه ضرورة تامة إليه. وليست ضرورته من هذه الجهة وحدها. بل من جميع الجهات. وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد. ولا لها سبب. بل هو مضطر إليه بالذات، كما أن الله عز وجل غني بالذات. فإن الغنى وصف ذاتي للرب. والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا　　كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي

وأما شيم برق لطفه بك: فإنه إذا تحقق له قوة ضرورية. وأيس من عمله والنجاة به، نظر إلى ألطاف الله وشام برقها. وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له: لطف من الله به، ومنة مَنَّ بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه. إذ هو المحسن بالسبب والمسبب. والأمر له من قبل ومن بعد. وهو الأول والآخر. لا إله غيره. ولا رب سواه.

منزلة التذكر

ثم ينزل القلب منزل «التذكر» وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ** ⑬﴾ [غافر: ١٣]، وقال: ﴿**تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ⑧﴾ [ق: ٨]، وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ⑲﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩].

و«التذكر» و «التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن

---

(١) متفق على صحته: أخرجه البخاري (جـ١١/ ٦٤٦٣)، ومسلم (جـ٤ منافقين/ ٧١) عن أبي هريرة.

الفتاح العليم. قال الحسن البصرى : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويُناطقون القلوب حتى نطقت.

التذكر والتفكر

قال صاحب المنازل : «التذكر فوق التفكر. لأن التفكر طلب، والتذكر وجود».

يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها. كما قال: «التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية».

وأما قوله: «التذكر وجود» فلأنه يكون فيما قد حصل بالتفكر. ثم غاب عنه بالنسيان. فإذا تذكره وجده فظفر به.

و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية فى القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة التذكر من التفكر منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذكرى. كما قال فى المتلوة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤)﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤]، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال فى آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨)﴾ [ق: ٦-٨].

فـ «التبصرة» آلة البصر، و«التذكرة» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة. لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هى آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة. لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول فى القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كُلاً منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال تعالى فى آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق: ٣٦، ٣٧]

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت، فذلك الذى لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى فى حقه.

الثاني: رجل له قلب حى مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التى يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضراً. فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: رجل حى القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملق السمع، فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذى لا يبصر.

والثانى: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذى قد حَدَّقَ إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره. وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذى يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقاد، مَلِيء باستخراج العبر. واستنباط الحكمَ. فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار. فإذا سَمِع الآيات كانت له نوراً على نور. وهَؤلاء أكمل خلق الله. وأعظمهم إيمانًا وبصيرة. حتى كأن الذى أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه. حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبى ﷺ، مثل رجلين دخلا داراً. فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته. والآخر: وقعت يده على ما فى الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته. لكن علم أن فيها أموراً عظيمة، لم يدرك ببصره تفاصيلها. ثم خرجا. فسأله عما رأى فى الدار؟ فجعل كلما أخبره بشىء صدقه، لما عنده من شواهده. وهذه أعلى درجات الصديقية. ولا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان. فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفى قلبه نور من البصيرة: ازداد بها نوراً إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضًا: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، والوابل والطل فى جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما فى درجات التفضيل ما

بينهما. حتى إن شراب أحد النوعين الصِّرْف يُطَيَّبُ به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجا. قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٦]، فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

أبنية التذكر

قال صاحب المنازل: «أبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة. والاستبصار بالعبرة. والظفر بثمرة الفكرة».

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح فى القلب قادح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلبًا للخلاص من الخوف، ورغبة فى حصول المرجو.

و«العظة» هى الأمر والنهى، المعروف بالترغيب والترهيب.

و«العظة» نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود. فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التى جاءت على لسان الرسل وما أوحى إليهم. وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد فى مصالح الدين والدنيا.

و«العظة» بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده فى العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجاريه. وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

وأما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه فى منزل التفكر بقوة الاستحضار. لأن التذكر يعتقل المعانى التى حصلت بالتفكر فى مواقع الآيات والعبر. فهو يظفر بها بالتفكر، وتنصقل له وتنجلى بالتذكر، فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار، لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلما قوى الشعور بالمحبوب اشتد سفر القلب إليه. وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

وأما الظفر بثمرة الفكرة: فهذا موضع لطيف.

وللفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تامًا بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه. فإن القلب حال التفكر كان قد كَلَّ بأعماله فى تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعانى وتخمرت فى القلب، واستراح العقل: عاد فتذكر ما كان حَصَّلَهُ وطالعه، فابتهج به وفرح به، وصحح فى هذا المنزل ما كان فاته فى منزل التفكر، لأنه قد أشرف عليه فى مقام

التذكر، الذى هو أعلى منه. فأخذ حينئذ فى الثمرة المقصودة. وهى العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح: هو ثمرة العلم النافع، الذى هو ثمرة التفكر.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسى. فطالب المال ما دام جادًا فى طلبه، فهو فى كلال وتعب؛ حتى إذا ظفر به استراح من كد الطلب، وقدم من سفر التجارة، فطالع ما حصله وأبصره. وصحح فى هذا الحال ما عساه غلط فيه فى حال اشتغاله بالطلب، فإذا صح له وبردت غنيمته له، أخذ فى صرف المال فى وجوه الانتفاع المطلوبة منه. والله أعلم.

تفسير الحكمة والموعظة الحسنة

قال: «وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها. والعمى عن عيب الواعظ. وتذكر الوعد والوعيد».

إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة -وهى الترغيب والترهيب- إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره: لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهى.

و«العظة» يراد بها أمران: الأمر والنهى المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة. فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهى، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة

فجاءت هذه الثلاثة فى حق هؤلاء الثلاثة فى قوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووَصْفُ الحُسْنِ لها ذاتىّ.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان. إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتى هى أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه. فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التى هى أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التى هى أحسن شىء وأبينه، وأدله على المقصود. وأوصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وأما ما ذكره بعض المتأخرين: أن هذا إشارة إلى أنواع القياسات فـ«الحكمة» هى

طريقة البرهان. و«الموعظة الحسنة» هى طريقة الخطابة، و«المجادلة بالتى هى أحسن» طريقة الجدل. فالأول: بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضى إلا بالبرهان، ولا ينقاد إلا له. وهم خواص الناس. والثانى: بذكر المقدمات الخطابية، التى تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة. وهم الجمهور. والثالث: بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذى يندفع بالجدل. وهم المخالفون- فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليونانى واصطلاحهم. وذلك باطل قطعًا من وجوه عديدة، ليس هذا موضع ذكرها، وإنما ذكر هذا استطرادًا لذكر العظة، وأن المنيب المتذكر لا تشتد حاجته إليها كحاجة الغافل المعرض، فإنه شديد الحاجة جدًا إلى العظة ليتذكر ما قد نسيه، فينتفع بالتذكر.

وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته. لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعمله ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواءً لمرض به مثله، والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه، بل الطبيب المذكور عندهم: أحسن حالاً من هذا الواعظ المخالف لما يعظ به؛ لأنه قد يقوم دواء آخر عنده مقام هذا الدواء، وقد يرى أن به قوة على ترك التداوى، وقد يقنع بعمل الطبيعة وغير ذلك، بخلاف هذا الواعظ. فإن ما يعظ به طريق معين للنجاة لا يقوم غيرها مقامها. ولا بد منها. ولأجل هذه النفرة قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهى: فإذا أمرت بشىء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شىء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيهـــا الرجـــل المعلم غيره ... هلا لنفســـك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذى السقام من الضنى ... ومن الضنى تمســـى وأنت سقيم
لا تنه عـــن خلق. وتأتى مثله ... عـــارٌ عليك إذا فعـــلت ذميم
ابدأ بنفســـك فانهها عن غيها ... فـــإذا انتهت عنـــه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقـــول ويقتدى ... بالقـــول منـــك، وينفع التعلم

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⑩﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن

يَخْشَاهَا﴿٤٥﴾ ﴾ [النازعات: ٤٥]، وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق: ٤٥]، فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط فى الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

قال: «وإنما تستبصر العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل. ومعرفة الأيام. والسلامة من الأغراض».

إنما تتميز «العبرة» وترى وتتحقق بحياة العقل. و«العبرة» هى الاعتبار. وحقيقتها: العبور من حكم الشىء إلى حكم مثله. فإذا رأى من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل: هى صحة الإدراك. وقوة الفهم وجودته. وتحقق الانتفاع بالشىء والتضرر به، وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه، وبحسب تفاوت الناس فى قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم، ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجريبات السالكين، التى جرَّبوها فَأَلْفَوْهَا صحيحةً: أن من أدمن «يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية-قدس الله روحه- شديد اللهج بها جدًا، وقال لى يومًا: لهذين الاسمين -وهما «الحى القيوم»- تأثير عظيم فى حياة القلب، وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم. وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر «يا حى يا قيوم، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث» حصلت له حياة القلب، ولم يمت قلبه.

ومن عَلِمَ عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها، وسر ارتباطها بالخلق والأمر، وبمطالب العَبد وحاجاته: عرف ذلك وتحققه. فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له. فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك.

وأما معرفة الأيام: فيحتمل أن يريد به أيامه التى تخصه، وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان، ويعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة، كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين فى دار البقاء، فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيامِ البقاء، والعبد منساق زمنه، وفى مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم، وهى كمدة المنام لمن له عقل حى وقلب واعٍ، فما أولاه أن لا يصرف منها نفسًا إلا فى أحب الأمور إلى الله. فلو صرفه فيما يحبه

وترك الأحب لكان مفرطًا فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به.

ويحتمل أن يريد بالأيام: أيام الله التى أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥]، وقد فُسِّرت «أيام الله» بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصى، فالأول تفسير ابن عباس و أبى بن كعب و مجاهد. والثانى: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين. وهى وقائعه التى أوقعها بأعدائه، ونعمه التى ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أيامًا» لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أى بالوقائع التى كانت فى تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظَتُهُ. قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض. وهى متابعة الهوى والانقياد لداعى النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمى بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم؛ فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن فى صورة القبيح، والقبيح فى صورة الحَسَن. فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟.

جنى ثمرة التفكير

قال: «وإنما تُجْتَنَى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: بقصر الأمل. والتأمل فى القرآن. وقلة الخلطة، والتمنى، والتعلق بغير الله، والشبع والمنام».

يعنى: أن فى منزل «التذكر» تجتنى ثمرة «الفكرة» لأنه أعلى منها. وكل مقام تجتنى ثمرته فى الذى هو أعلى منه، ولا سيما على ما قرره فى خطبة كتابه «أن كل مقام يصحح ما قبله».

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء. أحدها: قصر الأمل، والثانى: تدبر القرآن، والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التى تمر مر السحاب،

ومبادرة طي صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط. ويزهده في الدنيا. ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه -إذا داوم مطالعة قصَر الأمل- شاهد من شواهد اليقين. يريد فناء للدنيا. وسرعة انقضائها. وقلة ما بقي منهاَ. وأنها قد ترحلت مدبرة. ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قصَر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾ الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾ [طه: ١٠٣، ١٠٤]، وخطب النبي ﷺ أصحابه يومًا والشمس على رءوس الجبال فقال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»(١) ومر رسول الله ﷺ ببعض أصحابه. وهم يعالجون خُصًا لهم قد وَهَى، فهم يصلحونه، فقال: «ما هذا؟» قالوا: خص لنا قد وهى فنحن نعالجه. فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا»(٢).

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

**

(١) أخرجه أحمد (جـ٣ ص١٩) عن أبي سعيد الخدري في حديث طويل بإسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

(٢) أخرجه الترمذي (جـ٤/ ٢٣٣٥)، وابن ماجه (جـ٢/ ٤١٦٠)، وأحمد (جـ٢ ص١٦١)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فوائد التدبر فى القرآن

وأما التأمل فى القرآن: فهو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعلقه، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر. قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به. فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شىء أنفع للعبد فى معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع فيه الفكر على معانى آياته. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما. وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ فى يده(١) مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان فى قلبه، وتُحْضِرُه بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتُبَصِّرُهُ مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة: تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه فى مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضرورى للعبد معرفتها. ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. وتميز له بين الحق والباطل فى كل ما اختلف فيه العالم. فتريه الحق حقًا، والباطل باطلاً. وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، وتعطيه قوة فى قلبه، وحياة وسَعَةً وانشراحًا وبهجةً وسرورًا؛ فيصير فى شأن والناس فى شأن آخر.

---

(١) تتل فى يده: تلّ الشىء فى يده: وضعه فيها.

فإن معانى القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله فى خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوى والسفلى، وما يختص بالنوع الإنسانى منهم، من حين يستقر فى رحم أمه إلى يوم يوافى ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التى لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التى لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهى، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، فى خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. وتهديه فى ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع فى العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، وونى فى سيره: تقدم الرَّكْبُ وفَاتَكَ الدليلُ، فاللحاقَ اللحاقَ، والرحيلَ الرحيلَ. وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبى الله ونعم الوكيل.

وفى تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه.

نزه فؤادك عن سوى روضاته ... فرياضه حلٌّ لكل مُنَزَّهِ
والفهم طِلَّسْمٌ لكنز علومه ... فاقصد إلى الطِّلَّسْمِ تَحْظَ بكنزه
لا تخش من بدعٍ لهم وحوادث ... ما دمت فى كنف الكتاب وحرْزِه
من كان حارسه الكتاب ودرعه ... لم يخش من طعن العدو ووَخْزِه
لا تخش من شبهاتهم واحمل إذا ... ما قابلتك بنصره وبعزِّه
والله ما هاب امرؤ شبهاتهم ... إلا لضعف القلب منه وعَجْزِه

ياويح تَيْس ظالـع يبـغى مسـا بَقَةَ الهزَبْـر بعـــدوه وبجَمْزه
ودخان زبلٍ يرتقى للشمـس يسـتُرُ عينها لمَا سـرى فى أزِّه
وجبـانِ قَلْبٍ أعـزل، قـد رام يأسِرُ فارسًا شاكى السـلاح بِهَزِّه

مفسدات القلب

وأما مفسدات القلب الخمسة: فهى التى أشار إليها: من كثرة الخلطة والتمنى. والتعلق بغير الله، والشِّبَعِ، والمنام. فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

فنذكر آثارها التى اشتركت فيها، وما تميز به كل واحد منها.

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم تُصمه وتُبْكِمْه -وتضعف قواه كلها. وتُوهن صحته وتُفتِّر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى وَرائه، ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، وما لجرح بميت إيلام، فهى عائقة له عن نَيْلِ كماله، قاطعه له عن الوصول إلى ما خلق له، وَجُعِلَ نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته فى الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له فى الآخرة، ولا فوز إلا بجواره فى دار النعيم فى الجنة الآجلة، فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات، أقول: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه- أو نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حى يشهد هذا ويعرفه ذوقًا.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضًا وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بنى آدم حتى يَسْوَدَّ، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًا وغمًا، وضعفًا، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره فى أدوية مطالبهم وإراداتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلَّت من رزية، وأوقعت فى بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبى طالب -عند الوفاة- أضرُّ من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة- التى تكون على نوع مودة فى الدنيا، وقضاء وَطَر بعضهم من بعض - تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩]، وقال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وهذا شأن كل مشتركين فى غرض. يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزنًا وألمًا. وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة، وذمًا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد فى هذه الدار من أحوال المشتركين فى خزْيَة، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع فى أمر الخلطة: أن يخالط الناس فى الخير -كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة- ويعتزلهم فى الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذرَ الحذرَ أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن

أذىً يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً. وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوى قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلَّ قلبَه من بينهم كَسَلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائبًا، قريبًا بعيداً، نائمًا يقظانَ. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس!! وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقى نفسه على بابه طريحًا ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتى ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

المفسد الثاني: من مفسدات القلب

ركوبه بحر التمنى، وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذى يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشياطين، وخيالات المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأمانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهى بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية. ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية. بل اعتاضت عنها بالأمانى الذهنية. وكل بحسب حاله: من مُتَمَنٍّ للقدرة والسلطان، وللضرب فى الأرض والتَّطْواف فى البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان فيمثل المتمنى صورة مطلوبه فى نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها. فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذى يُقَرِّبُه إلى الله. ويُدْنيه من جواره.

فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة. وأمانى أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبى ﷺ متمنى الخير. وربما جعل أجره فى بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان الذى يتقى فى ماله ربه. ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: «**هما فى الأجر سواء**»(١) وتمنى ﷺ فى حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحَلَّ ولم يسق الهدى، وكان قد قرن. فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذى تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

المفسد الثالث: من مفسدات القلب

التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق. فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل. قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)**﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥)**﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو مُعَرَّضٌ للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التى بنى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿**لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢)**﴾ [الإسراء]، مذمومًا لا حامد لك. مخذولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذى قهر بباطل. وقد يكون مذمومًا منصوراً كالذى قُهر وتُسُلِّطَ عليه بباطل. وقد يكون محموداً منصوراً كالذى تمكن وملك بحق. والمشرك المَتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

* *

---

(١) هو معنى حديث حسن أخرجه الترمذى (جـ٤/ ٢٣٢٥)، وابن ماجه (جـ٢/ ٤٢٢٨)، وأحمد (جـ٤ ص٢٣٠] عن أبى كبشة الأنمارى.

المفسد الرابع: من مفسدات القلب: الطعام

والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهى نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضى صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثانى: ما يفسده بقَدْره: وتعدِّى حَدِّه، كالإسراف فى الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغَلَه بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذى بثقلها، وقَوَّى عليه مواد الشهوة، وطرَّقَ مجارى الشيطان ووَسَّعَهَا، فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخسر كثيراً. وفى الحديث المشهور: «**ما ملأ آدمى وعاءً شرًا من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(١) ويحكى أن إبليس - لعنه الله- عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال له يحيى: هل نلت منى شيئًا قط؟ قال: لا. إلا أنه قدم إليك الطعام ليلة فَشَهَّيْتُهُ إليك حتى شبعت منه، فَنِمْتَ عن وِرْدِكَ. فقال يحيى: لله على أن لا أشبع من طعام أبدًا. فقال إبليس: وأنا لله عَلى أن لا أَنصَح آدميًا أبدًا.

المفسد الخامس: كثرة النوم

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جدًا. ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مَزِيَّةٌ عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلَع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول

---

(١) أخرجه أحمد (جـ٤ ص١٣٢)، والترمذ (جـ٤/ ٢٣٨٠)، وابن ماجه (جـ٢/ ٣٣٤٩)، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغى أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير- وهو مقدار ثمان ساعات- وهذا أعدل النوم عند الأطباء. وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم فى الطبيعة انحرافًا بحسبه.

ومن النوم الذى لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله ﷺ يكرهه. فهو مكروه شرعًا وطبعًا.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضًا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. وبالله المستعان.

منزلة الاعتصام

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام.

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله. قال الله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** (٧٨)﴾ [الحج: ٧٨].

و الاعتصام افتعال من العصمة. وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده. فهو محتاج إلى هداية الطريق، والسلامة فيها. فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التى بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التى يستلئم بها فى طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف فى الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال: «**عليكم بالجماعة؛ فإنها حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون فى الجماعة خير مما تحبون فى الفرقة**».

وقال مجاهد وعطاء: «بعهد الله» وقال قتادة والسدى وكثير من أهل التفسير: «هو القرآن».

قال ابن مسعود- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ: «**إن هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه**»(١) وقال على بن أبى طالب- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ فى القرآن: «**هو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تَزِيغ به الأهواء. ولا تختلف به الألسن، ولا يَخْلُقُ على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء**»(٢).

وقال مقاتل: «بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى».

وفى الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تَنَاصحُوا من وَلاَّه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال،وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»(٣) رواه مسلم فى الصحيح.

قال صاحب المنازل: «الاعتصام بحبل الله: هو المحافظة على طاعته، مراقبًا لأمره».

ويريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها. لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب فى التقوى هى العمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله».

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه فى كلام النبى ﷺ كقوله: « من صام

---

(١) أخرجه الدارمى (جـ٢/ ٣٣١٥) عن ابن مسعود بنحو هذا والحاكم (جـ١ ص٥٥٥)، وصححه وتعقبه الذهبى.

(٢) أخرجه الترمذى (جـ٥/ ٢٩٠٦) عن على بن أبى طالب والدارمى أيضًا (جـ٢/ ٣٣٣١)، وأحمد (جـ١ ص٩١)، وضعفه الترمذى بجهالة إسناده، وأن فى الحارث الأعور مقال.

(٣) حديث صحيح: مسلم (جـ٣- أقضية/ ١٠) من حديث أبى هريرة.

رمضان إيمانًا واحتسابًا[١]. و: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا -غفر له»[٢] فالصيام والقيام: هو الطاعة و«الإيمان» مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الآمر، لا شيء سواه. و«الاحتساب» رجاء ثواب الله.

فالاعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل. والله أعلم.

وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه. والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمى العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضى به إلى العطب، ويحميه منه. فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد في حقه أسباب العطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. ويدفع عنه قَدَرَه بِقَدَرِه، وإرادتَهُ بإرادَتِه، ويعيذه به منه.

وأما صاحب المنازل فقال: «الاعتصام بالله. الترقى عن كل موهوم».

«الموهوم» عنده ما سوى الله تعالى. و«الترقى عنه» الصعود من شهود نفعه وضره، وعطائه ومنعه وتأثيره، إلى الله تعالى. وهذه إشارة إلى الفناء. ومراده: الصعود عن شهود ما سوى الله إلى الله. والكمال في ذلك: الصعود عن إرادة ما سوى الله إلى إرادته.

والاتحادى يفسره بالصعود عن وجود ما سواه إلى وجوده. بحيث لا يرى لغيره وجودًا ألبتة، ويرى وجود كل موجود هو وجوده. فلا وجود لغيره إلا في الوهم الكاذب عنده.

قال: «وهو على ثلاث درجات:

اعتصام العامة بالخبر، استسلامًا وإذعانًا. بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهى، وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف».

يعنى أن العامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلامًا من غير منازعة، بل إيمانًا واستسلامًا، وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهى والإذعان لهما، والتصديق بالوعد والوعيد، وأسسوا معاملتهم على اليقين لا على الشك والتردد، وسلوك طريقة الاحتياط. كما قال القائل:

---

(١) متفق على صحته: أخرجه البخارى (جـ١/ ٣٨)، ومسلم (جـ١ - مسافرين/ ١٧٥) عن أبى هريرة.

(٢) حديث صحيح: متفق عليه. أخرجه البخارى (جـ١/ ٣٥)، ومسلم (جـ١ - مسافرين/ ١٧٥) عن أبى هريرة.

زعم المُنَجِّـم والطبيبُ كلاهما لا تُبْعَثْ الأجساد، قلت: إليكما
إن صح قولكما. فَلَسْتُ بِخاسرٍ أو صَحَّ قولى. فالخَسَارُ عليكما

هذه طريق أهل الريب والشك يقومون بالأمر والنهى احتياطًا. وهذه الطريق لا تنجى من عذاب الله، ولا تحصل لصاحبها السعادة. ولا توصله إلى المأمن.

وأما «الإنصاف» الذى أسسوا معاملتهم عليه: فهو الإنصاف فى معاملتهم لله ولخلقه.

فأما الإنصاف فى معاملة الله: فأن يُعْطى العبوديةَ حَقَّهَا، وأن لا ينازع ربه صفات إلهيته التى لا تليق بالعبد ولا تنبغى له: من العظَمة، والكبرياء، والجبروت.

ومن إنصافه لربه: أن لا يشكر سواه على نعمه وينساه. ولا يستعين بها على معاصيه. ولا يحمد على رزقه غيره. ولا يعبد سواه. كما فى الأثر الإلهى: «**إنى والجن والإنس فى نبإ عظيم: أخلق ويعبد غيرى. وأرزق ويشكر سواى**» وفى أثر آخر: «**ابن آدم: ما أنصفتنى. خيرى إليك نازل، وشرك إلىَّ صاعد، أتحبب إليك بالنعم، وأنا عنك غنى، وتتبغض إلىَّ بالمعاصى وأنت فقير إلىَّ، ولا يزال الملك الكريم، يعرج إلىَّ منك بعمل قبيح**» وفى أثر آخر: «**يا ابن آدم. ما من يوم جديد، إلا يأتيك من عندى رزق جديد، وتأتى عنك الملائكة بعمل قبيح. تأكل رزقى وتعصينى. وتدعونى فأستجيب لك. وتسألنى فأعطيك. وأنا أدعوك إلى جنتى فتأبى ذلك. وما هذا من الإنصاف**».

وأما الإنصاف فى حق العبيد: فأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به.

ولعمر الله هذا الذى ذكر أنه اعتصام العامة: هو اعتصام خاصة الخاصة فى الحقيقة. ولكن الشيخ ممن رفع له علم الفناء فشمر إليه، فلا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يرى مقامًا أجل منه.

اعتصام الخاصة

قال: «واعتصام الخاصة: بالانقطاع. وهو صون الإرادة قبضًا، وإسبال الخُلُقِ عن الخلق بسطًا، ورفض العلائق عزمًا، وهو التمسك بالعروة الوثقى».

يريد انقطاع النفس عن أغراضها من هذه الوجوه الثلاثة. فيصون إرادته، ويقبضها عما سوى الله سبحانه. وهذا شبيه بحال أبى يزيد فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له: ما تريد؟ فقال: أريد أن لا أريد.

الثـانى: إسبال الخُلُق على الخلق بسطًا. وهذا حقيقة التصوف. فإنه كما قال أبو بكر الكتانى: التصوف خلق. فَمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف.

فإن حسن الخلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق: يدل على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيته. وفى هذا الوصف: يكف الأذى، ويحمل الأذى ويوجد الراحة، ويدير خده الأيسر لمن لطم الأيمن، ويعطى رداءه لمن سلبه قميصه، ويمشى ميلين مع من سَخَّرَه مِيلاً. وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وأغراضها.

وأما رفض العلائق عزمًا: فهو العزم التام على رفض العلائق، وتركها فى ظاهره وباطنه.

والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتى كان المال فى يدك وليس فى قلبك لم يضرك ولو كثر، ومتى كان فى قلبك ضرك ولو لم يكن فى يدك منه شىء.

قيل للإمام أحمد: أيكون الرجل زاهدًا ومعه ألف دينار؟ قال: نعم- على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت. ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال.

وقيل لسفيان الثورى: أيكون ذو المال زاهدًا؟ قال: نعم- إن كان إذا زيد فى ماله شكر، وإن نقص شكر وصبر.

وإنما يحمد قطع العلائق الظاهرة فى موضعين: حيث يخاف منها ضرراً فى دينه، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة. والكمال من ذلك: قطع العلائق التى تصير كلاليب على الصراط تمنعه من العبور. وهى كلاليب الشهوات والشبهات. ولا يضره ما تعلق به بعدها.

اعتصام خاصة الخاصة

قال: «واعتصام خاصة الخاصة: بالاتصال. وهو شهود الحق تفريدًا. بعد الاستحذاء له تعظيمًا، والاشتغال به قربًا».

لما كان ذلك الانقطاع موصلاً إلى هذا الاتصال: كان ذلك للمتوسطين. وهذا عنده لأهل الوصول.

ويعنى «بشهود الحق تفريدًا»: أن يشهد الحق سبحانه وحده منفردًا، ولا شىء معه، وذلك لفناء الشاهد فى الشهود، والحوالة فى ذلك عند القوم: على الكشف.

وقد تقدم أن هذا ليس بكمال. وأن الكمال: أن يفنى بمراده عن مراد نفسه. وأما فناؤه بشهوده عن شهود ما سواه: فدون هذا الفناء فى الرتبة كما تقدم.

وأما قوله: «بعد الاستحذاء له تعظيمًا» فالشيخ لكثرة لهجه بالاستعارات عبر عن معنى لطيف عظيم بلفظة «الاستحذاء» التى هى استفعال من المحاذاة. وهى المقابلة التى لا يبقى فيها جزء من المحاذى خارجًا عما حاذاه. بل قد واجهه وقابله بكليته وجميع أجزائه[1]. ومراده بذلك: القرب، وارتفاع الوسائط المانعة منه، ولا ريب أن العبد يقرب من ربه، والرب يقرب من عبده. فأما قرب العبد: فكقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩)﴾ [العلق]، وقوله فى الأثر الإلهى: «**من تقرب منى شبرًا تقربت منه ذراعًا**»[2] وكقوله: «**وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى**»[3] . وفى الحديث الصحيح: «**أقرب ما يكون الرب من عبده: فى جوف الليل الأخير**»[4] وفى الحديث أيضًا: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[5] وفى الحديث الصحيح -لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبى ﷺ فى السفر- فقال: «**يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا. إن الذى تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدهم من عنق راحلته**»[6].

فعبر الشيخ عن طلب القرب منه، ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب

---

(١) قال السيد رشيد: «هذا التفسير للاستحذاء لم نجده فى معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس وشرحه، بل المعروف فيها أن معنى استحذى فلان فلانًا طلب إليه أن يلبسه حذاء، كاستطعمه واستكساه، وأظن الاستحذاء فى كلام الهروى بالخاء العجمة وهو الخضوع والانكسار لله تعالى. وإنما تكلف المصنف له هذا التفسير لأنه وجد نسخ المنازل تذكر الاستحذاء بالمهملة. انتهى كلام السيد رشيد. ويصح كلامه إذا كان الصوفية يلتزمون المفردات والأساليب العربية لكنهم لا يلتزمون ذلك، بل يتخاطبون باصطلاحات قد لا تمت إلى اللغة العربية بأى صلة، والشيخ ابن القيم- رحمه الله- أحرص على أن يكون بيده نسخة دقيقة صحيحة من المنازل». ا. هـ. هامش المطبوعة.

(٢، ٣) حديث صحيح: سبق تخريجهما.

(٤) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (جـ٥/ ٣٥٧٩) عن عمرو بن عبسة.

(٥) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ١/ صلاة/ ٢١٥)، وأحمد (جـ٤ ص٤٢١)، والنسائى (جـ٢ ص٢٢٦) عن أبى هريرة.

(٦) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٦/ ٢٩٩٢)، وأبو داود (جـ٢/ ١٥٢٦، ١٥٢٨)، وأحمد (جـ٤ ص٣٩٤) عن أبى موسى الأشعرى.

الذى لا تقر عيون عابديه وأوليائه إلا به: بالاستحذاء. وحقيقته: موافاة العبد إلى حضرته وقدامه، وبين يديه، عكس حال من نبذه وراءه ظهريًا، وأعرض عنه ونأى بجانبه، بمنزلة من ولى المطاع ظهره. ومال بشقه عنه.

وهذا الأمر لا يدرك معناه إلا بوجوده وذوقه. وأحسن ما يعبر عنه: بالعبارة النبوية المحمدية، وأقرب عبارات القوم: أنه التقريب برفع الوسائط التى بارتفاعها يحصل للعبد حقيقة التعظيم. فلذلك قال: «الاستحذاء له تعظيمًا».

ومن أراد فهم هذا -كما ينبغى- فعليه بفهم اسمه تعالى «الباطن» وفهم اسمه «القريب» مع امتلاء القلب بحبه، ولهج اللسان بذكره. ومن ههنا يؤخذ العبد إلى الفناء الذى كان مشمرًا إليه، عاملاً عليه.

فإن كان مشمرًا إلى الفناء المتوسط- وهو الفناء عن شهود السوى- لم يبق فى قلبه شهود لغيره ألبتة. بل تضمحل الرسوم وتفنى الإشارات، ويفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل. وفى هذا المقام يجيب داعى الفناء طوعًا ورغبة لا كرهًا، لأن هذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب. وهو منتهى سفر الطالبين لمقام الفناء.

وإن كان العبد مشمرًا للفناء العالى، وهو الفناء عن إرادة السوى: لم يبق فى قلبه مراد يزاحم مراده الدينى الشرعى النبوى القرآنى. بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو مراد العبد. وهذا حقيقة المحبة الخالصة. وفيها يكون الاتحاد الصحيح. وهو والاتحاد فى المراد. لا فى المريد. ولا فى الإرادة.

فتدبر هذا الفرقان فى هذا الموضع الذى طالما زلت فيه أقدام السالكين. وضلت فيه أفهام الواجدين.

وفى هذا المقام حقيقة «يفنى من لم يكن» إرادةً وإيثارًا، ومحبة وتعظيمًا، وخوفًا ورجاءً وتوكلاً، و«يبقى من لم يزل». وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة ويحصل له الاستحذاء المذكور مقرونًا بغاية الحب، وغاية التعظيم.

وفى هذا المقام يجيب داعى الفناء فى المحبة طوعًا واختيارًا لا كَرْهًا، بل ينجذب إليه انجذاب قلب المحب وروحه، الذى قد ملأت المحبة قلبه. بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها، إلى محبوبه الذى هو أكمل محبوب، وأجله وأحقه بالحب.

وهذا الفناء أوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والإجلال والقرب، ومحو ما سوى

مراد المحبوب من القلب. بحيث لم يبق فى القلب إلا المحبوب ومراده وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله. والله المستعان.

وأما قوله: «والاشتغال به قربًا» أى يشغله قرب الحق عن كل ما سواه. وهذا حقيقة القرب. ألا ترى أن القريب من السلطان جدًا، المقبل عليه، والمكلم له: لا يشتغل بشىء سواه ألبتة؟ فعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به. والله أعلم.

من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» «منزلة الفرار»

قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وحقيقة الفرار: الهرب من شىء إلى شىء. وهو نوعان: فرار السعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس: فى قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ فروا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

وقال صاحب المنازل: «هو الهرب مما لم يكن إلى من لم يزل. وهو على ثلاث درجات: فرار العامة من الجَهْل إلى العلم عقدًا وسعيًا. ومن الكسل إلى التشمير جدًا وعزمًا، ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاء».

يريد بما «لم يكن» «الخلق» وبما «لم يزل» «الحق».

وقوله: «فرار العامة: من الجهل إلى العلم عقدًا وسعيًا».

«الجهل» نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاهما جهل لغة وعرفًا وشرعًا وحقيقة. قال موسى: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧]، لما قال له قومه: (أتتخذنا هزوًا) أى من المستهزئين، وقال يوسف الصديق: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣٣]، أى من مرتكبى ما حرمت عليهم. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء: ١٧]، قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عُصى الله به فهو جهالة». وقال غيره: «أجمع الصحابة أن كل مَنْ عَصَى الله فهو جاهل. وقال الشاعر:

أَلا لا يَجْهَلَنْ أحـدٌ علينا ... فَنَجْهَلَ فوق جَهْلِ الجاهلينا

وسمى عدم مراعاة العلم جهلاً، إما لأنه لم ينتفع به، فَنُزِّلَ منزلة الجهل. وإما لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله.

فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفة وبصيرة. ومن جهل العمل: إلى السعى النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً.

• قوله: «ومن الكسل إلى التشمير جدًا وعزمًا».

أى يفر من إجابة داعى الكسل إلى داعى العمل والتشمير بالجد والاجتهاد.

و«الجد» ههنا هو صدق العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السين وسوف، وعسى، ولعل. فهى أضر شىء على العبد. وهى شجرة ثمرها الخسران والندامات.

والفرق بين الجد والعزم: أن «العزم» صدق الإرادة واستجماعها. و«الجد» صدق العمل وبذل الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقى أوامره بالعزم والجد. فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]، أى بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمِرَ به بتردد وفتور.

وقوله: «ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء».

يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التى تعتريه فى هذه الدار من جهة نفسه. وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه. يهرب من ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقع المرجو من لطفه وبره. ومن أحسن كلام العامة قولهم: لا هم مع الله. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فإن الله يجعل للمتقى من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم فى الدنيا والآخرة مخرجًا. وقال الحسن: مخرجا مما نهاه عنه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أى كافى من يثق به فى نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. «والحَسْبُ» الكافى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، كافينا الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة. فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له -بعد الإيمان- من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

قال: «وفرار الخاصة: من الخبر إلى الشهود. ومن الرسوم إلى الوصول. ومن الحظوظ إلى التجريد».

يعني أنهم لا يرضون أن يكون إيمانهم عن مجرد خبر، حتى يترقوا منه إلى مشاهدة المخبر عنه. فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر إلى عين اليقين بالشهود كما طلب إبراهيم الخليل- صلوات الله وسلامه عليه- ذلك من ربه إذ قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانا. والمعلوم مشاهداً. وهذا هو المعنى الذى عبر عنه النبى ﷺ بالشك فى قوله: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»(١) حيث قال: «رب أرنى كيف تحيى الموتى» وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم. حاشاهما من ذلك. وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال فى الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفى. أى لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال. ولم نشك نحن. وهذا القول صحيح أيضا أى لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه، لكن لم يطلب ما طلب شكًا، وإنما طلب ما طلبه طمأنينة.

فالمراتب ثلاث، علم يقين يحصل عن الخبر. ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصير العلم به عين يقين. ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين. فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين. فإذا أزلفت الجنة للمتقين فى الموقف، وبرزت الجحيم للغاوين، وشاهدوهما عيانًا، كان ذلك عين يقين. كما قال تعالى: ﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝**﴾ [التكاثر: ٦، ٧]، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. فذلك حق اليقين. وسنزيد ذلك إيضاحًا إن شاء الله تعالى إذا انتهينا إليه.

وأما قوله: «ومن الرسوم إلى الأصول».

فإنه يريد بالرسوم: ظواهر العلم والعمل، وبالأصول: حقائق الإيمان ومعاملات

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (جـ٦/ ٣٣٧٢)، ومسلم (جـ١- إيمان/ ٢٣٨) عن أبى هريرة.

القلوب، وأذواق الإيمان وارداته. فيفر من إحْكَام العلم والعمل إلى خشوع السر للعرفان. فإن أرباب العزائم فى السير لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها. ولا يَعْتَدُّونَ إلا بأرواحها وحقائقها، وما يثبته لهم التعرف الإلهى، وهو نصيبهم من الأمر.

والتعرف الإلهى لا يقتضى مفارقة الأمر. كما يظن قطاع الطريق وزنادقة الصوفية. بل يستخرج منهم حقائق الأمر، وأسرار العبودية، وروح المعاملة. فحظهم من الأمر: حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه، تصريحًا وإيماء، وتنبيهًا وإشارة، وحظ غيرهم منه: حظ التالى له حفظًا، بلا فهم ولا معرفة لمراده. وهؤلاء أحوج شيء إلى الأمر، لأنهم لم يصلوا إلى تلك التعرفات والحقائق إلا به، فالمحافظة عليه لهم علمًا ومعرفةً وعملاً وحالاً ضرورية. لا عوض لهم عنه ألبتة.

وهذا القدر هو الذى فات الزنادقة، وقطاع الطريق من المنتسبين إلى طريقة القوم.

فإنهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هى المطلوبة أرواحها، لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا: نجمع هممنا على مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره. وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها. فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك، وهممهم أعلى، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر. فتركب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل.

وجملة الأمر: أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته. وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته. فظنوا أنهم يصلون إلى حقيقته، من غير رسمه وظاهره، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة. وجحدوا ما علم بالضرورة مجيء الرسل به. فهؤلاء كفار زنادقة منافقون. وأولئك مقصرون غير كاملين. والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم. وأن على القلب عبودية فى الأمر كما على الجوارح. وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح. وأن كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده بعبوديته. فهؤلاء خواص أهل الإيمان وأهل العلم والعرفان.

قوله: «ومن الحظوظ إلى التجريد».

يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها. فإنه لا يعرفها لا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهم ورب مطالب عالية لقوم من العُبَّاد هى حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون إليه منها. يرونها حائلة بينهم وبين مطلَوبهم.

وبالجملة فالحظ : ما سوى مراد الله الدينى منك ، كائنًا ما كان . وهو ما يبرح حظ محرم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب ، غيره أحب إلى الله منه . ولا يتميز هذا إلا فى مقام الرسوخ فى العلم بالله وأمره ، وبالنفس وصفاتها وأحوالها .

فهناك تتبين له الحظوظ من الحقوق . ويفر من الحظ إلى التجريد . وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا . لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه . وأما تجريد عبادته على مراده من عبده :

فتلك منزلة لم يعطها أحد ... سوى نبى وصديق من البشر
والزهدُ زُهْدُكَ فيها ليس زهدك فى ... ماقد أبيح لنا فى محكم السُّوَرَ
والصِّدْق صدْقُكَ فى تجريدها وكذا الـ ... إخلاصُ تخليصها إن كنت ذا بصر
كذا توكل أرباب البصائر فى ... تجريد أعمالهم من ذلك الكدر
كذاك توبتهم منها فهم أبدًا ... فى توبة أو يصيروا داخل الحفر

وبالجملة فصاحب هذا التجريد:لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسى على ما فاته سوى الله ، ولا يستغنى برتبة شريفة ، وإن عظمت عنده أو عند الناس . فلا يستغنى إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلى الله ، ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن إلا على ما فاته من الله ، ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه ، فكله بالله ، وكله لله ، وكله مع الله ، وسيره دائمًا إلى الله . قد رفع له عمله فشمر إليه ، وتجرد له مطلوبه فعمل عليه ، تناديه الحظوظ : إلىَّ- وهو يقول: إنما أريد من إذا حصل لى حصل لى كل شىء ، وإذا فاتنى فاتنى كل شىء ، فهو مع الله مجرد عن خلقه ، ومع خلقه مجرد عن نفسه . ومع الأمر مجرد عن حظه- أعنى الحظ المزاحم للأمر . وأما الحظ المعين على الأمر : فإنه لا يحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه .

وهذا أيضًا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ . فظنوا أن إرادة الحظ نقص فى الإرادة .

والتحقيق فيه :أن الحظ نوعان . حظ يزاحم الأمر ، وحظ يؤازر الأمر فينفذه . فالأول هو المذموم ، والثانى ممدوح ، وتناوله من تمام العبودية . فهذا لون وهذا لون .

* *

فرار خاصة الخاصة

قال: «وفرار خاصة الخاصة: مما دون الحق إلى الحق. ثم من شهود الفرار إلى الحق، ثم الفرار من شهود الفرار».

هذا على قاعدته فى جعل الفناء عن الشهود غاية السالكين. فيفر أولاً من الخلق إلى الحق. ويشهد بهذا الفرار انفراد مشهوده الذى فر إليه. لكن بقيت عليه بقية، وهى شهود فراره. فيعدله إحساسًا بالخلق. فيفر ثانيًا من شهود فراره. فتنقطع النسب كلها بينه وبين الخلق بهذا الفرار الثانى. فلا يبقى فيه بقية إلا ملاحظة فراره من شهود فراره، فيفر من شهود الفرار. فتنقطع حينئذ النسب كلها.

وقد تقدم الكلام على هذا. وأنه ليس أعلى المقامات والرتب، ولا هو غاية الكمال. وأن فوقه ما هو أعلى منه مقامًا، وأشرف منزلاً. وهو أن يشهد فراره، وأنه بالله من الله إلى الله. فيشهد أنه فر به منه إليه. ويعطى كل مشهد حقه من العبودية. وهذا حال الكُمَّلِ. والله المستعان.

منزلة الرياضة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»: «منزلة الرياضة».

هى تمرين النفس على الصدق والإخلاص.

قال صاحب المنازل: «هى تمرين النفس على قبول الصدق».

وهذا يراد به أمران: تمرينها على قبول الصدق إذا عرضه عليها فى أقواله وأفعاله وإرادته. فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادت له وأذعنت له.

والثانى: قبول الحق ممن عرضه عليه. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾ [الزمر: ٣٣]، فلا يكفى صدقك. بل لابد من صدقك وتصديقك للصادقين. فكثير من الناس يصدق، ولكن يمنعه من التصديق كبر أو حسد، أو غير ذلك.

قال: «وهى على ثلاث درجات: رياضة العامة. وهى تهذيب الأخلاق بالعلم. وتصفية الأعمال بالإخلاص. وتوفير الحقوق فى المعاملة».

أما تهذيب الأخلاق بالعلم: فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم. فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم. فتكون حركات ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع.

وأما تصفية الأعمال بالإخلاص : فهو تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله . وهى عبارة عن توحيد المراد ، وتجريد الباعث إليه .

وأما توفير الحقوق فى المعاملة : فهو أن تعطى ما أمرت به من حق الله وحقوق العباد كاملاً موفراً . قد نصحت فيه صاحب الحق غاية النصح ، وأرضيته كل الرضى ، ففزت بحمده لك وشكره .

ولما كانت هذه الثلاثة شاقة على النفس جداً : كان تكلفها رياضة ، فإذا اعتادها صارت خلقا .

قال : «ورياضة الخاصة : حسم التفرق . وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه . وإبقاء العلم يجرى مجراه» .

يريد بحسم التفرق : قطع ما يفرق قلبك عن الله بالجمعية عليه ، والإقبال بكليتك إليه ، حاضراً معه بقلبك كله ، لا تلتفت إلى غيره .

وأما «قطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه» : فهو أن لا يشتغل باستحسان علوم ذلك المقام ولذته واستحسانه ، بل يلْهىَ عنه معرضًا مقبلاً على الله ، طالبًا للزيادة ، خائفًا أن يكون ذلك المقام له حجابًا يقف عنده عن السير . فهمته حفظه . ليس له قوة ولا همة أن ينهض إلى ما فوقه . ومن لم تكن همته التقدم فهو فى تأخر ولا يشعر . فإنه لا وقوف فى الطبيعة . ولا فى السير . بل إما إلى قدام ، وإما إلى الوراء . فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه . ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه .

وأما «إبقاء العلم يجرى مجراه» : فالذهاب مع داعى العلم أين ذهب به ، والجرى معه فى تياره أين جرى .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وأن لا تعارضه بجمعية ، ولا ذوق ، ولا حال . بل امض معه حيث ذهب . فلواجب تسليط العلم على الحال . وتحكيمه عليه ، وأن لا يعارض به .

وهذا صعب جداً إلا على الصادقين من أرباب العزائم . فلذلك كان من أنواع الرياضة .

ومتى تمرنت النفس عليه وتعودته صار خلقًا . وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة ، أو غلبه حال أو ذوق : خلى العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه ظهريًا . وحكَّمَ عليه الحال . هذا الحال أكثر السالكين . وهى حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا . ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به .

رياضة خاصة الخاصة

قال : «ورياضة خاصة الخاصة: تجريد الشهود. والصعود إلى الجمع. ورفض المعارضات. وقطع المعاوضات».

أما تجريد الشهود، فنوعان. أحدهما: تجريده عن الالتفات إلى غيره. والثاني: تجريده عن رؤيته وشهوده.

وأما الصعود إلى الجمع: فيعنى به الصعود عن معانى التفرقة إلى الجمع الذاتى. وهذا يحتمل أمرين.

أحدهما: أن يصعد عن تفرقة الأفعال إلى وحدة مصدرها.

والثانى: أن يصعد عن علائق الأسماء والصفات إلى الذات. فإن شهود الذات بدون علائق الأسماء والصفات عندهم هو حضرة الجمع. وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام. لابد من تحقيقه. فنقول:

التفرقة تفرقتان: تفرقة فى المفعولات، وتفرقة فى معانى الأسماء والصفات. والجمع جمعان: جمع فى الحكم الكونى، وجمع ذاتى.

فالجمع فى الحكم الكونى: اجتماع المفعولات كلها فى القضاء والقدر والحكم. والجمع الذاتى: اجتماع الأسماء والصفات فى الذات.

فالذات واحدة جامعة للأسماء والصفات.

والقدر: جامع لجميع المقضيات والمقدورات، والشهود مترتب على هذا وهذا.

فشهود اجتماع الكائنات فى قضائه وقدره -وإن كان حقًا- فهو لا يعطى إيمانًا، فضلاً عن أن يكون أعلى مقامات الإحسان. والفناء فى هذا الشهود: غايته فناء فى توحيد الربوبية الذى لا ينفع وحده، ولا بد منه.

وشهود اجتماع الأسماء والصفات، فى وحدة الذات: شهود صحيح. وهو شهود مطابق للحق فى نفسه.

وأما الصعود عن شهود تفرقة الأسماء والصفات وعلائقها إلى وحدة الذات المجردة: فغايته أن يكون صاحبه معذوراً لضيق قلبه. وأما أن يكون محموداً فى شهوده ذاتًا مجردة عن كل اسم وصفة وعن علائقها فكلاً ولَمَّا.

وأى إيمان يعطى ذلك؟ وأى معرفة؟ وإنما هو سلب ونفى فى الشهود، كالسلب والنفى فى العلم والاعتقاد. فنسبته إلى الشهود كنسبة نفى الجهمية وسلبهم إلى الأخبار. لكن الفرق بينهما: أن ذلك السلب فى العلم والاعتقاد، مخالف للحق الثابت فى نفس الأمر، وكذب على الله، ونفى لما يستحقه من صفات كماله ونعوت جلاله، ومعانى أسمائه الحسنى.

وأما هذا السلب ففى الشعور به للصعود منه إلى الجمع الذاتى، مع الإيمان به، والاعتراف بثبوته. فهذا لون وذاك لون.

والكمال شهود الأمر على ما هو عليه، ويشهد الذات موصوفة بصفات الجلال، منعوتة بنعوت الكمال. وكلما كثر شهوده لمعانى الأسماء والصفات كان أكمل.

نعم قد يعذر فى الفناء فى الذات المجردة، لقوة الوارد، وضعف المحل عن شهود معانى الأسماء والصفات.

فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه، ولا يصدنك عن تحقيق ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق. فإنا لا ننكره، بل نقر به، ولكن الشأن فى مرتبته. وبالله التوفيق.

وأما رفض المعارضات: فيحتمل أمرين:

أحدهما: ما يعارض شهوده الجمعى من التفرقات. وهو مراده.

والثانى: ما يعارض إرادته من الإرادات، وما يعارض مراد الله من المرادات. وهذا أكمل من الأول، وأعلى منه.

وأما قطع المعاوضات: فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعاوضة، بل يجردها لذاته، وأنه أهل أن يعبد ولو لم يحصل لعابده عوض منه. فإنه يستحق أن يعبد لذاته لا لعلة، ولا لعوض ولا لمطلوب. وهذا أيضًا موضع لابد من تجريده.

فيقال: ملاحظة المعاوضة ضرورية للعامل. وإنما الشأن فى ملاحظة الأعواض وتباينها. فالمحب الصادق الذى قد تجرد عن ملاحظة عوض قد لاحظ أعظم الأعواض، وشمر إليها. وهى قربه من الله ووصوله إليه، واشتغاله به عما سواه.

والتنعم بحبه ولذة الشوق إلى لقائه. فهذه أعواض لابد للخاصة منها. وهى من أجل مقاصدهم وأغراضهم. ولا تقدح فى مقاماتهم، وتجريد عبودياتهم. بل أكملهم عبودية أشدهم التفاتًا إلى هذه الأعواض.

نعم طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة -من الجاه، والمال، والرياسة، والملك- أو طلب الحور العين والقصور والولدان، ونحو ذلك بالنسبة إلى تلك الأعواض التى تطلبها الخاصة معلولة، وهذا لا شك فيه إذا تجرد طلبهم لها.

أما إذا كان مطلوبهم الأعظم الذاتى: هو قُرْبُهُ والوصول إليه، والتنعم بحبه. والشوق إلى لقائه، وانضاف إلى هذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل: فلا علة فى هذه العبودية بوجه ما، ولا نقص. وقد قال النبى ﷺ: «**حولها ندندن**»[(١)] يعنى الجنة. وقال: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس. فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة. وفوقه عرش الرحمن. ومنه تفجر أنهار الجنة**»[(٢)].

ومعلوم أن هذا مسكن خاصة الخاصة، وسادات العارفين. فسؤالهم إياه ليس علة فى عبوديتهم، ولا قدحًا فيها.

وقد استوفينا ذكر هذا الموضع فى (كتاب سفر الهجرتين) عند الكلام على علل المقامات.

ويحتمل أن يريد الشيخ بقطع المعاوضات: **أن تشهد أن الله ما أعطاك شيئًا معاوضة، بل إنما أعطاك تفضلاً وإحسانًا. لا لعوض يرجوه منك، كما يكون عطاء العبد للعبد، وإنما نتكلم فيما من العبد، مما يؤمر بالتجرد عنه، كتجرده عن التفرقة والمعاوضة. فهذا أليق المعنيين بكلامه. والله أعلم.**

منزلة السماع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به فى كتابه، وأثنى على أهله، وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا**﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقال: ﴿**وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا**﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ**﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾**﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**

---

(١) حديث صحيح: وله قصة، أخرجه أبو داود (جـ١/ ٧٩٢)، وابن ماجه (جـ١/ ٩١٠)، وأحمد (جـ٣ ص٤٧٤).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٦/ ٢٧٩٠)، وأحمد (جـ٢ ص٣٣٥) عن أبى هريرة، والترمذى (جـ٤/ ٢٥٣٠) بنحو معناه عن معاذ بن جبل.

وأنصتوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال: ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم فى القرآن من قوله: ﴿أفلا يسمعون (٢٦)﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ الآية [الحج: ٤٦].

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذى انبنى عليه، وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن فى المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معانى المسموع. وتحريكه عنها: طلبًا وهربًا وحبًا وبغضًا، فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله، فهذا يُفْتَحُ له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما فى الحديث الإلهى الصحيح: «فبى يسمع. وبى يبصر» وهذا أعلى سماعًا، وأصح من كل أحد.

و«الكلام فى السماع» -مدحًا وذمًا- يُحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته. فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار، والحق والباطل، والممدوح والمذموم.

فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله، ورضى عنهم به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمه، فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر، والمشام، والمطعومات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله مالا يعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله دينا وقربة يتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشوع دينا لم يأذن به الله. وضاهأ بذلك المشركين.

فأما النوع الأول: فهو السماع الذى مدحه الله فى كتابه. وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الأنعام سبيلاً، وهم القائلون فى النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ١٠]، وهو سماع آياته المتلوة التى أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذى يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع. سماع إدراك: بحاسة الأذن. وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثلاثة فى القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن وقولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقوله: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ الآية [الأحقاف: ٣٠]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة

وأما سماع الفهم: فهو المنفى عن أهل الإعراض والغفلة. بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر: ٢٢].

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذى قامت به الحجة: لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣]، أى لو علم الله فى هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك «ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» أى ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا. لأن فى قلوبهم من داعى التولى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففى قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، فإن هذا سَمْعُ قَبُولٍ وإجابةٍ مُثْمِرٌ للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة أنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه. واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أى قابلون منهم مستجيبون لهم. هذا أصح القولين فى الآية.

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس، فضعيف. فإنه- سبحانه- أخبر عن حكمته فى تثبيطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد، والسعى بين العسكر بالفتنة. وفى العسكر من يقبل منهم. ويستجيب لهم، فكان فى إقعادهم عنهم لطفٌ بهم ورحمة، حتى لا يقعوا فى عنت القبول منهم.

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد. ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم. وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد فى العسكر، ولئلا يبغوهم الفتنة. وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضًا فإن الجواسيس إنما تسمى عيونًا هذا المعروف فى الاستعمال لا تسمى سماعين.

وأيضًا فإن هذا نظير قوله تعالى فى إخوانهم اليهود: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، أى قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابة، وكل سماع فى القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه: هو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات. وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء. وسماع المراشد، لا سماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومناد ينادى للإيمان، ودليل يسير بالركب فى طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساءً والصباح. من قبل فالق الإصباح «حى على الفلاح، حَى على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة

فى آية، ودلالة على رشد، وردًا على ضلالة، وإرشادًا من غى، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة. وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى. وحثًا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق فى سماع الأبيات والقصائد. ونناشدهم بالذى أنزل القرآن هدى وشفاء ونورًا وحياة: هل وجدوا ذلك -أو شيئًا منه- فى الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذى يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان. فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشىء ساكنه، ويزعج قاطنه، فيثور وجده، ويبدو شوقه. فيتحرك على حسب ما فى قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائنًا ما كان. ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقًا فى السماع، وحالاً ووجدًا وبكاءً.

ويا لله العجب! أى إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات. لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه: من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو فى الصور المحرمة. ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه فى امرأته، وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود، فكيف يقع لمن أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله، ويزداد إيمانًا وقربًا منه وكرامة عليه، بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يُمْقَتُ قائله والراضى به؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع، وسنة نبيه ﷺ؟!.

يا لله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به منكوس. لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه، ومطالعة أسراره. فبلاه بقرآن الشيطان، كما فى معجم الطبرانى وغيره- مرفوعًا وموقوفًا-: «إن الشيطان قال: يا رب، اجعل لى قرآنًا. قال: قرآنك الشعر. قال: اجعل لى كتابًا. قال: كتابك الوشم. قال: اجعل لى مؤذنًا. قال: مؤذنك المزمار. قال: اجعل لى بيتًا. قال: بيتك الحمام. قال: اجعل لى مصائد. قال: مصائدك النساء. قال: اجعل لى طعامًا. قال: طعامك ما لم يذكر عليه اسمى»(١) والله- سبحانه وتعالى- أعلم.

---

(١) هو فى مجمع الزوائد (جـ٨ ص١٩) عن أبى أمامة وقال الهيثمى: رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف. وانظر «جامع الأحاديث القدسية» (٣٤١، ٣٤٢).

القسم الثانى من السماع

ما يبغضه الله ويكرهه. ويمدح المعرض عنه. وهو سماع كل ما يضر العبد فى قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رَدَّه وإبْطَالَهُ والاعتبار به وقصد أن يعلم به حُسْنَ ضده. فإن الضد يظهر حسنه الضد. كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادنى ... حبًا له: سَمْعى حَديثَ سواكا

وكسماع اللغو الذى مَدَحَ التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله: ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** (٧٢) ﴾ [الفرقان: ٧٢]، قال محمد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره فى قلبه، فإنه ما اجتمع فى قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى، وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل قرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه، فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب، فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله. كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمنى طول الليل. فإن لم يكن هذا نفاقًا فهو آخية النفاق وأساسه.

تلى الكتاب فأطرقوا، لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهى
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا ... والله ما رقصوا من اجْلِ الله
دُفٌّ، ومزمارٌ، ونَغْمَةُ شاهد ... فَمَتَى شَهِدتَّ عبادة بملاهى؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهى
وعليهم خف الغنا لما رأوا ... إطلاقه فى اللهو دون مناهى
يا فرقة ما ضر دين محمد ... وجنى عليه ومله إلا هى
سمعوا له رعدًا وبرقًا إذ حوى ... زجرًا وتخويفًا بفعل مناهى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها. يا ويحها المتناهى
وأتى السماع موافقًا أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

أين المساعد للهوى من قاطع أسبابه عند الجهول الساهى
إن لم يكن خمر الجسوم. فإنه خمر العقول مماثل ومضاهى
فانظر إلى النشوان عند شرابه وانظر إلى النشوان عند تلاهى
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه من بعد تمزيق الفؤاد اللاهى
فاحكم بأى الخمرتين أحق بالـ تحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماع الذى يسمعه العبد بطبعه وهواه، أنفع له من الذى يسمعه بالله ولله وعن الله؟ فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائى الشعرى كذلك. فهذا غاية اللبس على القوم، فإنه إنما يسمع بالله ولله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه؛ ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام فى هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته، فقد جعل الله لك شىء قدرًا، ولن يجعل الله مَنْ شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات.

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم، وأنه مباح: بكونه مُسْتَلذًا طبعًا. تلذه النفوس، وتستروح إليه، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة، فيهون عليه بالحداء، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة فى خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيع، فقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٩]، وبأن الله وصف نعيم الجنة. فقال فيه: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم: ١٥]. وأن ذلك هو السماع الطيب. فكيف يكون حرامًا وهو فى الجنة؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشىء كإذْنه -أى كاستماعه- لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن. وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى ﷺ إلى صوته، وأثنى عليه بحسن الصوت. وقال: «لقد أوتى هذا مزمارًا من مزامير آل داود»[(١)] فقال له أبو موسى: «لو علمت أنك استمعت لَحَبَّرْتُهُ لك تحبيرًا» أى زينته لك وحسنته. وبقوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[(٢)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٩/ ٥٠٤٨) ومسلم (جـ١- مسافرين/ ٢٣٥، ٢٣٩) عن أبى موسى، والنسائى (جـ٢/ ص١٨٠) عن أبى هريرة.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (جـ٢/ ١٤٦٨)، وابن ماجه(جـ١/ ١٣٤٢)، والنسائى (جـ٢، ١٨٠٢) من حديث البراء بن عازب.

وبقوله ﷺ : **«ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن»**(١) والصحيح : أنه من التغنى بمعنى تحسين الصوت . وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله ، فقال : يحسنه بصوته ما استطاع .

وبأن النبى ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد . وقال لأبى بكر : **«دعهما . فإن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا أهل الإسلام »**(٢).

وبأنه ﷺ أذن فى العرس فى الغناء وسماه لهوًا . وقد سمع رسول الله ﷺ الحداء ، وأذِنَ فيه ، وكان يسمع أنسًا والصحابة ، وهم يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمدا … على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة . وحدا به الحادى فى مُنْصَرَفِه مِنْ خيبر . فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا … ولا تصدقنا ولا صلينا
فَأَنْزِلَنْ سكينةً علينا … وثَبِّت الأقدامَ إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا … إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صِيحَ بنا أتينا … وبالصياح عَوَّلُوا علينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا

فدعا لقائله .

وسمع قصيدة كعب بن زهير ، وأجازه ببردة .

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حَمِدَ بها ربَّه .

واستنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشى شيئًا من شعره فسمعه .

وصَدَّق لبيدًا فى قول : ألا كل شىء ما خلا الله باطل (٣).

---

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (جـ١٣/ ٧٥٢٧)، عن أبى هريرة، وأبو داود (جـ٢/ ١٤٩٦)، وأحمد (جـ١، ص١٧٢).

(٢) حديث صحيح : رواه البخارى (جـ٧/ ٣٩٣١)، ومسلم (جـ٢ عيدين/ ١٦) عن عائشة.

(٣) حديث صحيح : رواه البخارى فى «مناقب الأنصار» وفى «الأدب» وفى «الرقاق»، ومسلم فى «الشعر»، وابن ماجه فى «الأدب» وغيرهم فى «أصدق كلمة قالها شاعر» فذكره.

ودعا لحسان «أن يؤيده الله بروح القدس» ما دام ينافح عنه وكان يعجبه شعره. وقال له: «**اُهْجُهُمْ، وروح القدس معك**»(١).

وأنشدته عائشة قول أبى كبير الهذلى:

ومبرإ من كل غُبَّرِ(٢) حيضـــة ... وفساد مُرْضعَـة وداء مُغْيِلِ(٣)

وإذا نَظَرْتَ إلى أَســرَّة وجهه ... بَرقَتْ كَبَرْقِ العارضِ المتـهلِّلِ

وقالت: «أنت أحَقُّ بهذا البيت» فَسُرَّ بقولها.

وبأن ابن عمر- رضى الله عنهما- رخص فيه. وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة. وبأن كذا وكذا وليًا لله حضروه وسمعوه. فمن حرمه فقد قدح فى هؤلاء السادة القدوة الأعلام.

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالإباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه. فإن كان محبوبه حرامًا كان السماع معينًا له على الحرام. وإن كان مباحًا كان السماع فى حقه مباحًا. وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة. لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن. والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة. فإن كان هذا حرامًا كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة.

فالجواب: أن هذه حَيْدَة عن المقصود، وروغان عن محل النزاع، وتعلق بما لا متعلق به. فإن جهة كون الشيء مستلذًا للحاسة ملائمًا لها، لا يدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه. فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون فى الحرام، والواجب، والمكروه، والمستحب، والمباح؛ فكيف يَسْتَدلُّ بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل، ومواقع الاستدلال؟.

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وأن لذته لا

---

(١) رواه البخارى (جـ٦/ ٣٢١٣)، ومسلم (جـ٤- فضائل الصحابة/ ١٥٣) عن البراء بن عازب.

(٢) غُبَّر حيضة: بضم الغين وتشديد الباء: بقايا الحيض، وغُبَّرُ اللبن: بقاياه فى الضرع.

(٣) مغيل: من الغيل وهى أن تحمل المرأة وهى مرضع، وكانت العرب تعتقد أن ذلك يضر الرضيع.

ينكرها من له طبع سليم: وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التى صح عن النبى ﷺ تحريمها، وأن فى أمته من سيستحلُّها بأصح إسناد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال جمهورهم: بتحريم جملتها -إلا لذيذة تلذ السمع؟ وهل فى التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه: من إباحة، أو تحريم؟.

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب. وهو زيادة نعمة منه لصاحبه.

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة فى النعمة. والله خالقها. ومعطى حسنها؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها، والالتذاذ على الإطلاق بها؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة؟ وهل فى ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات، والألحان اللذيذات، من الصور المستحسنات، بأنواع القصائد المنغمات، بالدفوف والشبابات؟!.

وأعجب من هذا الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمراً. وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلى حل أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال: بكون ذلك ثابتًا وجود النعيم به فى الجنة.

فإن قال: قد قام الدليل على تحريم هذا، ولم يقم على تحريم السماع.

قيل: هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة. فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل، لا يرضى به محصل.

وأما قولكم: «لم يقم دليل على تحريم السماع».

فيقال لك: أى السماعات تعنى؟ وأى المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات: منها المحرم، والمكروه، والمباح، والواجب، والمستحب. فعين نوعًا يقع الكلام فيه نفيًا وإثباتا.

فإن قلت: سماع القصائد. قيل لك: أى القصائد تعنى؟ ما مدح به الله ورسوله ودينه وكتابه. وهجى به أعداؤه؟.

فهذه لم يزل المسلمون يرونها ويسمعونها ويتدارسونها. وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها. وحَرَّضَ حسانًا عليها. وهى التى غَرَّت أصحاب السماع

الشيطانى. فقالوا: تلك قصائد، وسماعنا قصائد. فنعم إذن. السنة كلام، والبدعة كلام، والتسبيح كلام، والغيبة كلام، والدعاء كلام، والقذف كلام، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطانى المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع. وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها؟.

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن. وإذنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له.

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد، وذكر القدِّ والنهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والشعر الأسود، ومحاسن الشباب، وتوريد الخدود، وذكر الوصل والصد، والتجنى والهجْرَان، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق، والقلق والفراق، وما جرى هذا المجرى. ممَا هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما. وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها إلا فى عسكر الهالكين، سليبًا حربيًا، أسيراً قتيلاً؟.

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع؟ وهل يُظَنُّ بحكيم أن يحرم سُكْرًا لمفسدة فيه معلومة. ويبيح سكرًا مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشرابِّ؟ حاشا أحكم الحاكمين.

فإن نازعوا فى سكر السماع، وتأثيره فى العقول والأرواح: خرجوا عن الذوق والحس. وظهرت مكابرة القوم. فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته.. ويبيح له ما فيه أعظم السقم؟ والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب، وسقمها بسكر السماع. وكلامنا مع واجد لا فاقد. فهو المقصود بالخطاب.

وأعجب من هذا: استدلالكم على إباحة السماع -المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية- بغناء بُنَيَّتَيْن صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صَبيَّة فى يوم عيد وفرح، بأبيات من أبيات العرب، فى وصَف الشجاعة والحروب، ومكارِم الأَخلاق والشيَم. فأينَ هذا من هذا؟.

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر- رضى الله عنه- سمى ذلك «مزموراً من مزامير الشيطان» وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية. ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين، ولا مفسدة فى إنشادهما. ولا استماعهما. أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على مالا يخفى؟ فيا سبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟.

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحيته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد؟! وهل حَرَّمَ أحدٌ مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟ فكم فى هذا من التعلق ببيوت العنكبوت!!.

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان، والأوتار والعيدان، وأصوات أشباه النساء من المردان، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القمرى وبالبلبل والهزار ونحوها؟.

بل نقول: لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة تُسْتَنْزَلُ به المعارف والأذواق والمواجيد، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور، ومعاذ الله أن يكونا سواء.

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة: ثلاث قواعد. من أهم قواعد الإيمان والسلوك، فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جُرُفٍ هارٍ.

القاعدة الأولى

أن الذوق والحال والوجد: هل هو حاكم أو محكوم عليه، فيحكم عليه بحاكم آخر، ويتحاكم إليه؟.

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة. حيث جعلوه حاكمًا. فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيح وفاسد. وجعلوه مَحكًا للحق والباطل. فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص، وحكَّمُوا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد. فعظم الأمر، وتفاقم الفساد والشر. وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم، وانعكس السير. وكان إلى الله فصيروه إلى النفوس. فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله. وهؤلاء يعبدون نفوسهم.

ومن العجب: أنهم دخلوا فى أنواع الرياضات والمجاهدات والزهد، ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها، فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها، ومن حظوظ إلى حظوظ أحط منها. وكان حالهم فى شهوات نفوسهم التى انتقلوا عنها أكمل، وحال أربابها خير من حال هؤلاء. لأنهم لم يعارضوا بها العلم. ولا قدموها على النصوص. ولا جعلوها دينًا وقربة، ولا ازدروا من أجلها العلم وأهله، والشهوات التى انتقلوا إليها جعلوها

أعلى ما يشمرون إليها، فهى قبلة قلوبهم، فهم حولها عاكفون، واقفون مع حظوظهم من الله، فانون بها عن مراد الله منهم. الناس يعبدون الله، وهم يعبدون أنفسهم، عائبون على أهل الحظوظ والشهوات ومزدرون لهم. وهم أعظم الناس حظوظًا، وإنما زهدوا فى حظ إلى حظ أعلى منه، وإنما تركوا شهوة لشهوة أحط.

فليتدبر اللبيب هذا الموضع فى نفسه وفى غيره. فكل ما خالف مراد الله الدينى من العبد فهو حظه وشهوته، مالاً كان، أو رياسة، أو صورة، أو حالاً، أو ذوقًا، أو وجداً.

ثم من قَدَّمَهُ على مراد الله فهو أسوأ حالاً ممن عرف أنه نقص ومحنة. وأن مراد الله أولى بالتقديم منه، فهو يتوب منه كل وقت إلى الله.

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد مالا يعلمه إلا الله، فإن الأذواق مختلفة فى أنفسها، كثيرة الألوان، متباينة أعظم التباين. فهم طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد، بحسب معتقداتهم وسلوكهم.

فالقائلون بوحدة الوجود لهم ذوق وحال ووجد فى معتقدهم بحسبه. والنصارى لهم ذوق فى النصرانية بحسب رياضتهم وعقائدهم. وكل من اعتقد شيئًا أو سلك سلوكا -حقًا كان أو باطلاً- فإنه إذا ارتاض وتجرد: لزمه. وتمكن من قلبه. وبقى له فيه حال وذوق ووجد. فيذوق من توزن الحقائق إذن ويعرف الحق من الباطل.

تحكيم الوحى

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد، والكشوف والأحوال، من هذه الأمة المُحَدَّثُ المكاشف - عمر رضى الله عنه- لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطبته فى شىء من أمور الدين، حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب. فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشىء لم يلتفت إلى ذوقه، ولا إلى وجده وخطابه، بل يقول: «لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره» ويقول: «أيها الناس، رجل أخطأ وامرأة أصابت» فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضى الله عنه، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة.

القاعدة الثانية

أنه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أو ذوق من الأذواق. هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين. وهى وحيه الذى تُتَلقَّى أحكامُ النوازلِ والأحوال والواردات

منه. وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول. وما أبطله ورده فهو الباطل المردود. ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله: فليس على شيء من الدين. وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور: ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣٩) ﴾[النور: ٣٩] .

القاعدة الثالثة

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة. فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته. بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي. ولا سيما إذا كان طريقًا مُفْضيًا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلاً إليه عن قرب. وهو رقية له ورائد وبريد. فهذا لا يَشُكُّ في تحريمه أولو البصائر. فكيف يُظَنُّ بالحكيم الخبير أن يُحَرِّمَ مِثْلَ رأس الإبرة من المسكر لأنه يسوق النفس إلى السكر الذي يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقًا للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء -كما قال ابن مسعود- رضي الله عنه- هو «رقية الزنا» وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبي إلا وفسد، ولا امرأة إلا وبغت، ولا شاب إلا وإلا، ولا شيخ إلا وإلا. والعيان من ذلك يغني عن البرهان. ولا سيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حدو إلى المعصية والفجور، بأن يكون على الوجه الذي ينبغي لأهله، من المكان والإمكان، والعشراء والإخوان، وآلات المعازف: من اليراع، والدف، والأوتار والعيدان. وكان القَوّال شادنًا شجي الصوت، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان. وكان القول في العشق والوصال. والصد والهِجْران.

ودارت كؤوس الهوى بينهم ... فلستَ ترى فيهُمُ صاحيا
فكل على قَدْرِ مشروبه ... وكُلٌّ أجاب الهوى الداعيا
فمالوا سُكارى، ولا سُكْرَ مَنْ ... تناول أم الهوى خاليا
وجار على القوم ساقيهم ... ولم يؤثروا غيره ساقيا
فمزق منهم قلوبًا غَدَتْ ... لباسًا عليه يُرى ضافيا
فلم يستفيقوا إلى أن أتى ... إليهم مناجي اللقا داعيا
أجيبوا، فكل امرئ منكم ... على حاله ربه لاقيا
هنالك تعلم من حَمْأةٍ ... شَرِبْتَ مع القوم، أم صافيا؟

وبالله لابد قبل اللقا ... ستعلم ذا إن تكن واعيا
فلابُدَّ تصحو. فإما هنا ... وإما هناك. فكن راضيا

وإذا لم يكن بد من المحاكمة إلى الذوق. فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التى ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود، وحالة فرح ورضى بموجود. وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان.

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء وهى للسابقين، والصبر وهى لأصحاب اليمين.

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر. والشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون، وأصحاب يمين. فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحمقين فاجرين. هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب. وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين.

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه فى حديث أنس -رضى الله عنه-: «**إنما نهيت عن صوتين أحمقين، فاجرين: صوت ويل عند مصيبة. وصوت مزمار عند نعمة**»(١).

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة، وسرت فيها تلك الرقائق حتى تَعَبَّدَ بها من قَلَّ نصيبه من النور النبوى. وقل مشربه من العين المحمدية، وانضاف ذلك إلى صدق وطلب وإرادة ومضادة لشهوات أهل الغى وأهل البطالة. ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم، وكثافة حجبهم، وغلظة طباعهم، وثقل أرواحهم. وصادف ذلك تحريكًا لسواكنهم. وانقيادًا للواعج الحب، وإزعاجًا للنفوس إلى أوطانها الأولى ومعاهدها التى سبيت منها. والنفوس الطالبة المرتاضة السائرة لابد لها من محرك يحركها، وحاد يحدوها. وليس لها من حادى القرآن عوض عن حادى السماع.

فتركب من هذه الأمور: إيثار منهم للسماع، ومحبة صادقة له، تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم؛ إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم، ومزعج بواطنهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (جـ٣/ ١٠٠٥) فى قصة وفاة إبراهيم ابن النبى ﷺ، وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة- مع الإمعان فى تفهم معانيه، وتدبر خطابه قليلاً قليلاً، إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات، ويُلْبَسَ محبة سماع الآيات، ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه. فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شىء، ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى ... إلى غـــاية ما فوقها لى مَطْلَبُ

فلما تلاقينا. وعـــاينت حُسْنَها ... تَيَقَّنْتُ أنى إنما كـــنت ألْعَبُ

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين. لا يمترى فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذى هو الشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- فى النائحة -وقد ضربها حتى بدا شعرها- وقال: «**لا حرمة لها**[1]. **إنها تأمر بالجزَع .-وقد نهى الله عنه- وتنهى عن الصبر- وقد أمر الله به- وتفتن الحى وتؤذى الميت. وتبيع عَبْرَتَهَا، وتبكى شجو غيرها**».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذى شاهدناه -نحن وغيرنا- وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم، وفشت فيهم، واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء، والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر. والله المستعان.

ولا تستطل كلامنا فى هذه المنزلة، فإن لها عند القوم شأنًا عظيمًا.

وأما قولهم: «من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا ولى لله» فحجة عامِّيَّة. نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله كان ماذا؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عددًا، وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرًا، وأقرب بالقرون المفضلة عهدًا. وليس من شرط ولى الله العصمة. وقد تقاتل أولياء الله فى صفِّينَ بالسيوف. ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال: سار أهل الجنة إلى أهل الجنة. وَكون ولى الله يرتكب المحظور والمكروه متأولاً أو عاصيًا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله. وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المبتدع المشتمل على هذه الهيئة التى تفتن القلوب، أعظم من فتنة المشروب، وحاشا أولياء الله من ذلك وإنما السماع الذى اختلف فيه مشايخ القوم: اجتماعهم فى مكان خال من الأغيار

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (جـ٣/ ٦٦٨١، ٦٦٨٢) مختصرًا.

يذكرون الله، ويتلون شيئًا من القرآن، ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئًا من الأشعار المزهدة فى الدنيا، المرغبة فى لقاء الله ومحبته، وخوفه ورجائه، والدار الآخرة، وينبههم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة، أو بعد أو انقطاع، أو تأسف على فائت، أو تدارك لفارط، أو وفاء بعهد، أو تصديق بوعد، أو ذكر قلق وشوق، أو خوف فرقة أو صد، وما جرى هذا المجرى.

فهذا السماع الذى اختلف فيه القوم، لا سماع المكاء والتصدية، والمعازف والخمريات، وعشق الصور من المردان والنسوان، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها. فهذا لو سئل عنه من سئل من أولى العقول لقضى بتحريمه، وعلم أن الشرع لا يأتى بإباحته، وأنه ليس على الناس أضر منه، ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه. والله أعلم.

درجات السماع

قال صاحب المنازل: «السماع على ثلاث درجات:

سماع العامة. وهو ثلاثة أشياء: إجابة زجر الوعيد رغبة، وإجابة دعوة الوعد جهداً، وبلوغ مشاهدة المنة استبصاراً».

الوعيد: يكون على ترك المأمور وفعل المحظور. وإجابة داعيه: هو العمل بالطاعة.

وقوله: «رغبة» يعنى امتثالاً لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد.

وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء. فيفعل ما أمرَ به على نور الإيمان، راجيًا للثواب. ويترك ما نُهِىَ عنه على نور الإيمان خائفًا من العقابَ.

وفى الرغبة فائدة أخرى. وهى أن فعله يكون فعل راغب مختار، لا فعل كاره، كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر.

وأما إجابة الوعد جهداً: فهو امتثال الأمر طلبًا للوصول إلى الموعود به، باذلاً جهده فى ذلك، مستفرغًا فيه قواه.

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً: فهو تنبه السامع فى سماعه إلى أن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه. وبفضله عليه من غير استحقاق منه، ولا بذل عوض استوجب به ذلك. كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾ [الحجرات: ١٧]

وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا ، أو ما لحقه منها من ضرر وأذىً فهو منة أيضًا من الله عليه من وجوه كثيرة ، ويستخرجها الفكر الصحيح . كما قال بعض السلف : «يا ابن آدم ، لا تدرى أى النعمتين عليك أفضل : نعمته فيما أعطاك ، أو نعمته فيما زوى عنك؟» وقال عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- : «لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت . إن كان الغنى ، إن فيه للشكر . وإن كان الفقر ، إن فيه للصبر» وقال بعض السلف : «نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لى منها . إنى رأيته أعطاها قومًا فاغتروا» .

إذا عم بالسراء أعقب شكرها   وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وما منهما إلا له فيه نعمة   تضيق بها الأوهام والبر والبحر

فإن قلت : فهل يشهد منته فيما لحقه من المعصية والذنب؟

قلت: نعم . إذا اقترن بها التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، كانت من أعظم المنن عليه . كما تقدم تقريره .

سماع الخاصة

قال: «وسماع الخاصة: ثلاثة أشياء : شهود المقصود فى كل رمز ، والوقوف على الغاية فى كل حين ، والخلاص من التلذذ بالتفرق» .

والمقصود فى كل رمز: هو الرب تبارك وتعالى . فإن المسموع كله يعرف به وبصفاته وأسمائه ، وأفعاله وأحكامه ، ووعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وعدله وفضله . وهذا الشهود ينال بالسماع بالله ولله وفى الله ومن الله .

أما السماع به : فأن لا يسمع وفيه بقية من نفسه ، فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه بالمسموع ، فيكون سماعه بقيوميته مجردًا من التفاته إلى نفسه .

وأما السماع له : فأن يجرد النفس فى السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله منه ، وتجمع قوى سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه: فشأن آخر ، وهو تجريد مالا يليق نسبته إلى الحق من وصف ، أو سمة أو نعت ، أو فعل ، مما هو لائق بكماله ، فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع ، وينزهه عما لا يليق به .

وهذا الموضع لم يتخلص فيه إلا الراسخون فى العلم والمعرفة بالله . وأضل الله عنه

أهل التحريف والتعطيل، والتشبيه والتمثيل، و: ﴿ هَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

وأما السماع منه : فإنما يتصور بواسطة ، فهو سماع مقيد . وأما المطلق : فلا مطمع فيه فى عالم الفناء ، إلا لمن اختصه الله برسالاته وبكلامه . ولكن السماع لكلامه كالسماع منه . فإنه كلامه الذى تكلم به حقًا . فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله .

هذا هو السماع من الله . لا سماع أرباب الخيال ، ودعوى المحال ، القائل أحدهم : نادانى فى سرى ، وخاطبنى ، وقال لى . يا ليت شعرى من المنادى لك؟ ومن المخاطب ، يا مخدوع يا مغرور؟ فما يدريك : أ نداء شيطانى ، أم رحمانى؟ وما البرهان على أن المخاطب لك هو الرحمن؟

نعم نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث ، وإنما الشأن فى المنادى المخاطب المحدث . فهاهنا تسكب العبرات .

وبالجملة: فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به ، فإذا حصل له -مع ذلك- السماع به وله وفيه ، ازدحمت معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه ، وازدلفت إليه بأيهما يبدأ ، فما شئت من علم وحكمة ، وتعرف وبصيرة ، وهداية وغيرة .

وأما «الوقوف على الغاية فى كل حين» : فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذى جعل وسيلة إليها ، وهو الحق سبحانه . فإنه غاية كل مطلب : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ [النجم: ٤٢]، وليس وراء الله مرمى ، ولا دونه مستقر ، ولا تقر العين بغيره ألبتة . وكل مطلوب سواه فظل زائل ، وخيال مفارق مائل ؛ وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما «الخلاص من التلذذ بالتفرق» : فالتفرق فى معانى المسموع ، وتنقل القلب فى منازلها يوجب له لذة ، كما هو المألوف فى الانتقال ، فليتخلص من لذة تفرقه التى هى حظه ، إلى الجمعية على المسموع به وله ومنه .

ولم يقل الشيخ : «من التفرق» فإن المسموع إنما يدرك معناه ويفهم بالتفرق لتنوعه . ولكن ليتخلص من لذته لا منه لئلا يكون مع حظه ، وهذا من لطف أحوال السامعين المخلصين .

* *

سماع خاصة الخاصة

قال: «وسماع خاصة الخاصة: سماع ينفى العلل عن الكشف. ويصل الأبد إلى الأزل، ويرد النهايات إلى الأوَل».

فالكشف: هو مكافحة القلب لحقيقة المسموع. وعلله أمران:

أحدهما: الشبه التى تنتفى بهذه المكافحة، فلا تبقى معها شبهة، فهذا هو عين اليقين.

والثانى: نفى الوسائط بين السامع والمسموع، فيغيب بمسموعه عنها، ويفنى عن شهودها، ويفنى عن شهود فنائه عنها، بحيث يشهده هو المسمع لا الواسطة وهو الهادى. فمنه الإسماع، ومنه الهداية، ومنه الابتداء، وإليه الانتهاء.

وأما «وصله الأبد إلى الأزل»: فهذا إن -أخذ على ظاهره-: فهو محال. لأن الأبد والأزل متقابلان تقابل التناقض، فإيصال أحدهما إلى الآخر عين المحال. وإنما مراده: أن ما يكون فى الأبد موجوداً مشهوداً فقد كان فى الأزل معلومًا مقدراً، فعاد حكم الأبد إلى الأزل علمًا وحقيقة، وصار الأزلى أبديًا، كما كان الأبدى أزليًا فى العلم والحكم.

وإيضاح ذلك: أن الأبد ظهر فيه ما كان كامنًا فى الأزل خافيًا، فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته، وذلك أزلى، وهذا رد النهايات إلى الأول، فتصير الخاتمة هى عين السابقة. والله تعالى هو الأول والآخر. وكل ما كان ويكون آخرًا فمردود إلى سابق علمه وحكمه، فرجع الأبد إلى الأزل، والنهايات إلى الأول. والله أعلم.

منزلة الحزن

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الحزن».

وليست من المنازل المطلوبة، ولا المأمور بنزولها، وإن كان لابد للسالك من نزولها. ولم يأت «الحزن» فى القرآن إلا منهيًا عنه. أو منفيًا.

فالمنهى عنه: كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، فى غير موضع، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، والمنفى كقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

وسر ذلك: أن «الحزن» موقف غير مُسَيِّر، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شىء إلى الشيطان: أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا

النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المجادلة: ١٠]، ونهى النبى ﷺ الثلاثة «أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه»(١).

فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه النبى ﷺ، فقال: «**اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن**»(٢) فهو قرين الهم، والفرق بينهما: أن المكروه الذى يرد على القلب، إن كان لما يستقبل: أورثه الهم، وإن كان لما مضى: أورثه الحزن. وكلاهما مضعف للقلب عن السير، مُفَتِّرٌ للعزم.

ولكن نزول منزلته ضرورى بحسب الواقع. ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ [فاطر: ٣٤]، فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم فى الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التى تجرى عليهم بغير اختيارهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ **وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)** ﴾ [التوبة: ٩٢]، فلم يمدحوا على نفس الحزن. وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة، ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ فى الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب، ولا حزن إلا كفَّرَ الله به من خطاياه**»(٣) فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفر بها من سيئاته. لا يدل على أنه مقام ينبغى طلبه واستيطانه.

وأما حديث هند بن أبى هالة(٤)، فى صفة النبى ﷺ: «**إنه كان متواصل الأحزان**» فحديث لا يثبت. وفى إسناده من لا يعرف.

وكيف يكون متواصل الأحزان، وقد صانه الله عن الحزن على الدنيا وأسبابها، ونهاه عن الحزن على الكفار، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فمن أين يأتيه الحزن؟.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ١١/ ٦٢٩٠)، ومسلم (جـ٤- سلام/ ٣٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (جـ٦/ ٢٨٩٣)، والترمذى (جـ٥/ ٣٤٨٤)، وأحمد (جـ٣ ص١٥٩)، والنسائى (جـ٨ ص٢٥٧) عن أنس بن مالك، وأبو داود (جـ٢/ ١٥٥٥) عن أبى سعيد الخدرى.

(٣) متفق على صحته: أخرجه البخارى جـ١٠ / ٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (جـ٤- بر/ ٥٢)، وأحمد (جـ٢ ص٣٣٥)، عن أبى سعيد وأبى هريرة.

(٤) حديث هند بن أبى هالة وهو حديث طويل فى وصف النبى ﷺ أخرجه الحافظ أبو الشيخ الأصبهانى فى كتابه «أخلاق النبى ﷺ وآدابه» رقم (١٨) وهو حديث ضعيف كما قاله ابن القيم.

بل كان دائم البِشْرِ، ضحوك السن، كما فى صفته الضحوك القتال- صلوات الله وسلامه عليه.

وأما الخبر المروى: «إن الله يحب كل قلب حزين» فلا يعرف إسناده، ولا من رواه، ولا تُعْلَمُ صحته.

وعلى تقدير صحته: فالحزن مصيبة من المصائب، التى يبتلى الله بها عبده، فإذا ابتلى به العبد فصبر عليه، أحب صبره على بلائه.

وأما الأثر الآخر: «إذا أحب الله عبداً، نصب فى قلبه نائحة، وإذا أبغض عبداً جعل فى قلبه مزماراً» فأثر إسرائيلى. قيل: إنه فى التوراة، وله معنى صحيح، فإن المؤمن حزين على ذنوبه، والفاجر لاه لاعب، مترنم فرح.

وأما قوله تعالى عن نبيه إسرائيل: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾ [يوسف]، فهو إخبار عن حاله بمصابه بفقد ولده، وحبيبه، وأنه ابتلاه بذلك كما ابتلاه بالتفريق بينه وبينه.

وأجمع أرباب السلوك: على أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحيرى، فإنه قال: الحزن بكل وجه فضيلة، وزيادة للمؤمن. ما لم يكن بسبب معصية. قال: لأنه إن لم يوجب تخصيصاً، فإنه يوجب تمحيصاً.

فيقال: لا ريب أنه محنة وبلاء من الله، بمنزلة المرض والهم والغم، وأما إنه من منازل الطريق: فلا. والله سبحانه أعلم.

قال صاحب المنازل: «الحزن: توجع لفائت، وتأسف على ممتنع».

يريد: أن ما يَفُوت الإنسان قد يكون مقدوراً له، وقد لا يكون. فإن كان مقدوراً توجع لفوته، وإن كان غير مقدور تأسف لامتناعه.

قال: «وله ثلاث درجات:

الأولى: حزن العامة، وهو حزن على التفريط فى الخدمة، وعلى التورط فى الجفاء، وعلى ضياع الأيام».

«التفريط فى الخدمة» عندهم: فوق التفريط فى العمل وتضييعه، بل هذا الحزن يكون مع القيام والعمل، فإن الخدمة -عندهم- من باب الأخلاق والآداب، لا من باب الأفعال. وهى حق العبودية، وأدبها وواجبها، وصاحب هذا الحزن بالأولى: أن يحزن لتضييع العمل.

و«أما التورط فى الجفاء» فهو أيضًا أخصُّ من المعصية بارتكاب المحظور، لأنه قد يكون لفقد أنس سابق مع الله، فإذا توارى عنه تورط فى الجفوة، فإن الشيخ ذكر «الحزن» فى قسم الأبواب، وهو عنده من قسم البدايات.

وأما تضييع الأيام: فنوعان أيضًا. تضييعها بخلوها عن الطاعات، وتضييعها بخلوها عن مواجيد الإيمان، وذوق حلاوته، والأنس بالله، وحسن الصحبة معه.

فكل واحد من الثلاثة نوعان لأهل البداية. وللسالكين المتوسطين. وكلامه يعم النوعين. وإن كان بالثانى أخص.

قال: «الدرجة الثانية: حزن أهل الإرادة. وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة، وعلى اشتغال النفس عن الشهود، وعلى التسلى عن الحزن».

«تعلق القلب بالتفرقة»: هو عدم الجمعية فى الحضور مع الله، وتشتيت الخواطر فى أودية المرادات.

وأما «اشتغال النفس عن الشهود»: فهو نوعان. اشتغالها عن الذكر الذى يوجب الشهود ويثمره بغيره.

والثانى: اشتغالها عن الشهود. لضعف الذكر، أو لضعف القلب عن الشهود، أو لمانع آخر. ولكن إذا قهر الشهود النفس لم تتمكن من التشاغل عنه إلا بقاهر يقهرها عنه.

وأما «التسلى عن الحزن»: فيعنى أن وجود الحزن فى القلب دليل على الإرادة والطلب، ففقده والتسلى عنه نقص، فيحزن على فقد الحزن، كما يبكى على فقد البكاء. ويخاف من عدم الخوف، وهذا فيه نظر. وإنما يحمد الحزن على فقد الحزن، أما إذا اشتغل عن الحزن بفرح محمود -وهو الفرح بفضل الله ورحمته- فلا معنى للحزن على فوات الحزن.

قال صاحب المنازل: «وليست الخاصة من مقام الحزن فى شىء، لأن الحزن فقد، والخاصة أهل وجدان».

وهذا إن أراد به: أنه لا ينبغى لهم تعمد الحزن: فصحيح. وإن أراد به: لا يعرض لهم حزن: فليس كذلك. والحزن من لوازم الطبيعة، ولكن ليس هو بمقام.

قال: «الدرجة الثالثة من الحزن: التحزن للمعارضات دون الخواطر، ومعارضات القصود، واعتراضات الأحكام».

هذه ثلاثة أمور، بحسب الشهود والإرادة.

الأول: حزن المعارضات. فإن القلب يعترضه وارد الرجاء مثلاً، فلم ينشب أن يعارضه وارد الخوف، وبالعكس، ويعترضه وارد البسط، فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض، ويرد عليه وارد الأنس، فيعترضه وارد الهيبة، فيوجب له اختلاف هذه المعارضات عليه حزنًا لا محالة.

وليست هذه المعارضات من قبيل الخواطر، بل هى من قبيل الواردات الإلهية، فلذلك قال: «دون الخواطر» فإن معارضات الخواطر غير هذا.

وعند القوم: هذا من آثار الأسماء والصفات، واتصال أشعة أنوارها بالقلب، وهو المسمى عندهم بالتجلى.

وأما «معارضات القصود»: فهى أصعب ما على القوم، وفيه يظهر اضطرارهم إلى العلم فوق كل ضرورة، فإن الصادق يتحرى فى سلوكه كله أحب الطرق إلى الله، فإنه سالك به وإليه. فيعترضه طريقان لا يدرى أيهما أرضى لله وأحب إليه. فمنهم: من يحكم العلم بجهده استدلالاً، فإن عجز فتقليداً، فإن عجز عنهما سكن ينتظر ما يحكم له به القدر، ويخلى باطنه من المقاصد جملة.

ومنهم: من يلقى الكل على شيخه، إن كان له شيخ.

ومنهم: من يلجأ إلى الاستخارة والدعاء، ثم ينتظر ما يجرى به القدر.

وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم فى طلب الأرْضَى علمًا ومعرفة، فإن أعجزهم قنعوا بالظن الغالب، فإن تساوى عندهم الأمران، قدموا أرجحهما مصلحة.

ولترجيح المصالح رتب متفاوتة. فتارة تترجح بعموم النفع، وتارة تترجح بزيادة الإيمان، وتارة تترجح بمخالفة النفس، وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها، وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن فى غيرها.

فهذه خمس جهات من الترجيح، قل أن يعدم واحدة منها.

فإن أعوزه ذلك كله تخلى عن الخواطر جملة، وانتظر ما يحركه به محرك القدر، وافتقر إلى ربه، افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه، فإذا جاءته الحركة استخار الله، وافتقر إليه افتقاراً ثانيًا، خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية، لعدم العصمة فى حقه، واستمرار المحنة بعدوه، ما دام فى عالم الابتلاء والامتحان، ثم أقدم على الفعل.

فهذا نهاية ما فى مقدور الصادقين.

ولأهل الجهاد فى هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة. ولهذا قال

الأوزاعى وابن المبارك: «إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما عليه أهل الثغر». يعنى أهل الجهاد. فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأما اعتراضات الأحكام: فيجوز أن يريد بالأحكام: الأحكام الكونية، وهو أظهر، وأن يريد بها الأحكام الدينية، فإن أرباب الأحوال يقع منهم اعتراضات على الأحكام الجارية عليهم بخلاف ما يريدونه، فيحزنون عند إدراكهم لتلك الاعتراضات على ما صدر منهم من سوء الأدب، وتلك الاعتراضات هى إراداتهم خلا ف ما جرى لهم به القدر. فيحزنون على عدم الموافقة، وإرادة خلاف ما أريد بهم.

وإن كان المراد به: الأحكام الدينية: فإنهم تعرض لهم أحوال لا يمكنهم الجمع بينها وبين أحكام الأمر -كما تقدم- فلا يجدون بدًا من القيام بأحكام الأمر، ولا بد أن يعرض لهم اعتراض خَفىٌّ أو جَلىٌّ، بحسب انقطاعهم عن الحال بالأمر، فيحزنون لوجود هذه المعارضة، فإذا قَاموا بأحكام الأمر، ورأوا أن المصلحة فى حقهم ذلك، وحمدوا عاقبته: حزنوا على تسرعهم على المعارضة، فالتسليم لداعى العلم واجب، ومعارضة الحال من قبيل الإرادات والعلل، فيحزن على نفيهما فيه. والله أعلم.

منزلة الخوف

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الخوف».

وهى من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهى فرض على كل أحد.

قال الله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومدح أهله فى كتابه وأثنى عليهم. فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١]، وفى المسند والترمذى عن عائشة- رضى الله عنها- قالت: «قلت يا رسول الله، قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أهو الذى يزنى، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق. ويخاف أن لا يقبل منه» قال الحسن: «عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا».

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجارى الأحكام، وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الخشية» أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]، فهى خوف مقرون بمعرفة. وقال النبى ﷺ: «**إنى أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**»(١).

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذى يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان.

إحداهما: حركة للهرب منه، وهى حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره فى مكان لا يصل إليه فيه، وهى الخشية. ومنه: انخش الشيء، والمضاعف والمعتل أخوان، كتقضى البازى وتقضض.

وأما «الرهبة» فهى الإمعان فى الهرب من المكروه، وهى ضد «الرغبة» التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه.

وبين الرَّهَب والهَرَب تناسب فى اللفظ والمعنى، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذى هو عقد تقاليب الكلمَة على معَنى جامع.

وأما «الوجل»: فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما «الهيبة»: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين. والخشية للعلماء العارفين. والهيبة للمحبين. والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية. كما قال النبى ﷺ: «**إنى لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية**»(٢) وفى رواية «خوفًا» وقال: «**لو تعلمون ما أعلم**

---

(١) أخرجه البخارى (جـ٩/ ٥٠٦٣)، ومسلم (جـ٢- صيام/ ٧٤).

(٢) انظر صحيح البخارى (جـ١/ ٢٠)، وصحيح مسلم (جـ٢- حج/ ١٤١) بهذا المعنى من حديث جابر.

لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفُرُشِ ولخرجتم إلى الصَّعِدَاتِ تجأرون إلى الله تعالى»[١] .

فصاحب الخوف : يلتجئ إلى الهرب . والإمساك ، وصاحب الخشية : يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم . ومثلهما مَثَلُ من لا علم له بالطب ، ومثل الطبيب الحاذق ، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب . والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء .

قال أبو حفص : «الخوف سوط الله ، يُقَوِّمُ به الشاردين عن بابه» . وقال : «الخوف سراج فى القلب . به يبصر ما فيه من الخير والشر . وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل ، فإنك إذ خفته هربت إليه» . فالخائف هارب من ربه إلى ربه .

قال أبو سليمان : ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب . وقال إبراهيم بن سفيان : «إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها . وطرد الدنيا عنها» . وقال ذو النون : «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق» . وقال حاتم الأصم : «لا تغتر بمكان صالح . فلا مكان أصلح من الجنة ، ولقى فيها آدم ما لقى . ولا تغتر بكثرة العبادة ، فإن إبليس بعد طول العبادة لقى ما لقى[٢] . ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام ابن باعورا لقى ما لقى وكان يعرف الاسم الأعظم[٣] ، ولا تغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم ، فلا شخص أصلح من النبى ﷺ . ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون .

والخوف ليس مقصوداً لذاته . بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل . ولهذا يزول بزوال المخوف ، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

درجات الخوف

والخوف يتعلق بالأفعال . والمحبة تتعلق بالذات والصفات . ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم . ولا يلحقهم فيها خوف . ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه .

والخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل . فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

---

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (جـ٢/ ١٠٤٤) عن عائشة ، ومسلم (جـ١ - صلاة/ ١١٢) عن أنس .

(٢) فى هامش المطبوعة : «أين الدليل على هذا من الكتاب أو السنة؟» . وصدق كاتبه .

(٣) قلت: وهذه أيضًا أين الدليل عليه؟!!

قال أبو عثمان : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطنًا .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول : الخوف المحمود : ما حجزك عن محارم الله .

وقال صاحب المنازل: «الخوف : هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر» .

يعنى الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد .

قال: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الخوف من العقوبة . وهو الخوف الذى يصح به الإيمان، وهو خوف العامة، وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة» .

والخوف مسبوق بالشعور والعلم، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به .

وله متعلقان . أحدهما : نفس المكروه المحذور وقوعه . والثانى : السبب والطريق المفضى إليه . فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف : يكون خوفه . وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضى إلى محذور كذا : لم يخف من ذلك السبب، ومن اعتقد أنه يفضى إلى مكروه ما، ولم يعرف قدره : لم يخف منه ذلك الخوف، فإذا عرف قدر الخوف، وتيقن إفضاء السبب إليه : حصل له الخوف .

هذا معنى تولده من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة .

وفى مراقبة العاقبة : زيادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينه، بحيث لا ينساه . فإنه- وإن كان عالمًا به- لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف، فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان، وترحله من القلب علامة ترحل الإيمان منه . والله أعلم .

قال : «الدرجة الثانية: خوف المكر فى جريان الأنفاس المستغرقة فى اليقظة، المشوبة بالحلاوة ».

يريد: أن من حصلت له اليقظة بلا غفلة، واستغرقت أنفاسه فيها : استحلى ذلك . فإنه لا أحلى من الحضور فى اليقظة، فإنه ينبغى أن يخاف المكر ، وأن يسلب هذا الحضور، واليقظة والحلاوة، فكم من مغبوط بحالة انعكس عليه الحال، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ويضرب باليمين على الشمال؟ بَيْنَمَا بَدْرُ أحواله

مستنيرًا فى ليالى التمام إذ أصابه الكسوف فدخل فى الظلام، فَبُدِّلَ بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة، وبالإقبال إعراضًا، وبالتقريب إبعادًا، وبالجمع تفرقة. كما قيل:

أحسنتَ ظَنَّكَ بالأيام، إذ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سوءَ ما يأتى به القَدَرُ
وسالمْتكَ الليالى، فاغترَرْتَ بها وعند صَفْوِ الليالى يَحْدُثُ الكَدَرُ

قال: «الدرجة الثالثة: [درجة الخاصة] وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف، إلا هيبة الجلال، وهى أقصى درجة يشار إليها فى غاية الخوف».

يعنى أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة، وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه. فليس خوفهم خوف وحشة، كخوف المسيئين المنقطعين. لأن الله عز وجل معهم بصفة الإقبال عليهم، والمحبة لهم، وهذا بخلاف هيبة الجلال، فإنها متعلقة بذاته وصفاته، وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب، كانت هيبته وإجلاله فى قلبه أعظم، وهى أعلى من درجة خوف العامة.

قال: «وهى هيبة تعارض المكَاشفَ أوقات المناجاة، وتصون المسامر أحيان المسامرة، وتفصم المعاين بصدمة العزة».

يعنى أن أكثر ما تكون «الهيبة» أوقات المناجاة، وهو وقت تملق العبد رَبَّهُ، وتضرعه بين يديه، واستعطافه، والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه، أو مناجاته بكلامه. هذا هو مراد القوم بالمناجاة.

وهذه المناجاة: توجب كشف الغطاء بين القلب وبين الرب، ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته، وتَجَلِّيها عليه، فتعارضه «الهيبة» فى خلال هذه الأوقات، فيفيض من عنان مناجاته بحسب قوة واردها.

وأما صون المسامر أحيان المسامرة: فالمسامرة عندهم: أخص من المناجاة. وهى مخاطبة القلب للرب خطاب المحب لمحبوبه، فإن لم يقارنها هيبة جلاله، أخذت به فى الانبساط والإدلال. فتجيء الهيبة صائنة للمسامر فى مسامرته عن انخلاعه من أدب العبودية.

وأما «فصمها المعاين بصدمة العزة»: فإن «الفصم» هو القطع. أى تكاد تقتله وتمحقه بصدمة عزة الربوبية بمعانيها الثلاثة. وهى: عزة الامتناع، وعزة القوة والشدة، وعزة السلطان والقهر، فإذا صدمت المعاين كادت تفصمه وتمحق أثره، إذ لا يقوم لعزة الربوبية شيء. والله أعلم.

القلب فى سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر. ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يُقَوِّى فى الصِّحَّة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جَنَاحَ الرجاءِ على جناح الخوف، هذه طريقة أبى سليمان وغيره.

قال: ينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هى المَرْكَبُ، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بِمَنِّه وكرمه.

منزلة الإشفاق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإشفاق».

قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ** (٤٩) ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** (٢٥) **قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** (٢٦) **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** (٢٧) ﴾ [الطور: ٢٥- ٢٧].

«الإشفاق» رقة الخوف. وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها، ولهذا قال صاحب المنازل:

«الإشفاق: دوام الحذر، مقرونا بالترحم، وهو على ثلاث درجات. الأولى: إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد».

أى تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان، ومعاندة العبودية.

«وإشفاق على العمل: أن يصير إلى الضياع».

أى يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التى قال الله فيها: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** (٢٣) ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهى الأعمال التى كانت لغير الله، وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ، ويخاف أيضا أن يضيع عمله فى المستقبل، إما بتركه، وإما بمعاصى تفرقه وتحبطه، فيذهب ضائعًا، ويكون حال صاحبه كالحال التى قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ** ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٦]، قال عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- للصحابة- رضى الله

(١) البخارى (جـ٨/ ٤٥٣٨).

عنهم- فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم. فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين. قال: يا ابن أخى قل. ولا تحقرن نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، فبعث الله إليه الشيطان، فعمل بالمعاصى حتى أغرق جميع أعماله»(١).

قال: «وإشفاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها».

هذا قد يوهم نوع تناقض. فإنه كيف يشفق مع معرفة العذر؟ وليس بمتناقض. فإن الإشفاق -كما تقدم- خوف مقرون برحمة، فيشفق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنهى، مع نوع رحمة، بملاحظة جريان القدر عليهم.

قال: «الدرجة الثانية: إشفاق على الوقت: أن يشوبه تفرق».

أى يحذر على وقته: أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل.

قال: «وعلى القلب: أن يزاحمه عارض».

والعارض المزاحم: إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة، وكل سبب يعوق السالك.

قال: «وعلى اليقين: أن يداخله سبب».

هو الطمأنينة إلى من بيده الأسباب كلها. فمتى داخل يقينه ركون إلى سبب وتعلق به، واطمأن إليه: قدح ذلك فى يقينه، وليس المراد: قطع الأسباب عن أن تكون أسبابًا، والإعراض عنها فإن هذا زندقة وكفر ومحال، فإن الرسول سبب فى حصول الهداية والإيمان. والأعمال الصالحة سبب لحصول النجاة ودخول الجنة، والكفر سبب لدخول النار، والأسباب المشاهدة أسباب لمسبباتها ولكن الذى يريد أن يحذر منه: إضافة يقينه إلى سبب غير الله، ولا يتعلق بالأسباب بل يفنى بالمسبب عنها.

والشيخ ممن يبالغ فى إنكار الأسباب. ولا يرى وراء الفناء فى توحيد الربوبية غاية. وكلامه فى الدرجة الثالثة فى معظم الأبواب: يرجع إلى هذين الأصلين. وقد عرفت ما فيهما، وأن الصواب خلافهما، وهو إثبات الأسباب والقوى، وأن الفناء فى توحيد الربوبية ليس هو غاية الطريق، بل فوقه ما هو أجل منه وأعلى وأشرف.

ومن هاتين القاعدتين عرض فى كتابه من الأمور التى أنكرت عليه ما عرض.

---

(١) البخارى (جـ٨/ ٤٥٣٨).

قال : «الدرجة الثالثة: إشفاق يصون سعيه عن العُجْب، ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق، ويحمل المريد على حفظ الجد» .

الأول : يتعلق بالعمل، والثانى : بالخلق، والثالث : بالإرادة . وكل منها له ما يفسده .

فالعجب: يفسد العمل كما يفسده الرياء . فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

والمخاصمة للخَلْقِ : مفسدة للخُلُقِ، فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

والإرادة : يفسدها عدم الجد، وهو الهزل واللعب، فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته : استقام سلوكه وقلبه وحاله . والله المستعان .

منزلة الخشوع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الخشوع».

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦]، قال ابن مسعود- رضى الله عنه- : «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال ابن عباس : «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين . فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] .

و«الخشوع» فى أصل اللغة : الانخفاض، والذل، والسكون . قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [طه: ١٠٨]، أى سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع . وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالرى والنبات . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩] .

و«الخشوع» قيام القلب بين يدى الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه .

وقيل : «الخشوع» الانقياد للحق . وهذا من موجبات الخشوع .

فمن علاماته : أن العبد إذا خُولِفَ ورُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد .

وقيل : «الخشوع» خمود نيران الشهوة . وسكون دخان الصدور . وإشراق نور التعظيم فى القلب .

وقال الجنيد :الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب. وثمرته على الجوارح. وهى تظهره. «ورأى النبى ﷺ رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة، فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»(١) وقال النبى ﷺ: «**التقوى ههنا -وأشار إلى صدره- ثلاث مرات**»(٢) وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع ههنا- وأشار إلى صدره- لا ههنا- وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة -رضى الله عنهم- وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر ابن الخطاب -رضى الله عنه- رجلاً طأطأ رقبته فى الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع فى الرقاب، إنما الخشوع فى القلوب» ورأت عائشة -رضى الله عنها- شبابًا يمشون ويتماوتون فى مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك. فقالت: «كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. وإذا قال: أسمع. وإذا ضرب: أوجع. وإذا أطعم: أشبع. وكان هو الناسك حقًا». وقال الفضيل بن عياض: كان يُكْرَه أن يُرىَ الرجلُ من الخشوع أكثر مما فى قلبه. وقال حذيفة- رضى الله عنه-: «أول ما تفقدون مَن دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورب مُصَلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا» وقال سهل: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان».

تعريف الخشوع

قال صاحب المنازل: «الخشوع: خمود النفس، وهمود الطباع لمتعاظم، أو مفزع».

يعنى: انقباض النفس والطبع، وهو خمود قوى النفس عن الانبساط لمن له فى القلوب عظمة ومهابة، أو لما يفزع منه القلب.

والحق: أن «الخشوع» معنى يلتئم من التعظيم، والمحبة، والذل والانكسار.

---

(١) ذكره الحافظ فى «الفتح» انظر شرح الحديث (٧٤١، ٧٤٢) فى باب (الخشوع فى الصلاة) من المجلد الثانى.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (جـ٤- بر/ ٣٢)، والترمذى (جـ٤/ ١٩٢٧)، وأحمد (جـ٢ ص٢٧٧) عن أبى هريرة.

قال: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التذلل للأمر. والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق».

التذلل للأمر: تَلَقِّيه بذلَّة القبول والانقياد والامتثال. ومواطأة الظاهر الباطن، مع إظهار الضعف، والافتقارَ إلَىَ الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.

وأما الاستسلام للحكم: فيجوز أن يريد به: الحكم الدينى الشرعى. فيكون معناه: عدم معارضته برأى أو شهوة، ويجوز أن يريد به: الاستسلام للحكم القدرى، وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض.

والحق: أن «الخشوع» هو الاستسلام للحكمين. وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمر الله وقضائه.

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه على تفاصيل ما فى القلب والجوارح، وهذا أحد التأويلين فى قوله تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** (٤٦) ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقوله: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** (٤٠) ﴾ [النازعات: ٤٠]، وهو مقام الرب على عبده بالاطِّلاعِ والقدرة والربوبية.

فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعًا، وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونَظَرِهِ إليه.

والتأويل الثانى: أنه مقام العبد بين يدى ربه عند لقائه.

فعلى الأول: يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل.

وعلى الثانى: -وهو أليق بالآية- يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف. والله أعلم.

قال: «الدرجة الثانية: ترقب آفات النفس والعمل، ورؤية فضل كل ذى فضل عليك. وتنسم نسيم الفناء».

يريد: انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك، فإنه يجعل القلب خاشعًا لا محالة، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما: من الكبر، والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفسانى، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذى ترضاه لربك، وغيْر ذلك من عيوب النفس، ومفسدات الأعمال.

وأما «رؤية فضل كل ذى فضل عليك»: فهو أن تراعى حقوق الناس فتؤديها، ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها، فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك، وتعترف بفضل ذى الفضل منهم، وتنسى فضل نفسك.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: «العارف لا يرى له على أحد حقًا. ولا يشهد على غيره فضلاً، ولذلك لا يُعَاتِب، ولا يُطَالِب، ولا يُضَارِب».

وأما «تنسم نسيم الفناء»: فلما كان الفناء عنده غاية، جعل هذه الدرجة كالنسيم لرقته. وعبر عنها بالنسيم للطف موقعه من الروح، وشدة تشبثها به، ولا ريب أن الخشوع سبب موصل إلى الفناء، فاضله ومفضوله.

قال: «الدرجة الثالثة: حفظ الحرمة عند المكاشفة، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل».

أما «حفظ الحرمة عند المكاشفة»: فهو ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال الذى تقتضيه المكاشفة، فإن المكاشفة توجب بسطًا، ويُخَاف منه شَطْحٌ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة.

وأما «تصفية الوقت من مراءاة الخلق»: فلا يريد به أنه يصفى وقته عن الرياء، فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدرًا وأعلى من ذلك.

وإنما المراد: أن يخفى أحواله عن الخلق جَهْده، كخشوعه وذله وانكساره، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله، وكم قد أُقْتُطِعَ فى هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله، فلا شىء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شىء، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يَدَّعِى الشرفَ فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيراً: مالى شىء، ولا منى شىء، ولا فى شىء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدِّى وابن المكدِّى … وهكذا كان أبى وجَدِّى

وكان إذا أُثْنِىَ عليه فى وجهه يقول: والله إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت. وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وبعث إلى فى آخر عمره قاعدة فى التفسير بخطه . وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المُسَيْكِينُ فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى . وهى ظالمتى ... والخير إن يأتنا من عنده ياتى
لا أستطيع لنفسى جَلْبَ منفعة ... ولا عن النفس لى دفع المضرَّات
وليس لى دونه مولى يُدَبِّرنىً ... ولا شفيعٌ إذا حاطت خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جا بآياتِ
ولست أملك شيئًا دونه أبدًا ... ولا شريك أنا فى بعض ذراتَ
ولا ظهير له، كى يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لى وصف ذات، لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصف له ذاتى
وهذه الحال حال الخلقً أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتى
فمن بغى مطلبًا من غير خالقه ... فَهْوَ الجهولُ الظلوم المشرك العاتى
والحمد لله ملء الكون أجمعه ... ما كان منه، وما مِنْ بَعْدُ قد يَاتِى

وأما تجريد رؤية الفضل : فهو أن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله، فهو المان به بلا سبب منك، ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة، ولا وسيلة سبقت منك توسلتَ بها إلى إحسانه .

والتجريد : هو تخليص شهود الفضل لوليه، حتى لا ينسبه إلى غيره، وإلا فهو فى نفسه مجرد عن النسبة إلى سواه، وإنما الشأن فى تجريده فى الشهود ليطابق الشهود الحق فى نفس الأمر . والله أعلم .

الصلاة وعدم الخشوع

فإن قيل : ما تقولون فى صَلاَةِ مَنْ عَدِمَ الخشوع : هل يُعْتَدُّ بها أم لا؟

قيل : أما الاعتداد بها فى الثواب : فلا يعتد له فيها، إلا بما عَقَلَ فيه منها، وخَشَعَ فيه لربه .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»(١) .

(١) انظر «مسند أحمد» (جـ٣ ص٢٠٤) .

وفي المسند مرفوعًا: **«إن العبد ليصلي الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها -حتى بلغ عشرها»**(١).

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم، فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعْتَدَّ له بها ثوابًا لكان من المفلحين.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء: فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها أُعْتُدَّ بها إجماعًا، وكانت السنن، والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها.

وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها، وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه، لا في وسيطه وبسيطه.

واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يُضْمَنْ له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها، فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها، وبقيت صورتها وظاهرها؟.

قالوا: ولو ترك العبد واجبًا من واجباتها عمدًا لأبطلها تركه، وغايته: أن يكون بعضًا من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها، ولبها ومقصودها؟ وصارت بمنزلة العبد الميت، إذا لم يُعْتَدَّ بالعبد المقطوع اليد، يعتقه تقربًا إلى الله تعالى في كفارة واجبة، فكيف يعتد بالعبد الميت.

وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدى إليه جارية شلاء، أو عوراء، أو عمياء، أو مقطوعة اليد والرجل، أو مريضة، أو دميمة، أو قبيحة، حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة، فكيف بالصلاة التي يهديها للعبد، ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟ والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عُزِلَ مَلكُهَا وتعطل؟.

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائمًا

---

(١) سنن أبي داود (جـ١/ ٧٩٦) عن عمار بن ياسر.

بعبوديته، فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته -بالغفلة والوسواس- فأنى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون، وبه يأتمرون؟.

قالوا: وفي الترمذي وغيره، مرفوعًا إلى النبي ﷺ: **«إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل»**(١) وهذا إما خاص بدعاء العبادة، وإما عام له ولدعاء المسألة، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو أبعد. فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاص حقه من قلب غافل.

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة، والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص. فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد. والغافل لا قصد له. فلا عبودية له.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)**﴾ [الماعون:٤، ٥]، وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت، كما قال ابن مسعود وغيره. وإما عن الحضور. والخشوع، والصواب: أنه يعم النوعين. فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء. ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط، فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه:

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر، وينتقل إلى بدله. والإخلاص والحضور لا يسقط بحال ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور، فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب، ولا حضور كالمسافر، والمريض، وذي الشغل الذي يحتاج معه إلى الجمع، كما نص عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعية القلب على الله في الصلاة: أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها، فكيف يُظَنُّ به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في ركن، أو ترك حرف، أو شدة من القرآن، أو ترك تسبيحة، أو قول: «سمع الله

---

(١) أخرجه الترمذي (جـ٥/ ٣٤٧٩)، والحاكم عن أبي هريرة، وأحمد عن ابن عمر (جـ٢ ص١٧٧) بنحوه عن ابن عمر وهو حديث حسن.

لمن حمده» أو قول : «ربنا ولك الحمد» أو ذكر رسول الله -ﷺ- بالصلاة عليه، ثم يصححها مع فوت لُبِّهَا، ومقصودها الأعظم، وروحها وسرها.

فهذا ما احتجت به هذه الطائفة. وهى حجج -كما تراها- قوة وظهوراً.

قال أصحاب القول الآخر : قد ثبت عن النبى ﷺ فى الصحيح أنه قال : «**إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان، وله ضُراطٌ حتى لا يسمع التأذين. فإذا قُضِىَ التأذينُ أقبل. فإذا ثُوِّبَ بالصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه، فيذكره ما لم يكن يذكر. ويقول: اذكر كذا، اذكر كذا- لما لم يكن يذكر- حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى. فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس**»(١) .

قالوا : فأمره النبى ﷺ فى هذه الصلاة التى قد أغفله الشيطان فيها، حتى لم يدريَدْركَمكم صلى : بأن يسجد سجدتى السهو. ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلة -كما زعمتمَ- لأمره بإعادتها.

قالوا : وهذا هو السر فى سجدتى السهو، ترغيما للشيطان فى وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور فى الصلاة، ولهذا سماهما النبى ﷺ المرغمتين وأمر من سها بهما، ولم يفضل فى سهوه الذى صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب. وقال : «**لكل سهو سجدتان**»(٢) ولم يستثن من ذلك السهو الغالب، مع أنه الغالب.

قالوا : ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة. وأما حقائق الإيمان الباطنة : فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب، فلله تعالى حكمان : حكم فى الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحكم فى الآخرة على الظواهر والبواطن، ولهذا كان النبى ﷺ يقبل علانية المنافقين، ويكلُ أسرارهم إلى الله فيُنَاكَحُون، ويرثون ويورثون، ويعتد بصلاتهم فى أحكام الدنيا. فلاَ يكون حكمهم حكم تارك الصلاة، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة. وأحكام الثواب والعقاب ليست إلى البشر، بل إلى الله، والله يتولاه فى الدار الآخرة.

قالوا : فنحن فى حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائى، مع أنه لا يسقط عنه العقاب، ولا يحصل له الثواب فى الآخرة فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولى بالصحة.

---

(١) انظر البخارى (جـ٢/ ٦٠٨)، وصحيح مسلم (جـ١- صلاة/ ١٩).

(٢) حديث حسن : أخرجه أحمد (جـ٥ ص٢٨٠)، وابن ماجه (جـ١/ ١٢١٩) عن ثوبان.

نعـم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلاً ولا آجلاً، فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل فى القلب من قوة إيمانه، واستنارته، وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة، والفرح والسرور، واللذة التى تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قَرَّبَهُ السلطان منه، وخَصَّه بمناجاته والإقبال عليه. والله أعلى وأجل.

وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلى فى الآخرة، ومرافقة المقربين.

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع، وإن الرجلين ليكون مقامهما فى الصف واحداً. وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كلامنا فى هذا كله.

فإن أردتم وجوب الإعادة: لتحصل هذه الثمرات والفوائد: فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يُفَوِّتها على نفسه، وإن أردتم بوجوبها أنَّا نلزمه بها ونعاقبه على تركها، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا.

وهذا القول الثانى أرجح القولين. والله أعلم.

* * * * *

انتهى الجزء الأول بحمد الله

ويليه الجزء الثانى وأوله:

منزلة الإخبات

فهرس الموضوعات

٥ مقدمة الناشر.
٦ نبذة عن حياة المؤلف.
١١ هداية القرآن.
١٣ المطالب العالية التى اشتملت عليها سورة الفاتحة.
٢٥ هداية المؤمنين وضلال المعرضين.
٢٦ الصراط المستقيم أجلُّ المطالب.
٢٧ التوحيد.
٣٠ دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات.
٣٢ دلالة الأسماء الخمسة على الذات والصفات.
٣٣ دلالة اسم الجلالة على الأسماء والصفات.
٣٤ الاستواء على العرش.
٣٥ ارتباط الخلق والأمر بأسمائه «الله والرب والرحمن».
٣٦ إيقاع الحمد على مضمون هذه الأسماء.
٣٧ مراتب الهداية.
٣٧ المرتبة الأولى.
٣٨ المرتبة الثانية.
٣٩ المرتبة الثالثة.
٣٩ المرتبة الرابعة.
٤٠ المرتبة الخامسة.
٤١ المرتبة السادسة.
٤٤ درجات الإلهام.
٤٤ الدرجة الأولى.
٤٤ النوع الأول.
٤٥ النوع الثانى.
٤٦ النوع الثالث.
٤٦ الدرجة الثانية.
٤٧ الدرجة الثالثة.
٤٧ المرتبة العاشرة.
٥٠ فى اشتمال الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان.
٥٤ اشتمال الفاتحة فى الرد على جميع المبطلين.
٥٦ الرد على المجوس والقدرية.
٥٧ الرد على الجهمية.
٥٩ فى تضمنها الرد على الجبرية.

٦١ فصل فى تضمنها الرد على منكرى تعلق علمه تعالى بالجزئيات.
٦٢ فصل في تضمنها الرد على منكرى النبوات.
٦٣ إثبات كلام الله تعالى.
٦٤ فصل فى تضمنها الرد على من قال بقدم العالم.
٦٤ فصل فى تضمنها الرد على الرافضة.
٦٦ الفاتحة واشتمالها على جميع معانى القرآن.
٦٩ تقسيم الناس إلى أهل عبادة ومعرضين.
٦٩ القسم الأول.
٦٩ القسم الثانى.
٧١ القسم الثالث.
٧٢ القسم الرابع.
٧٣ التحقق بإياك نعبد.
٧٣ أحدها أهل الإخلاص.
٧٤ الضرب الثانى.
٧٤ الضرب الثالث.
٧٤ الضرب الرابع.
٧٥ فضل أهل مقام «إياك نعبد» وهم أربعة أصناف.
٧٥ الصنف الأول.
٧٥ الصنف الثانى.
٧٦ الصنف الثالث.
٧٧ الصنف الرابع.
٨٧ بناء «إياك نعبد» على أربع قواعد.
٨٧ دعوة الرسل إلى التوحيد والعبادة.
٨٨ مقام العبودية وأهله.
٨٩ لزوم العبودية إلى الموت.
٩٠ فصل فى انقسام العبودية إلى عامة وخاصة.
٩٢ فصل فى مراتب «إياك نعبد» علمًا وعملاً.
٩٤ قواعد العبودية.
١٠٤ منازل «إياك نعبد».
١٠٥ أولها: اليقظة. ثانيها: العزم. ثالثها: الفكرة.
١٠٦ رابعها: البصيرة وهى ثلاث درجات.
١٠٦ الأولى البصيرة فى الأسماء والصفات.
١٠٧ الثانية فى الأمر والنهى.
١٠٧ الثالثة فى الوعد والوعيد.
١٠٨ طريقة صاحب المنازل وتقسيمه البصيرة إلى ثلاث درجات.
١٠٨ الأولى.
١٠٨ الثانية.
١٠٩ الثالثة.
١١١ منزلة القصد.
١١٣ ترتيب مقامات السالك.
١١٥ ترتيب المقامات.
١١٩ منازل العبودية أولها اليقظة.
١٢٠ الثانى مطالعة الجناية.

١٢١ الثالث الانتباه.
١٢٢ معرفة النعمة.
١٢٤ التوحيد ومذهب الهروى.
١٢٥ تعريف الفناء.
١٢٧ الدرجة الأولى فناء المعرفة.
١٢٨ والثانية: شهود الطلب.
١٢٩ الثالثة: الفناء عن شهود الفناء.
١٣٠ أقسام الفناء.
١٣٣ أسباب الفناء.
١٣٣ أصل الفناء.
١٣٤ ما يعرض للسالك على طريق الفناء.
١٣٨ دحض أضاليل المعطلة.
١٣٩ الدرجة الثالثة.
١٤١ عودة إلى منازل «إياك نعبد وإياك نستعين».
١٤٢ منزلة المحاسبة ولها ثلاثة أركان.
١٤٢ الركن الأول: المقايسة بين ما للعبد وما لله.
١٤٥ الركن الثانى: التمييز بين ما للعبد وما عليه.
١٤٦ الركن الثالث: الرضا بالطاعة التعيير بالمعصية.
١٤٧ التعيير بالذنب وفائدة الاعتبار.
١٤٩ مقام التوبة
١٥٠ حقيقة التوبة.
١٥٢ شروط التوبة ثلاثة: الندم والإقلاع والاعتذار.
١٥٤ حقائق التوبة.
١٥٧ أعذار الخليقة ما بين محمود ومذموم.
١٦٣ المعنى الثانى لأعذار الخليقة.
١٦٦ ركوب سفينة القدر.
١٦٧ دفع القدر بالقدر.
١٦٨ أسرار حقيقة التوبة.
١٧٠ لطائف أسرار التوبة ثلاثة.
١٧٠ أولها النظر إلى الجناية.
١٧٤ فرح الله بتوبة التائب.
١٧٥ عناية الله بالإنسان.
١٧٨ مثل فرح الرب بتوبة العبد.
١٨٠ إقامة الحجة على العبد بتبليغه الرسالة.
١٨٢ كيف تحق كلمة الكفر والضلال وكلمة العذاب.
١٨٢ النفس الأمارة بالسوء.
١٨٣ اللطيفة الثانية من لطائف أسرار التوبة.
١٨٥ تدرج الشيطان فى الإغواء: الأولى: الكفر. الثانية: البدعة.
١٨٥ الثالثة: الكبائر.
١٨٦ العقبة الرابعة: الصغائر.
١٨٦ الخامسة: المباحات.
١٨٧ السادسة: الأعمال المرجوحة .
١٨٧ السابعة: عقبة التسليط جند الشيطان.
١٨٩ اللطيفة الثالثة من لطائف أسرار التوبة.
١٩١ بطلان نفى التحسين والتقبيح.
١٩٢ تصريح القرآن بحسن الأفعال وقبحها.

١٩٣ الأدلة القرآنية على حسن الأفعال وقبحها لذاتها.

١٩٦ تنزه الخالق عن الظلم والعبث والسدى وتحريمه للظلم.

١٩٨ أمثال القرآن.

٢٠٠ رأى الفقه والطب.

٢٠٢ غلط السالكين فى الفرق الطبيعى والشرعى، وضلالهم فى إسقاط الأوامر والنواهى.

٢٠٤ الرد على سقوط الأمر والنهى:

٢٠٧ الفرق بين المشيئة والمحبة والرضاء.

٢٠٨ شهود الجبرية والقدرية.

٢٠٨ الفرق بين المشيئة والمحبة.

٢٠٩ تفسير «أعوذ برضاك من سخطك».

٢١١ الرضاء بالقضاء والقدر.

٢١٢ توبة العامة ومفاسدها عند الخاصة.

٢١٧ تولد وحدة الوجود من تعطيل الجهمية وفناء الصوفية.

٢١٨ توبة الأوساط من استقلال العبد المعصية.

٢٢٠ توبة الخواص من تضييع الوقت.

٢٢٢ التوبة من الغفلة.

٢٢٤ تأخير التوبة ذنب تجب التوبة منه.

٢٢٥ هل تصح التوبة من ذنب دون آخر.

٢٢٧ أحكام التوبة.

٢٣١ هل يعود الذنب إذا رجع إليه بعد التوبة منه.

٢٣٣ توبة العاجز عن الذنب.

٢٣٣ التوبة وخطر الإصرار والتسويف.

٢٣٦ التوبة والنية.

٢٣٨ التوبة وأداء الحقوق.

٢٤٠ هل يرجع العبد إلى الدرجة التى كان عليها قبل الذنب.

٢٤٢ تفضيل الطائع على التائب توبة نصوحًا.

٢٤٤ وجوه ترجيح التائب المحسن على من لم يعص.

٢٥١ التوبة فى القرآن الكريم.

٢٥٢ التوبة والاستغفار.

٢٥٣ حقيقة التوبة النصوح.

٢٥٤ الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

٢٥٦ توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله.

٢٥٨ الذنوب.

٢٥٩ آراء السلف فى اللمم.

٢٦٢ آراء السلف فى الكبائر

٢٦٧ التوحيد.

٢٦٨ آراء فى الكبيرة.

٢٧٢ المحبة والتسامح.

٢٧٤ أجناس ما يتاب عنه: أولها: الكفر والحكم بما لم ينزل الله.

٢٧٥ الكفر الأكبر خمسة أنواع: (١)التكذيب (٢) الإباء والاستكبار (٣)كفر الإعراض (٤) الشك (٥)النفاق.

٢٧٧ كفر الجحود نوعان: مطلق ومقيد.
٢٧٧ الشرك نوعان: أكبر وأصغر.
٢٧٩ المشرك.
٢٨١ الشرك الأصغر.
٢٨٣ النفاق.
٢٩١ خوف المؤمنين الصادقين.
٢٩٢ الفسوق.
٢٩٥ شروط توبة الفاسق:
٢٩٦ توبة السارق.
٢٩٩ الإثم والعدوان.
٣٠١ الفحشاء والمنكر.
٣٠٢ القول على الله بلا علم.
٣٠٣ أحكام التوبة.
٣١٣ حقوق العباد.
٣١٦ توبة الغاصب.
٣١٧ الذنوب التى لا تقبل التوبة منها
٣١٩ تأويلات النصوص العامة فى خلود العصاة فى النار.
٣٢٣ مشاهد الناس فى المعصية وموقعها من نفوسهم. وهى ثلاثة عشر مشهداً.
٣٢٣ الأول: مشهد الحيوانية.
٣٢٦ الثاني: مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة.
٣٢٧ الثالث: مشهد الجبرية.
٣٢٧ الرابع: مشهد القدرية النفاة.
٣٢٨ الخامس: مشهد الحكمة.
٣٣١ السادس: مشهد التوحيد.
٣٣٣ السابع: مشهد التوفيق والخذلان.
٣٣٦ الثامن: مشهد الأسماء والصفات.
٣٤٠ التاسع: مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده.
٣٤٣ العاشر: مشهد الرحمة.
٣٤٣ الحادى عشر: مشهد العجز والضعف.
٣٤٥ الثانى عشر: مشهد الذل والانكسار.
٣٤٦ الثالث عشر: مشهد العبودية والمحبة والشوق إلخ.
٣٤٨ منزلة التوبة ومنزلة الإنابة.
٣٤٩ أنواع الإنابة.
٣٥١ الرجوع إلى الله.
٣٥٢ علامات الإنابة.
٣٥٤ منزلة التذكر.
٣٥٥ التذكر والتفكر.
٣٥٧ أبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع، والاستبصار والظفر.
٣٥٨ تفسير الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالأحسن.
٣٦١ جنى ثمرة الفكر.
٣٦٣ فوائد تدبر القرآن والتأمل فى معانيه.
٣٦٥ مفسدات القلب أولها. خلطة الناس ومعاشرتهم.
٣٦٧ ثانيها: ركوب بحر التمنى
٣٦٨ ثالثها: التعلق بغير الله تعالى.

٣٦٩	رابعها: الطعام.
٣٦٩	خامسها: كثرة النوم.
٣٧٠	منزلة الاعتصام بالله.
٣٧٣	اعتصام الخاصة.
٣٧٤	اعتصام خاصة الخاصة.
٣٧٧	منزلة الفرار إلى الله.
٣٧٩	فرار الخاصة من الخبر إلى الشهود.
٣٨٠	الفرار من حظوظ النفس إلى الله.
٣٨٢	فرار خاصة الخاصة.
٣٨٢	منزلة الرياضة.
٣٨٣	رياضة الخاصة.
٣٨٤	رياضة خاصة الخاصة.
٣٨٦	منزلة السماع.
٣٨٧	القسم الأول: ما يحبه الله ويرضاه.
٣٩١	القسم الثاني من السماع: ما يبغضه الله ومنه الشعر والغناء.
٣٩٨	تحكيم الوحي.
٤٠٠	محاكمة السماع إلى عبوديتَيْ السراء والضراء. الصبر والشكر.
٤٠١	القسم الثالث من السماع: مباح مأذون فيه لا يحبه ولا يبغضه.
٤٠٢	درجات سماع العامة، إجابة الوعد والوعيد ومشاهدة المنة.
٤٠٣	سماع الخاصة بثلاثة أشياء.
٤٠٥	سماع خاصة الخاصة.
٤٠	منزلة الحزن.
٤١٠	منزلة الخوف.
٤١٣	درجات الخوف ثلاثة.
٤١٥	منزلة الإشفاق ودرجاتها.
٤١٧	منزلة الخشوع.
٤١٨	تعريف الخشوع ودرجاته الثلاث.
٤٢١	الصلاة وعدم الخشوع.
٤٢٧	الفهرس